



السید جمال الدین الحسینی

الرسائل والمقالات

اعداد و تقديم :

سیدهادی خسروشاهی

منتدى اقرأ الثقافي

www.iqra.ahlamontada.com

السيد جمال الدين الحسيني

الرّسائل والمقالات

الطبعة الاولى

اعداد و تقديم:

سيدهادي خسرو شاهي

الاعمال الكاملة

٦

جمال الدين اسدآبادي: ٢١٢٥٤-١٣١٤ ق.
الرسائل و المقالات / جمال الدين الحسيني;
اعداد و تقديم هادي خسروشاهي. - تهران: كليه شروق، قم: مركز البحوث
الاسلاميه، ١٣٧٩.
٢٢٢ ص.: نمونه -- (الاتصال الكامل: ٦) ٢٠٠٠٠ ريال: 4 - 8 - ISBN 984 - 92729
فهرست نویسی بر اساس اطلاعات فیله عربی. کتابخانه به صورت لیرنوس.
١. جمال الدين اسدآبادي، ٢١٢٥٤-١٣١٤ ق. --- مقاله ها و خطابه ها. ٢. اسلام --
تجدید حیات فکری. ٣. ایران -- تاریخ -- انقلاب مشروطه، ١٣٢٤ - ١٣٧٧ ق.
اصلاح طلبان. الفخروشاهي، هادي. ١٣١٧، گردآورنده اب. علوان.
٥ ر ٨ ج / DBR ١٤٤٣ ٩٥٥ / ٠٧٤٠٩٧
کتابخانه ملی ایران
٩٦٨٢ - ٧٩ م



مركز البحوث الاسلاميه



ناشر: كليه شروق

نشانی مرکزی، تهران: مقابل دانشگاه، شماره ١٣٧٨ (صندوق پستی ١٩٦١٥/٣٩٣)
نشانی واحد قم: خیابان صفائیه ساختمان مرکز بررسیهای اسلامی، (صندوق پستی ٣٧١٨٥/٣٢٣٣)

الرسائل و المقالات

السید جمال الدین الحسینی (الافغانی)

اعداد و تقديم: سيد هادي خسروشاهي

لیتوگرافی، چاپ و صحافی: الهادی - قم

چاپ اول: ١٣٧٩

تعداد: ٢٠٠٠ نسخه

قیمت: ٢٠٠٠ تومان

شابک: ٩٦٤ - ٩٢٧٢٩ - ٨ - ٢

همه حقوق چاپ، برای ناشر محفوظ است

الفهرست

الموضوع	الصفحة
المقدمة.....	٧
١. العلة الحقيقية لسعادة الانسان.....	١٣
٢. المهديّة و المهدي السوداني.....	٢٥
المهديّة ١.....	٢٥
المهديّة ٢.....	٣٢
المهديّة ٣.....	٣٨
٣. باب مايؤول اليه امر المسلمين في المستقبل.....	٢٥
٤. الحكومة الاستبدادية.....	٥٥
٥. «احرار» يقتلون الحريه.....	٦٧
٦. بايئه!.....	٧٧
٧. دائرة المعارف.....	٨٣
٨. خطبة بالاسكندريه.....	٩٧
٩. السياسة الانجليزيه في الممالك الشرقيه.....	١٠٧
١٠. اسباب الحرب بمصر.....	١١٣
١١. الحق و الباطل.....	١١٩
١٢. شباب الاسكندريه.....	١٢٩
١٣. المخاطبة بين الانسان و الهرة.....	١٣٥
١٤. منافع الوفاق و مضار الشقاق.....	١٤٣

١٥١	١٥. الانجليز في الهند و مصر
١٥٧	١٦. المسألة الهنديه
١٦٥	١٧. الشرق و الشرقيين
١٧٧	١٨. العُجب
١٧٩	١٩. نبذة من مناظرة خيالية
١٨٥	٢٠. الرد على رينان (حول الاسلام و العلم)
١٨٦	الظروف المحيطة بالرد
١٩٠	محاضرة رينان
١٩٩	رد الافغانى على رينان
١٩٩	الاسلام و العلم
٢٠٨	ترجمة مفروضة
٢١٣	٢١. الاسلام و العلم
٢١٥	وثائق
٢٥٥	فهرس: الاعلام - الاماكن

رسائل و مقالات

مجموعه «رسائل و مقالات» به زبان عربی، در واقع دومین مجموعه از مقالات و آثار: فکری، فرهنگی، سیاسی و اجتماعی سید جمال الدین حسینی - اسدآبادی است که به تناسب زمان و در مکان‌های مختلف از جمله: هند، ایران، مصر، افغانستان، فرانسه و انگلیس، آنها را به رشته تحریر درآورده که در جرائد و مجلات آن دوران و آن کشورها، به چاپ رسیده است...

مجموعه اول «رسائل و مقالات» که شامل تقریباً تمامی مقالات و رساله‌های بدست آمده سید به زبان فارسی است، چندی پیش تحت همین عنوان: «مجموعه رسائل و مقالات» در ۳۲۰ صفحه و در ضمن همین سلسله: «الاعمال الکامله» - مجموعه آثار - منتشر گردید و مورد توجه و استقبال اهل علم و فضل و دوستان حق و حقیقت واقع گردید.

اینک و برای نخستین بار مجموعه تقریباً کاملی از مقالات و رساله‌های عربی سید (که هیچکدام از آنها در مجموعه فارسی نیست) در اختیار علاقمندان قرار می‌گیرد و البته این مجموعه عربی، غیر از مجموعه دیگری از چند رساله و بحث سید به عربی است که با توجه به موضوعات فکری - فلسفی آنها، تحت عنوان: «رسائل فی الفلسفه و العرفان» با تحقیق و مقدمه اینجانب، چندی پیش چاپ و منتشر گردید و در عرض مدت کوتاهی، به چاپ دوم رسید و چاپ دوم آن، با اضافاتی (۳۲ صفحه) شامل دو مقدمه تحلیلی و یک ملحق تحقیقی، یک ماه پیش از سوی «مرکز بررسیهای اسلامی» قم، انتشار یافت.

...البته همانطور که اشاره شد، مقالات این مجموعه - رسائل و مقالات - تاکنون

بصورت یک کتاب مستقل چاپ نشده است و بلکه بعضی از آنها، برای نخستین بار در سالهای اخیر از زبانهای فرانسه و انگلیسی به عربی ترجمه شده و در بعضی از مجلات عربی چاپ اروپا، منتشر گردیده است که اینک به یاری خدا، مجموعه کامل آنها، یکجا و در این مجموعه، در اختیار عموم قرار می گیرد.

در مورد منابع و مأخذ اصلی مقالات این مجموعه، علاوه بر اشاره های گذرا در پاورقیها، بزودی در کتاب مربوط به «آثار سید» به تفصیل بحث خواهد شد و اکنون به دلائلی، از ذکر آن منابع، خودداری می شود.



... هدف نخستین ما از نشر این آثار: «الاعمال الکامله» - مجموعه آثار - درواقع جمع آوری و حفظ مکتوبات و مقالات سید جمال الدین حسینی است که متأسفانه در گذشته، توجهی به این امر نشده و در جمع آوری و تحقیق آنها، کوتاهی بعمل آمده است...

پس از این مرحله، امیدواریم که توفیق نقد و ارزیابی، بررسی و پژوهش این آثار فرار برسد و دانشمندان و فضلاء حوزه ها، این آثار را - «بمثنای ادبیات اسلامی» یک قرن و نیم پیش که موجب حرکتی بزرگ: انقلابی - اصلاحی، در اغلب کشورهای شرق و یا مسلمان نشین شده است و در واقع نشان دهنده، چگونگی اندیشه های یک متفکر بزرگ مسلمان است - مورد تحقیق و تدریس در حوزه ها و حلقه های درسی، قرار دهند. استاد محمدرضا حکیمی درباره کتاب «العروة الوثقی» و دیگر آثار سید می نویسد: «این کتاب عروة اجتماعی و امثال آن، باید جزو کتب درسی حوزه ها قرار گیرد و همینگونه روحانیت اسلام و بویژه طلاب جوان باید درباره سید جمال الدین مطالعات بسیار داشته باشند. چرا باید افکار اجتماعی - اسلامی سید جمال الدین در حوزه های علمیه، درسی نباشد و مورد رسیدگی و تأسی قرار نگیرد؟».

... از خدای بزرگ می خواهیم که ما را در این کار خیر یاری دهد و «نیت» ما را

«خالص» برای «خود» بدارد. انه سمیع مجیب

قم: مرکز بررسیهای اسلامی

ربیع الاول ۱۴۲۱ هـ. سیدهای خسروشاهی

الرسائل والمقالات

إن مجموعة «الرسائل والمقالات» التي نضعها بين أيديكم باللغة العربية، هي المجموعة الثانية من مقالات و آثار السيد جمال الدين الحسيني الافغانى، الفكرية و الثقافية و السياسية والاجتماعية و قد قام السيد بكتابتها فى فترات زمنية مختلفة و أماكن عديدة كالهند و إيران و مصر و افغانستان و فرنسا و بريطانيا و تمت طباعتها و نشرها فى صحف و مجلات ذلك العصر، فى البلدان المذكورة...

المجموعة الأولى التي تتضمن تقريباً كافة مقالات و رسائل السيد الموجوده باللغة الفارسية، تم اصدارها قبل فترة تحت عنوان «مجموعة رسائل و مقالات» فى ٣٢٠ صفحة بإطار سلسلة «الأعمال الكاملة» و كانت محط إهتمام و ترحيب اهل العلم و الفضلاء و محبي الحق و الحقيقة.

والآن و للمرة الاولى فى ايران، يسرنا أن تقدم للراغبين بالاطلاع على أعمال السيد، المجموعة الكاملة تقريباً، لمقالاته و رسائله - غير المتوفرة فى المجموعة الفارسية - و طبعاً تضاف هذه المجموعة، الى مجموعة أخرى من رسائل و أبحاث السيد بالعربية، كنا سبق و أن نشرناها قبل فترة تحت عنوان: «رسائل فى الفلسفة و العرفان» مرفقة بدراسة و مقدمة و خلال فترة و جيزة قام «مركز البحوث الاسلامية - قم» بإصدار الطبعة الثانية منها مع إضافة - ٣٢ صفحة - تضم مقدمتين تكميليتين و ملحق إضافي يتضمن دراسة جديدة حول رسالة «مرآة العارفين» و النسخة الخطية الاخرى التي وجدناها فى مركز وثائق الوزارة الخارجية، للجمهورية الاسلامية فى ايران...

و كما أشرنا فإن مقالات هذه المجموعة - الرسائل و المقالات - لم تصدر، على شكل مجموعة واحدة و بكتاب مستقل، إذ أن بعض منها ترجم للمرة الاولى فى السنوات الأخيرة، من اللغتين الفرنسية و الانكليزية الى العربية و نشر فى بعض

المجلات العربية الصادرة في أوروبا و هانحن بمون الله، نضع الآن المجموعة الكاملة منها، بين يدي القراء الاعزاء.

أما المصادر و المراجع الرئيسية لمقالات هذه المجموعة، فقد أشرنا الى بعضها، بصورة عابرة في الهوامش و ستناولها بالتفصيل في الكتاب الخاص الذي سنصدره حول: «آثار السيد» و قد إمتنعنا عن التطرق الى هذه المصادر، حالياً لأسباب خاصة!... و في الحقيقة إن هدفنا الأول من إصدار «الأعمال الكاملة» لم يكن سوى جمع و حفظ الآثار و المقالات للسيد جمال الدين الحسيني و التي - و يا للأسف - لم يكثرث بها العلماء في السابق و لم يجرى جمعها و دراستها او ترجمتها الى اللغات الأخرى...

بعد هذه المرحلة، يحدونا الأمل بأن الوقت قدحان لنقد و تقييم هذه الآثار فينبري العلماء و الفضلاء في الحوزات العلمية، بدراستها و ترجمتها و تدريسها في الحلقات الدراسية، لأنها تعتبر بحق بمثابة «الادب الاسلامي الاصيل» الناتج من الثقافة الاسلامية الغنية و التي أدت الى قيام حركة اسلامية - اصلاحية كبرى في أغلب بلدان الشرق و البلاد الاسلامية إذ أنها في الحقيقة عصارة أفكار أحد ابرز المفكرين الاسلاميين الكبار!...

يقول الأستاذ محمدرضا حكيمى حول آثار السيد و «العروة الوثقى»: «إن هذا الكتاب، العروة الإجتماعية و أمثاله، ينبغي أن يُدرّس في الحوزات العلمية كما إن على رجال الدين المسلمين و خاصة الطلاب الشباب، أن يقوموا بإعداد دراسات كثيرة حول السيد جمال الدين... لماذا لا تُدرس الأفكار الإجتماعية و الإسلامية للسيد جمال الدين في الحوزات العلمية و لاتكون قدوة و نبراساً للجيل الصاعد؟».

...نسأل الباري عزوجل، أن يأخذ بأيدينا لإنجاز هذا العمل الخيري و ان يجعل «نوايانا»، «خالصة» له جَلّ و على. إنه سميع مجيب

قم: مركز البحوث الإسلامية

ربيع الاول ١٤٢١ هـ. سيدهادي خسروشاهي

١

العلّة الحقيقيّة
لسعادة الانسان

العلة الحقيقية لسعادة الانسان

ان الممكن بالامكان الخاص (وهو الذى لا يلزم من وجوده ولا من عدمه محال) يكون وجوده بوجود علته وعدمه لعدمها، ولاريب فى أن السعادة من الماهيات الممكنة بالامكان الخاص، وأنها العلة الغائية لحركة كل فرد من افراد الأنسان حسية كانت تلك الحركة او معنوية اذ لولوحظت مساعيه آناء الليل وأطراف النهار، وأخذ بوسائل الحرف من زراعة وصناعة وتجارة، وجده فى تحصيل العلوم والفنون، وارتكابه المصاعب، فى نيل المراتب والمناصب، لما وجد لها من باعث أو داع سوى طلب السعادة، مع أنك لاتجد من نالها أو دنا منها، ولو تنقل فى مراتب الشئون، و تقلب فى درجات التطورات، وما ذلك إلا لعدم تحقق علتها، فعلىنا أن نبحث عن تلك العلة وعن الاسباب التى أوجبت عدم تحققها، حتى يتبين وجه ضلال طُلاب السعادة عن أن يصيبيوها فنقول:

إذن بين السعادة والصحة شبيهاً كلياً، فكما أن صحة الجسم هي نتيجة و معلولة للتناسب الطبيعي بين أعضاء ذلك الجسم وجوارحه وكمال الاعتدال فيما تكونت عنه تلك الأعضاء، و حسن قيام كل عضو منها بأداء وظيفته مع مراعاة اللوازم والشروط الخارجية من الزمان والمكان والمطعم والمشرب والملبس فيكون زوالها لزوال هذه الأمور كلها أو بعضها - كذلك سعادة الانسان هي معلولة للتناسب

الحقيقي في الاجتماعات المنزلية، وقيام كل من أركان المنزل بأداء وظيفته، وللتعادل التام في الالتفات المدنية بأن تكون المدينة فيها من الحرف والصنائع ما يكفيها مؤنة الاقتدار من دون نقص أو خروج عن حد حاجتها، مع حسن التعامل بين أرباب تلك الصنائع، وأن تكون أحكامها تحت قانون عدل تساوى فيه الصغير والكبير، والأمير والمأمور، وللارتباطات العادلة بين الدول بأن تقف كل دولة عند حدها، ولا تتعدى على حقوق غيرها، وأن يُتَمَهَّد سبيل التواصل بينها وبين باقي الدول لكمال التعاون والتوازر بين نوع الانسان وانتفاع كل من الآخر، فيكون حصولها على السعادة بحصول تلك الأمور وفقدائها لفقد جميعها أو بعضها.

وهذه الأمور، وإن كانت ممكنة الحصول، وجد الناس في التماسها ما استطاعوا إلا أن هناك مانعا من الوصول إليها، وهو اعتقاد كل كمال نفسه ونقص غيره، ونظره إلى أفعاله بعين الرضى وإلى أفعال غيره بعين السخط، وزعمه أنه ما حاد عن حد الاعتدال ولا أخل بشيء من واجباته وشئونه، ولا تقاعدت همته عن أداء وظائفه في العالم الانساني، ويتمحل لاثبات ذلك بما تسوله له نفسه من الحجج والبراهين، وإن أصابه العناء، ونزل به الشقاء، حسبهما من تعاون الغير فيما يلزمه وإهماله ما يجب عليه، مُبرِّئاً نفسه من أسباب ذلك، حتى لو أغفل شأناً من شئونه يزعم أنه قد سدت أبواب الامكان، وتعذر عليه القيام به، ولو انتهك محظورا من محظورات لادعى أنه لا اختيار له فيه، وانما الضرورة هي التي ساقته الى ارتكابه، فهو مجبور لامختار، مع أنه لا يلتمس للغير عذرا فيما يفوته أو يقع منه، ولو كان في نفس الأمر مجبورا. ومن ثم وقع التضارب في الآراء والتدافع في الأفعال والحركات، وعمل كل على نقيض الآخر، فارتفع التناسب، وانعدم التعادل، وذهب الارتباط. أنظر إلى حال الآباء مع الأبناء، والسادات مع الخدّمة، كيف أن كلاّ منهم، مع علمه بأن السعادة المنزلية إنما تُحَقَّقُ بأدائه ما يجب عليه، وجعل حركته من متممات حركات الآخر، يخالفه في أفعاله، ويضاده في آرائه، معتقدا أنه لو لم يقصّر ذلك الآخر في أداء الحقوق المفروضة عليه، لاستقرت الراحة المنزلية، وارتفع العناء - إلى

حال المشتركين في المدينة فإن كل واحد مع جزمه بأن الراحة والنجاح إنما يكونان بإحكام الصنعة و تهذيبها و حسن التعامل، و كف يد الشر والخيانة، و ضبط اليهود والمواثيق، و اجتناب الكذب والاعتصام، يحبب الصدق والوفاء لا يرى نفسه مُخلًا بشيء من ذلك و إن أخلَّ بجميعه، و يزعم أن زوال السعادة المدنية إنما جاء من تهاون الآخرين.

و تدبر حال الملوك مع رعاياها ترى كلاً منهما يرمى الآخر بالاغراق و عدم الاعتدال، و يتهمه بانتهاك المحارم والحقوق، و يبريء نفسه من نسبة شيء من ذلك إليها.

فالمملوك فضلاً عما رسخ في نفوسهم من أن رتبته المملوكية، إنما هي رتبة سماوية ساقطها إلههم يد العناية الالهية، بسبب طيب عنصرهم، و طهارة طينتهم، يعتقدون أن لا قوام للرعية بدون وجودهم، و أن لا غنى لها عنهم، إذ هم يحفظون أموالها، و يحققون دماءها، و يوفون لكل ذي حق حقه، و ينتقمون للمظلوم في أموال الرعية و دمائها، و أنه يجب عليها طاعتهم، والخضوع لسطوتهم و سلطتهم، و امتثال أوامرهم و اجتناب نواهيهم، و يرمون الرعية بالتقصير فيما يجب عليها.

والرعايا يخاطبونهم قائلين: لا مزية لكم علينا كما زعمتم، ولستم أطهر عنصراً، ولا أطيّب طينة، بل نراكم أناساً استولى عليكم حب الرئاسة و أسرّتكم الشهوة و استعبدكم الهوى، فاستمالكم إلى سلب راحتكم و راحة رعاياكم، حرصاً على التغلب، و طمعاً في توسيع دائرة السلطة، و كسب الافتخار مَيِّناً، و أما اعتقادكم أن لا قوام لنا إلاّ بكم فأنتي لكم صدق هذا الاعتقاد و قد أصبحتم كلاً^١ على كواهلنا: نحن نفرس و نحراث، و نغزل و نخوك، و نفصل و نخيط، و نبني و نشيد، و نخترع الصنائع، و نتفنن في المعارف، و أنتم تأكلون و تشربون، و تلبسون و تسكنون، و تمتعون بلذة الراحة. و أما ما تعللتم به من حفظ أموالنا و حقن دماننا إلى آخر ما

١. الكل (بفتح الكاف و تشديد اللام: التعب، أو الثقل).

ادعيتهم، فذلك إنما نشأ عن العظمة والكبرياء اللذين تثبت أصولهما في نفوسكم، أفلا تعلمون أن الحارس والمرابط إنما هو مِنَّا، وأن الحافظ والحاقد والمنتمق إنما هو القانون والشرعية الحققة. وما أنتم إلا منوطون بحفظها، والعمل في الناس بها. فإن قمتم بذلك على وجه الاستقامة كان لكم علينا ما يقوم أودكم، فكيف ساغ لكم أن تلعبوا بأموالنا، و تعبثوا بدمائنا، و تلقوا بنا في هاوية الشقاوة، ثم تبتغوا طاعتنا و امثالنا، و ترمونا بالتقصير والتهاون فيما وجب علينا.

وذلك الذي ذكرناه فيما إذا لم يكن الملوك من المتغلبين المباينين للرعايا جنسا و مشرباً، و أما المتغلبون من الملوك، و المتغلب عليهم، فكل منهما يزعم فوق ما ذكر أنه الوسيلة لمنفعة الآخر و الواسطة لمصلحته، و أن الآخر قابل حسنة بالسيئة، و منفعة بالمضرة.

مثلا، إن الحكومة الانجليزية المتغلبة على الهنود تخاطبهم بقولها: إني عمرت لكم المدن (كجمباي) و (كلكتا) و (كراجي) و أمثالها، و زينتها بالأبنية الشاهقة، و القصور الشائقة، و وطأت شوارعها، و وسعت مسالكها، و رقشتها بالأغصان، و زخرفتها بمروج و بساتين، و مهدت لكم سبل التجارة، و سهلت لكم أسباب الزراعة، و فتحت أبواب الثروة بما مددت من الأسلاك البرقية في أرجاء بلادكم، و أنشأت من الطرق الحديدية في أنحائها، و حفرت من الترع و الأنهار، و وضعت من القناطر، و كذلك أسست لكم المدارس، و رفعت عنكم ظلم النوايين و قهر الراجاوات، و أنتم مع ذلك أبيتم إلا الشقاق و النفاق، و نبذ الطاعة و سلب الراحة...

و ان الهنود يجيبونها متظلمين مستغيثين منها قائلين لها: إنك ما عمرت تلك المدن إلا بعد أن خربت بلاداً كانت زينة الأرض و فخارا للأبناء: (شيو) و (وشنو) و (كهكلي) و (مرشد آباد) و (عظيم آباد) و (أكبر آباد) و (إله آباد) و (دهلي) و (رايود) و (فيض آباد) و (لكهنو) و (حيدر آباد) و غيرها من البلدان، و إنك ما مددت الأسلاك البرقية، و لا أنشأت الطرق الحديدية، و لا حفرت الترع و الأنهار، و لا وضعت القناطر، إلا لتزف مادة ثروتنا، و تسهيل سبل التجارة لساكني جزيرة

بريتانيا^١ و توسيع دائرة ثروتهم، وإلّا فما بالنا أصبحنا على فقر وفاقة، وقد نفدت أموالنا، و ذهبت ثروتنا، ومات الكثير منا يتضور جوعاً؟ فإن زعمت أن ذلك لنقص في فطرتنا، وضيق في مداركنا، فيا للعجب من أبناء (بريتوس)^٢ الذين مضت عليهم أحقاب متطاولة يهيمنون في أودية التوحش والتبربر، إذ يعتقدون النقص و عدم الاستعداد في أولاد (برهما) و (مهاديو)^٣ مؤسسي شرائع الانسانية و واضعي قوانين المدنية.

و أما المدارس التي تُمْنِن علينا بتأسيسها فلم تكن لمصلحة تعود علينا، إذ لو كانت لذلك لاحتوت على العلوم والفنون والصنائع، مع أنها لم تنشأ إلا لتعليم اللغة الانجليزية المتعجرفة الخشنة لأبناء اللغة (السنسكريتية)، اللغة المقدسة السماوية، حتى تستميلهم في إدارة مصالحك في تلك الممالك الشاسعة.

و اما دعواك رفع ظلم النوابين و قهر الراجوات عنا، فمما يضحك الثكلى، و يبكي المستيثس الذي جاء ته البشرى، فإن الظلم إذ ذاك كان قاصراً على البعض، و ظلمك الآن قد عمّ وطمّ، وإن الثروة والأبهة والجلالة والشأن التي يزدهي بها الآن أهالي بريتانيا كان المتمتع بها وقتئذ أبناء وطننا، إذ النوابون والراجوات وغيرهم من الأمراء و الكبراء، و حاشيتهم، و خاصتهم، كانوا من أبنائنا و مشاركيننا في الجنسية. و كنانتيه بهم فخارا على سائر الممالك والأقطار، فكيف بك أن تمنى علينا بما مَنَنْت زوراً و مَيَّنْأً^٤. وإنا لانراك أيتها المتغلبة علينا إلا كالعَلَق^٥ مصصت دماءنا، بل كالسَلَّاح سلخت جلودنا لتتخذها أحذية لنعال البريطانيين. على أنك لم تكفي بهذا و ذاك بل تريد أن تستعملي عظامنا النخرة لتصفية السكر في معاملك.

١. المقصود: بريطانيا، و قد سميها السيد بالجزيره تصغيراً من شأن بريطانيا الكبرى!! كما كانوا يسمونها!

٢. أي البريطانيون.

٣. برهما و مهاديو يشيران الى الهند في مواجهة البريطانيين.

٤. المين: الكذب.

٥. العلق: نوع من الديدان مصاص للدماء يعيش في الماء الأسن.

و تَبَصَّرَ في شأن الملوك بعضها مع بعض فإن كل واحد منهم يرى بما أقيم من الحجج القاطعة أنه على صراط العدل وَحَدَّ الاستقامة لا يُقَدِّمُ على محاربة، ولا يحجم عنها، ولا يضع غرامة، أو يأخذ من ممالك الآخر شيئاً إلا وهو في ذلك محق عادل، مثلاً: ملك الروسيين^١ يحتج لحرب العثمانيين بأن أنين النصارى من رعاياهم قد ذهب براحتهم، وتجاوى به عن مضجعه و حرك فيه حاسة الشفقة حتى دعت الرحمة الانسانية للأخذ بناصرهم و استنقاذهم من أيديهم، و تحريرهم من رق عبوديتهم، من... والعثمانيون يدحضون حجته قائلين (أولاً) لو كنت ممن تحركهم الشفقة والرحمة لكان الأحق بنيلها رعاياك المتحدون معك في المذهب من أهالي (لهستان^٢)، فما دعواك هذه الا محض الرياء و المواربة. و (ثانياً) إننا لا نعامل رعايانا إلا كعاملمة الآباء للأبناء بدون تفرقة بين مذهب و مذهب، و جنس و جنس. و أوضح دليل على ذلك بقاؤهم على مذهبهم، حافظين للغاتهم و جنسيتهم، ولو أننا كنا نفرق بين المذاهب والأجناس كما تدَّعي لحملناهم على رفض مذاهبهم، و تغيير لغاتهم، و كنا قادرين على ذلك في وقت لم يكن لك فيه إسم ولا رسم، بل لم تكن شيئاً مذكوراً.

و كذلك إمبراطور فرنساويين بما ثبت عنده من البراهين البينة على طمع الجرمانيين و حرصهم و شرهم يرى لنفسه الحق في افتتاح الحرب عليهم. و امبراطور الألمانين بما تحقق لديه من كبر فرنساويين و عُجْبِهِمْ، و مجاوزتهم الحد في أطوارهم، يحسب أن من الواجب عليه أن يضع عليهم غرامة باهظة، و يتسلط على قطعة واسعة من بلادهم لتذليل نفوسهم و إضعاف قوتهم، ليدفع بذلك شرهم، و يأمن على نفسه و أمته من تعدِّيهم.

و دَقَّقَ النظر في شئون العقلاء و الحكماء، و ذوي الآراء و المذاهب الذين يعتقدون أن الحق واحد في نفس الأمر و الواقع، لا يتعدد، كيف أنهم بعد إتفافهم على

١. يشير الى قيصر روسيا في حربه مع تركيا التي اشتعلت عام ١٨٧٧.

٢. بولنده.

أن القواعد المنطقية هي ميزان النظر، وبها يعرف صحيح الفكر من فاسده، قد انتهج كل واحد منهم منهجا واتخذ مشربا يناقض به الآخر، ويعتقد أن دلائله المؤدية هي المنطقية على ذلك الميزان وأن لا إنطباق لدلائل غيره عليه.

وأزجج البصر الى أحوال السارقين والقاتلين ونحوهم من مرتكبي الفواحش والشناعات في العالم الانساني ترى أنه لا يصدر عمل من هذه الأعمال المجمع على قبحها من فاعلها إلا بسبب هذه الخلّة الذاتية، أعني اعتقاده كمال نفسه والنظر إلى أعماله بعين الرضى - ضرورة أن الفعل إنما يكون بعد الارادة، التي لا تكون إلا بعد ترجيح الفعل على الترك ورؤيته خيرا منه، وهو عين الرضى به.

ومن غرائب آثار هذه الخلّة إبرازها لحقيقة واحدة بصور مختلفة في نظر شخص واحد على اختلاف مراتبه وشئونه، فإنك ترى زيدا من الناس مثلاً وهو في رتبة دانية رؤوفاً بالفقراء، رحيماً بالضعفاء، شفيقاً على المظلومين، ذاماً للبخل وللشح، مادحاً للكرم والسخاء، مهتماً بقضاء حوائج ذوي الحاجات، مدعياً للعفة، كارهاً للانكباب على الشهوة، مستهزئاً بذوي التكاثر والتفاخر، مبغضاً للكبرياء، متنفراً عن الارتشاء، مشتمراً من الاهمال في المصالح العامة، والتهاون في الواجبات - مستهيناً بالمستبدين بآرائهم، المعجبين بأقوالهم وأفعالهم، مستقبِحاً تقديم المفضول على الفاضل لغرض يعود على ذاته، مستبشعاً لأعطاء المراتب لغير أهلها وحرمان مستحقها منها، لانما على الغضب واسراع العقوبة، مستفحشاً للسفاهة والبذاء، محباً للوطن، محامياً عن الحرية، زاعماً أنه لو آل الأمر اليه لقام بصلاح العالم. وإذا ارتقى إلى رتبة سامية تجده قسئ القلب على الفقراء، زاعماً أن التكلف صناعة اتخذها أرباب السفالة والبطالة هرباً من عناء الكسب - جافي الطبع على المظلومين، مستدلاً بأن المتظلمين أولو مكر ودهاءٍ (أورياء) يعلنون خلاف ما يسرون، ويستترون تحت حجاب المسكنة والالتجاء للتغلب على حقوق غيرهم - بخيلاً، شحيحاً، متدسكاً في ذلك بأن من مقتضيات الحزم أن تُحرز الأموال، وتودع المخازن لوقت

اللزوم أو (إن الكرم والسخاء قبيحان عند السويليين من الافرنج) - متوانيا في الأخذ بيد المحتاجين متعللاً بتراكم الأعمال عليه في وظيفته المهمة، وعدم تمكنه من إسعافهم - شَرِّهاً شهوياً، محتجاً بأنه بشره و انصبابه الى الشهوة يؤدي حق الطبيعة - فخوراً برتب و شئون ساعده على نيلها البخت والصدفة، بدون استحقاق. مع أنه ما أدى حقها ساعةً من دهره مُرضياً نفسه في ذلك بكلمة «العبد العاجز» أو (افتخار أولمون)^١ متكبراً، يظن أنه وقور من الواجبات، وأن عليه إقامة الحجاب على بابه، والذائدين عن أعتابه، قياماً بحق رتبته و لازم شأنه - مرتشياً، يقنع نفسه بأن ما يأخذه حقٌ تبيح له الشريعة أخذه، إمّا لأنه جعلالة على عمله أو هدية من صديق - مهملاً في المصالح العامة، متهاوناً فيها، معتذراً بأنه من آحاد الناس، ليس في طوعه تقويمها. وما من مساعد يعاضده عليها. وقد أدى الواجب على شخصه - مستتبداً برأيه، معتقداً إنه قد بلغ من العقل والدراية الى حد تنحط دونه جميع أفكار العالم، و يقصر عن إدراك غايته مدى أنظارهم، مع أنه أعمى البصر والبصيرة، لا يرى ما تحت قدميه - مُقَدِّماً للمفضول على الفاضل، مستنداً الى سلامة قلب ذلك المفضول ولين عريكته وطلاقة وجهه. أي أنه (يهزُّه القاوون)، وفي رواية (يُمسح له جوخ) وأنه (سطري لجنايه العالي) - رافعاً الى أسنى المراتب من لا يليق لأدناها، حاسباً نفسه طبيباً روحانياً خبيراً بأخلاق العالم وطبائعهم، حكيماً لا ينظر في أعماله إلا الى المصالح العامة - غضوباً سريع العقوبة يحسبها سياسة و تدبيراً مدنياً - سفياً بذئناً، يرى أن الناس لا يستحقون سوى قبيح فعله و فحش قوله، ولا يدركون مَزِيَّةَ الآداب، ولا يقدرّون الأديب حق قدره - خائناً لوطنه، ساعياً في خرابه و إذلال أهله (كأقيا لتيس اليوناني) و يعد نفسه في ذلك مجبوراً ملجأ - طالباً للاستعباد،

١. كان السيد رحمه الله يملئ. و قلنا كتب بيده مقالا. وكان تلاميذه كاللقاني و أديب اسحق يكتبون كل ما يقوله حتى الكلم والأمثال العامة التي يمزج بها الكلام عادة كهذه الجمل في الموضوعين، وكانت دائمة في معاشري الحكماء من الترك، ولكن أكبرهم الاستاذ الامام كان يتصرف في العبارة و يميز ذلك السيد (هامش محمد رشيد رضا). أما كلمة «لمون» العامة هذه فهي «ليون» الفصحى.

متشبها بأن الحرية لا تليق بالأهالي لعدم استعدادهم لها^١، بل إنها مما يوجب فسادهم لو نالوها - آيسا من صلاح العالم^٢. إذ يراهم - لنقص قريحته - ناقصي الاستعداد فاقدى القابلية، يزعم أنه لو كان لهم نوع من التهيؤ للإصلاح لَأَتَمَّهُ لهم بسعيه واجتهاده.

و من أغرب آثارها^٣ أن المتخلق بها، مع كونه متصفا بأرذل الأخلاق وأشنع الخصال، يعى عن أنه متصف بها - مثلاً يكون قَسِيَّ القلب، ويعتقد نفسه رحيمًا، و متكبرًا، و يرى نفسه متواضعًا، و هكذا باقى الخصال مع أنه لو تلبس غيره بأدنى رذيلة لأدركها وشد عليه النكير فيها، حتى إنك ترى كل واحد «كأنه» قد جعل على إحدى عينيه نظارة معظمة (ميكروسكوب) ليقف على دقائق معايب معاشريه، و على الأخرى نظارة رصدية (تلسكوب) لثلا يفوته أعمال البعداء عنه، و على إحدى أذنيه موصلة الصوت (تليفون)^٤ لاستراق أخبار الناس كيلا يَغْرِبَ عنه شيء من نقائصهم، و على الأخرى حافظة الصوت (فونوكراف) ليستحفظ قبائحهم، لثلا يغيب عنه شيء منها، و يقتدر على استحضارها وقت الحاجة عندما يتحرك دولا ب حقه و حسده، مع أن أقرب الأشياء إليه نفسه. و هو لا يرى شيئًا من معايبها، فهو أعمى حديد البصر و أصم قوي السمع.

فتعسا لها من خلة قضت على نوع الانسان بالاختلال و سوء الحال، و آذنته بالشقاء والعناء، و أوقعت الخط في الأعمال والخلط في الأقوال، و لبَّست الحق بالباطل، والزائف بالصافي، والجيد بالردى، و حسَّنت القبيح و قَبَّحت الحسن، و أبرزت المعوجَّ مستقيمًا والمستقيم معوجًا.

١. الاشارة هنا قد تكون للخدو توفيق الذي صرح بمثل هذا القول.

٢. البشر أو الناس.

٣. الضمير هنا يعود الى تلك الخلقة، أو الاعتقاد بكمال النفس، أو ما نسميه: الفرور.

٤. في عام ١٨٧٦ عرض الكساندر جراهام بل آلة تطورت فيما بعد إلى التليفون. و يبدو أن الأفغانى كان قد قرأ عن الاختراع في الصحف وقتها، و كذلك الحال مع الفونوغراف.

ومن نَظَر بعين الحق و سَبَرَ الحقائق بنور البصيرة لا يجد لهذه الخلة (أعنى اعتقاد كُلِّ كَمال نفسه ونظره الى أعماله بعين الرضى) علة و سببا سوى حب الذات، الذي هو غشاوة على عين العقل، تمتعه من استطلاع الحقائق على ما هي عليه، ووقوفه عند حد الصواب في سَيْر الأفكار، بل هو متغلب على جميع الاحساسات النفسانية و حاكم على كُلِّها بالتغيير. بل لا يختص حكمه بها إذ يتعدى الى الاحساسات الطبيعية أيضا فانك ترى مشوه الوجه مختل الخلقة رث الثياب الذي قد تجسدت عليه الأدران و الأقدار إذا نظر إلى صورته بهذه الصفة الرديئة في مرآة مثلا لا يشمئز ولا يستنكر، و اذا وقع بصره على من بلواه في ذلك أخف من بلواه، انفعلت نفسه و استنفر و استبشع.

و هذا الوصف، أعني حب الذات، الذي هو علة الشقاء و العناء من الأوصاف اللازمة لذات الانسان مادام موجودا. فلا ينفك الانسان عنه ولا هو يزايله، فإذا لا حيلة ولا خلاص من بلاياه و نكباته إلا باستعمال الانسان عقله و رجوعه إليه في جميع أموره، والخروج من ربة عبودية سلطان حب الذات و رفض أحكامه. و ذلك أن يحكم على نفسه بما يراها عليه في مرآة غيره لا في مرآة نفسه (ما أجملك أيها الانسان المعجب في مرآة نفسك و ما أقبحك في مرآة غيرك). و هذا الذي ذكرناه هو العلاج الحقيقي والوسيلة العظمى لوقوف كُلِّ عند حده، و سعى كُلِّ لاستكمال نفسه، اللذين هما مدار السعادة.

ولسنا نذم حب الذات بجميع أنواعه. فإنَّ منه ما قد يعود بسعادة على طائفة من الطوائف، أو أمة من الأمم، و هو حب الذات الداعي الى طلب المحمودة الحقّة^١ و هو الذي يرتقي بصاحبه الى توجيه أفكاره و أعماله نحو المصالح العمومية بدون أن يطلب في ذلك شيئا سوى الحمد و خلود الذكر. و السلام على من اتبع الهدى، و رجَّع العقل على الهوى.

١. الحق مصدر يستوى في الوصف به المذكر والمؤنث والمفرد والجمع (هامش رشيد رضا).

٢

المَهْدِيَّة
و
المهدي السوداني

المهديّة والمهدي السوداني

فى العام الفائت، كانت جريدة «المتصلب» «L'Intranrigent» السبّاقة فى تعريف الجمهور الباريسي على احدى الشخصيات الاكثر اهمية واحداسمى العقول فى العالم الشرقي، الشيخ الافغاني جمال الدين، العدو اللدود الذي تلقاه انكلترا في كل مكان، والذي يبدو انه ادى ازاء انكلترا قسم هنيئيل. ولنستعد هنا هذا الحدث الذي ذكره مراسلنا «فوكلان» «E. Vauquelin» في «ذكريات من الثورة المصرية». ذات مساء في مسجد الحسين في القاهرة، وامام اربعة آلاف شخص، القى جمال الدين خطابا حماسيا، فضع خلاله، وبحس عميق، وقبل ثلاث سنوات، الهدف النهائي للسياسة الانكليزية على ضفاف النيل. بعد يومين، وبناءً لطلب القنصل العام لانكلترا، اوقف خطيب مسجد الحسين، وساقوه في مركب ونقلوه الى جدة على شاطئ الجزيرة العربية. انكفأ جمال الدين حينها الى داخل مقاطعة الحجاز، حيث لم يعد يسمع عنه شيء.

منذ بضعة اشهر، وصل الشيخ الافغاني الى باريس، واعطانا ملاحظات و معلومات عن الوضع في الهند التي مكث فيها عدة سنوات والتي تجول فيها من مدة قريبة، وقد اعجبنا بالفائدة المباشرة التي انطوت عليها هذه المعلومات (مقالة الافغاني عن الهند نشرت في الصحيفة نفسها بتاريخ ٤ نيسان (ابريل) ١٨٨٣).

واليوم شاء الافغاني ان يقدم لنا دراسة عن المهدي الذي ثور الاسلام بظهوره في منطقة النيل الابيض، والذي منذ فترة وجيزة كبد الجيش الانكليزي - المصري، اشنع هزيمة. هذه الدراسة ننشرها كما هي، وكما وصلت الينادون اية اضافة، ودون اي حذف. وليس هناك احد افضل من الشيخ الافغاني المشهور، يستطيع ان يكتبها لأن احدا لا يعرف العالم الاسلامي افضل منه، ولأن احدا لا يستطيع التكهن بالتبعات الخطيرة التي يمكن لاحداث السودان ان تلقاها في مصر وفي غيرها. وفيما يلي نص مقالة الافغاني:

المهدي ليس نبيا

«الشخص الغامض، محمداحمد، الذي برز خلف اسم المهدي منذ عامين في السودان، والذي عبر قضائه شبه التام على الحملة العسكرية التي قادها الجنرال «هيكز» «Hicks» بدأ يشغل الرأي العام في اوروبا، ويستتفر بصورة خاصة الصحافة الانكليزية التي تعكس، في الوضع الراهن للامور، المشاعر الحقيقية للامة. هذا الانتصار، الذي زرع الفوضى في وزارة الخارجية، يبدو انه احتفظ للسيد «غلاذ ستون» «Gladstone» في وادي النيل بنفس الثمار التي جناها اللورد «بيكونسفيلد» «Beaconsfield» في افغانستان.

ومن ناحية اخرى، فتح هذا الانتصار الباب امام مطاعم الخديوي السابق اسماعيل باشا، وكذلك امام مطاعم حليم باشا؛ فكل واحد منهما يعمل بنشاط للحصول على عطف انكلترا، ولا يتوانى الواحد منهما ان يعد الانكليز بخنق هذه الانتفاضة على شرط ان يؤكدوا له دعمهم للوصول الى عرش الخديوية. أما بالنسبة لتوفيق فهو في وضع في غاية التعقيد وفي حالة تصبغ عصبية، يوما بعد يوم. نرى هذا الامير البائس تحت رحمة احتمالين كلاهما مشؤوم: احتلال الانكليز النهائي لمصر، او وصول المهدي الى القاهرة. وتحت رحمة طموحين: طموح أبيه اسماعيل و طموح عمه حليم.

و اني اقترح أن اقدم في مقال لاحق بعض التقديرات الشخصية للمهدي من وجهة نظر سياسية، و من زاوية مصالح القوى الاستعمارية و مصالح تركيا، وللتحدث عن الانطباع الذي يمكن ان يولده اسم المهدي في العالم الاسلامي، كما سأحدث عن نوايا انكلترا ازاء هذه المسألة الخطيرة، و عن الربح الذي يأمل بتحقيقه الاشخاص الطامعون بالخدوية. لكنني سأكتفي الآن بتلخيص بعض الاحداث التاريخية التي هي من طبيعة تهمة الجمهور و ترشده حول المهدي، حول قوته لدى المسلمين، و حول طرائق المسلمين في الاعتقاد به، الأسباب التي الى هذه المعتقدات والاحداث ذات الطبيعة المشابهة والتي حصلت في الماضي، و أخيرا سأحدث عما ينتظره الاسلام حاليا من المهدي.

المهدي - كلمة عربية معناها: الملهم من الله لا تباع الصراط المستقيم - وهو ليس بنبي كما تزعم بعض الصحف؛ ولا يحظى المهدي لدى المسلمين الا باعتباره واحدا من أبناء الرسول العظيم، تقي، ورع، تبعا للصراط الذي رسمه جده محمد، و يلتزم بالمذهب الاسلامي بأمانة. مهمته الالهية تقوم على الغاء البدع، والمناداة بالعدالة، و اقامة المساواة بين كل المؤمنين و بنشر اسم الاسلام، و جعله متصلا في كل انحاء المعمورة. و يعبر عن المهدي بالعربية بعبارة «قائم آل محمد» و هذا معناه: هو الشخص الذي من بين المنحدرين من النبي الكبير، سوف ينهض لدعم الايمان الاسلامي. والاعتقاد بمجي المهدي منتشر في كل الاصقاع الاسلامية دون اي تمييز بين الفرق. و هذا الاعتقاد راسخ لدى الشعوب الاسلامية الى حد انه مستمر منذ القرن الاول للهجرة.

الطبري وابن الاثير، المؤرخان الاكثر شهرة و احتراماً لدى المسلمين ذكرا في كتاباتهما ان المؤمنين خلال منتصف القرن الاول للهجرة كانوا يقولون عن عمر بن عبدالعزيز نسيب النبي واحد خلفاء بني أمية الاكثر عدالة، بأنه اذا لم يكن المهدي المنتظر، فانه لن يكون سوى يسوع ابن مريم الذي سيخرج قبل نهاية العالم. ان

انتظار مجيء المهدي يتزايد كليا عند المسلمين، في كل المرات التي يجدون فيها انفسهم في ضيق، او يرون انهم مهددون في دينهم او واقعون تحت سيطرة قوة اجنبية، و حيث يشبهون رجلا ضالا في ليلة حالكة الظلام وسط صحراء شاسعة، منتظرا بفارغ الصبر ظهور نجمة تقوده.

هذه المعتقدات مبنية على آيات و على احاديث لاتمس و شديدة الاحترام، منسوبة الى النبي الكبير محمد (ص) و قد وردت هذه الاحاديث في اكثر من كتاب، من بينها: المسند، للإمام احمد، بن حنبل السني، و مؤسس احد المذاهب الاسلامية الاربعة، والصحيح للسيد علي الترمذي، و مسند «فردان» (كما ورد في النص الفرنسي في الجريدة: Firdano و ابن ماجة الخ...)

كل العلماء المسلمين، باستثناء ابن خلدون في مقدمته ونفر آخر محدود من العلماء اجمعوا على الاعتراف باصالة هذه الاحاديث و صحتها. و يظهر للعيان من خلال هذه الكتب ان النبي العظيم محمد (ص) تكلم عن المهدي في أماكن عديدة، حيث يدعو حينا بأسم المهدي و حينا بأسم القائم. و قد قال: «لولم يبق من الدنيا الا يوم، لطول الله ذلك اليوم حتى يلي رجل من اهل بيتي يواطىء اسمه اسمي». (كما ورد في صحيح الترمذي، الجزء التاسع ص ٧٤-٧٥. وثمة اختلاف بسيط في الترجمة الفرنسية للفقرة الاخيرة). و قال في حديث آخر: «القائم (المهدي) سيكون واحد من ولدي و سيهيكم الخيرات بلا حساب». و في حديث آخر: «سيمنحكم (المهدي) كنوز رومية و ستعطيه الارض جم ثرواتها». (يمكن مقارنة هذين الحديثين الاخيرين بالحديث الذي اورده ابن حنبل في مسنده «يكون في امتي المهدي (...)

فتنعم أمتي في زمانه نعيما لم ينعموا مثله قط البر منهم و الفاجر ترسل السماء عليهم مدرارا و لا تدخر الارض من نباتها شيئا و يكون المال كدوسا) و في حديث آخر (بحسب ترجمتنا للنص الفرنسي): «اذا امتلأت الارض ظلما و جورا، و اذا اصبح المؤمن (المسلم) اكثر سوءا من عبد، فانتظروا ان يظهر واحدا من صليبي، المهدي».

هذا الحديث يمكن مقارنته بالحديث الذي أورده ابن جنبل في مسنده: «تملأن الارض جوراً وظلماً فيبعث الله تعالى رجلاً مني اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي...» وقال أيضاً: «ابشروا بالمهدي رجل من قریش من عترتي يخرج في اختلاف من الناس وزلزال فيملأ الارض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً. وقيل في موضع آخر: «إذا استولى عليكم بنو الاصفر (يلمح النبي هنا الى قدامى الرومان) فانظروا القائم من اهل بيتي» (لم أجد هذا الحديث بالعربية). وهذا حديث آخر أيضاً: المهدي منا، ويكون اسمه اسمي (محمد) واسم أبيه اسم أبي (عبدالله)، واسم أمه اسم أمي (امينة). (لم أجد أيضاً هذا الحديث بصورة حرفية).

وهناك عدة احاديث اخرى من النوع نفسه، وتقطع، بطريقة لاتقل بداهة، باليقين بقدوم المهدي. اما بالنسبة للاستشهادات، التي استخدمها العديد من القديسين والتقاء، والتي تزعم انها تلقت الوحي الالهي والتي تثبت بأن المهدي او القائم سوف يظهر في الشرق او من الغرب، من مكّة او من الكوفة، وتحدد هذه الاستشهادات هذه الفترة او تلك موعداً لخروج المهدي، وهي كثيرة ومتعددة الى حد انني لم اجد لزماً ضرورة الاسهاب فيها.

كل مسلم ينتظر المهدي

لقد خرج تحت اسم المهدي او القائم مئات الاشخاص في كل القرون وفي كل البلدان الاسلامية. وان كان غالبية هؤلاء لم ينجحوا لكن ذلك لم يمنع بعضهم من تأسيس ممالك حافظ عليها الاتباع طيلة قرون عدة. ابو مسلم الخراساني الذي قضى على خلافة بني امية وشيد خلافة بني العباس، لم ينجح في حشد الجماهير وفي بناء جيش مهيب في «مرو» وفي غيرها من نواحي خراسان الا بعد ان استعمل لنفسه اسم قائم آل محمد (المهدي). وقد استطاع بهذه الوسيلة ان يلزم الجمهور باعلان ابي العباس السفاح خليفة، وهو اول خليفة من بني العباس وأحد احفاد العباس عم النبي الكبير محمد.

ادريس الاكبر، احد احفاد محمد، والذي اقام مملكة الادراسة في زمن هارون الرشيد، وبنى مدينة فاس، لم ينجح في ذلك الا خلف اسم قائم آل محمد - و ايضا عبيد الله جد الخلفاء الفاطميين، فانه بصفة المهدي هذه استطاع هذا الرجل الذي احتل القاهرة و سوريا و الحجاز و اليمن ان يبني ممالك واسعة و ان يشيد مدينة المهدي التي ما زالت تحمل اسمه حتى أيامنا هذه.

محمد، زعيم الموحدين - (الذين يعتقدون بوحداية الله) - لم يستطع ان يجلب المرابطين الى نصره قضيته و نشر فتوحاته حتى بلاد الاندلس تاركا لخلفائه مملكة شاسعة، الا عبر ادعائه بأنه المهدي.

بكلمة وجيزة، خلف هذا الاسم (المهدي)، كم من رجالات الاسلام انجزوا اعمالا باهرة و معتبرة، وقادوا الاوضاع الى تغيير جذري في عالم المؤمنين. رغم كل الذين اطلقوا على انفسهم اسم المهدي و تعاقبوا وصولا الى ايامنا الحاضرة، فان المسلمين ما زالوا ينتظرون واحدا جديدا، الشيعة الاثنا عشرية، كالفرس مثلا، والذين يؤمنون باثني عشر اماما منحدرين بتعاقب من محمد، فهم و ان كانوا يتفقون مع السنة حول الجزم واليقين. بمجيء المهدي، الا انهم يختلفون عنهم في تعيين شخصيته. فهم (الشيعة) يقولون بأن محمد المهدي هو ابن الحسن العسكري، التاسع (بل الحادي عشر) من بني احفاد النبي الكبير، و يقولون بأن محمد المهدي ولد في سامراء (مدينة قرب بغداد)، في عهد الخليفة المتوكل العباسي. و أنه ذات يوم، و خشية من الاجراءات القاسية التي اتخذها الخليفة ضده قرر محمد المهدي و هو في الخامسة من عمره، الاختباء و خلال ستين سنة بقي على اتصال بمناصريه. هذا الاختفاء يدعوه الشيعة: الغيبة الصغرى. و يرى الشيعة ايضا انه بدءا من هذا التاريخ قام بقطع صلاته مع أتباعه الذين يعتبرونه حيا حتى أيامنا. مقدرين مدة وجوده بأكثر من الف سنة.

و تبعا لعقيدتهم، سوف يظهر المهدي هذا بين الركن (وردت خطأ في النص

الفرنسي بعبارة الكك (Kick) والمقام، في مكة، و سيجعل من الكوفة (بالقرب من بغداد) مكانا لاقامته، و سينشر سيطرة الاسلام من الشرق الى الغرب. باختصار، مهما تنوعت هذا المعتقدات من ناحية الشكل، فانه لا يقل صحة بأن كل مسلم ينتظر المهدي، و مستعد للسير خلفه و للتضحية بحياته و بكل ما يملك. المسلمون الهنود خاصة، و نظرا لمعاناتهم اللامحدودة و تحملهم أقسى العذابات و أطولها من جراء السيطرة الانكليزية، فأنهم الاكثر انتظارا للمهدي بفارغ الصبر.

أخيرا، فان سطوة المهدي في أنظار المسلمين تتبع فحسب النجاح النهائي الذي يقوى على تحقيقه، على أي حال، تلك كانت حالة كل الذين سبقوه.

المهدية

(٢)

المقالة الثانية عن المهدي كما نشرت في جريدة «L'Intransigeant» بتاريخ ١١ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٨٣. وفيما يلي تقديم الصحيفة للمقالة الثانية:

«ننشر هنا تنمة الدراسة القيمة التي شاء الشيخ جمال الدين ان يعطينا اياها حول المهدي والنتائج المحتملة لظهوره المنتصر في السودان، ونجد لزاما علينا التذكير بما سبق وقلناه منذ ثلاثة ايام: ان هذه الدراسة نشرت كما قدمت الينا دون اي تعديل، فالشخص الذي كتبها مسلم، وهذا ما لا يمكن تغافله. هذا الرجل المسلم، يتحدث كابن مؤمن من ابناء الاسلام. ولذا فكرنا ان نحفظ لهذا العمل طابعه الخاص، وان ندع الكاتب يتكلم بحرية».

فيما يلي نص مقالة الافغاني:

ان الهزيمة التي الحقها محمد احمد -بقواه غير المنظمة - منذ فترة وجيزة بالجنرال «هيكز» Hiks، اعطت نتيجتها بتبديد الشكوك التي احاطت شخصيته من قبل سكان بعض مناطق السودان. ان انتصار «العبيد» رفع من شأن سطوته في انظارهم الى درجة انهم باتوا يعتبرون ما أنجزه بمثابة معجزة.

اضافة الى ذلك، ولّد هذا الحدث لدى المصريين، الامل بالتخلص من السيطرة

الانكليزية بمساعدة المهدي، ومن جهتهم، فان مشايخ جامعة الازهر بدأوا يطلبون المغفرة في اعقاب الفتوى التي تناولت محمد أحمد كدجال.

ان انتصار «العبيد» الذي كان له دوي واسع في العالم الاسلامي، ايقظ المشاعر الدينية لدى كل شيوخ الطرق (الاخويات الدينية) مثل القادرية والنقشبندية (المقصود على الارجح هو النقشبندية) والجلالية والسنوسية والشاذلية الخ... وهذه الاخويات تمارس سلطة كبيرة على اتباعها الكثيرين. هؤلاء الشيوخ لا ينتظرون سوى عمل اضافي باهر يمكن من وضعهم لحساب المهدي، كي يثوروا ويشكلوا قضية واحدة معه. من ناحية اخرى، فان الجنود المصريين نظرا لكونهم مسلمين و يعتقدون تبعاً لذلك بالمجيء الاكيد للمهدي، واثقون ايضا انهم بمقاومة محمد احمد لا يخدمون مصالحهم ولا مصالح بلدهم، وبأن انكلترا فقط هي التي ستستفيد بالطبع من اي خسارة قد يلحقونها به، لذلك لا يرغبون في اي حال من الاحوال بمقاتلة اي وحدة من وحدات المهدي المقاتلة.

قبل انجاز اي مآثرة اخرى - و تلك معجزة جديدة ليست غير ممكنة، ونظرا للانتصار الذي حققه المهدي ضد عشرة آلاف جندي نظامي، ونظرا للدعوات والتدعاءات التي اطلقها عن ذكاء الى مشايخ القاهرة ومكة والمدينة - وقبل انتشار الهبات الدينية واستعداداتها في الشرق كما في الغرب، فان الاتراك، برأيي، وحدهم قادرون، تحت اسم الخلافة، أن يصبحوا أسياد الموقف، وان يستبقوا الاضطرابات الخطيرة. لكن القوى الأوروبية التي تنتهج سياسة غامضة النتيجة، وكذلك انكلترا التي لا تخفي مقاصدها، تعارض بقوة اي تدخل تركي.

واذا حقق محمد أحمد - انتصاراً آخر - اي اذا احتل الخرطوم واقترب من تخوم مصر العليا، فانه سينجم عن ذلك هبة عامة لدى كل السكان العرب الواقعين تحت السيطرة العثمانية، وستلقى تركيا صعوبة بالغة، نظرا لضغطها الحالي، في اخماد هذه الهبة.

و بدون شك، ستنشأ حركات اخرى في عدة نقاط من الاقاليم الواقعة تحت السيطرة التركية. سأذكرها هنا بدقة من هي المجموعات الاسلامية الجاهزة للانتفاض: الشيخ السنوسي واتباعه، وهم كثيرون في طرابلس و بين البدو العرب القاطنين ساحل الحجاز - بنو حرب، وهم يشكلون قبيلة ذات شأن تقيم بين مكة والمدينة؛ - العسير، بين الحجاز واليمن، - الزيدية في صنعاء وكوكبان؛ - داهي (لقب) الاسماعيليين في نجران من بلاد اليمن؛ - محمد ابو (بل ابن) الرشيد في نجد و قبائل عنيزة و شمر على تخوم بغداد من الموصل حتى سوريا. كل هذه القبائل التي تهب في كل لحظة ضد تركيا بسبب عدم رضائهم عنهم، لن يطلبوا أحسن من انتهاز الفرصة التي يقدمها لهم المهدي في سبيل التخلص من الخليفة (السلطان). حينئذ، سيكون من المستحيل على العثمانيين الذين يعلنون اسم الخليفة - الوسيلة الوحيدة التي في حوزتهم لكي يحافظوا على سيطرتهم على مختلف السكان المسلمين - قلت سيكون من المستحيل على العثمانيين ان يخنقوا انتفاضة لا يمكن الاستهانة بنتائجها. فالمسلمون يعتقدون، بالفعل، ان الخلافة، شرعية كانت، أي في يد قريشي - واحد من قبيلة محمد - ام غير شرعية، اي بين يدي غاز، فانه ينبغي لها ان تزول امام ظهور المهدي، الذي سيكون الخليفة الحقيقي بالنسبة للمؤمنين.

ان مشايخ الاخويات الدينية، القادرية والشاذلية، هم ايضا، لن يعدموا وسيلة في هذه المناسبة كي ينظموا دعاية نشيطة، سوف يستصرخون المشاعر الدينية لاتباعهم لجرحهم الى الالتزام بالالتفاف حول المهدي هذا، الذي هو بالضبط جزء من هذه الاخويات.

هذه الانتفاضة التي ستحدث بدون أدنى شك، و بمجرد حصول انتصار آخر للمهدي، في كل البلاد العربية الواقعة تحت السيطرة العثمانية - وان كانت تشبع رغبات انكلترا التي تسعى الى اضعاف هيبة الاسلام ولكنها (الانتفاضة) لن تتوانى عن وضع انكلترا في حالة استنفار. ان مقاصد الانكليز الخفية الى هذا الحد وذاك،

هي الانهاك التدريجي لتركيا من اجل الاستيلاء بالتالي على اكبر حصة من ممتلكاتها. ان بريطانيا العظمى تغذي النوايا العازمة على تشكيل خلافة صغيرة في مكة، لصالح عشيرة بني عون و حيث ان احد اعضائها هو حاليا شريف مكّة، و ذلك بهدف تمكينه من حيازة وسيلة قوية للسيطرة على كافة المسلمين. ان حصول انتفاضة مشابهة لتلك التي اتوقعها، ستكون حاملة الاذى لانكلترا الى حد انها ستستدعي بالضرورة تدخل القوى الاوروبية ذات المصالح الجدية في الشرق. و عندئذ سيتاح لانكلترا ان ترى كيف ستفقد الحصّة الكبيرة التي تطمع بها عبر تقطيع اوصال الفريسة العثمانية. ولن يكون من المستحيل ان يتكون في الشرق - على اثر تعقيدات معينة قد تحدث في اوروبا و تمنع القوى المعنية بالامر عن التدخل - مركز خلافة مهمة للعرب. هذان الاحتمالان لا يقلان شؤما الواحد من الآخر بالنسبة للانكليز.

ولكن ماذا! هل تأمل انكلترا اذن باجراءاتها المعتادة، اي بالخديعة والمكر، و عبر اعلانها عن الدخول الى كل البلاد، و عبر افصاحها المناق عن رغبتها بجعل هؤلاء السكان سعداء، و بتوفير الامان والرفاهية لهم، و ذلك بعد ان غرست جذور الحق في قلوب كل المسلمين، حين انتزعت من ايدي الاسلام اوسع و أغنى مملكة في العالم، أي هذه الامبراطورية التيمورية - الهندية التي تضم حوالي ٢٥٠ مليون نفس، قلت هل تأمل انكلترا بخنق صوت المهدي، الصوت الاكثر ادهاشا من كل الاصوات لأنه يتجاوز بالقوة حتى صوت الجهاد الذي يخرج من افواه المسلمين كافة.

هل تعتقد انكلترا بقدرتها على خنقه قبل ان يبلغ كل نواحي الشرق، من جبال هملايا الى دولاغهير Dawlaghir، من الشمال حتى الوسط، مخاطبا مسلمي افغانستان، و بلوشستان، والسند و الهند، معلنا بصوت عال مجيء المخلص الذي ينتظره بفارغ الصبر كل طفل في الاسلام: المهدي، المهدي، المهدي!

و هل عن طريق ترك السودان للمهدي، كما تلمح اليه غالبية الصحف الانكليزية، و عبر اتفاق سلام يعقد بين محمد أحمد والحكومة المصرية و حيث الهدف الوحيد من ذلك هو الاستيلاء لاحقا على السودان (كما ذكره بالمناسبة قسم من الصحافة الفرنسية)، هل بهذه الطريقة تأمل انكلترا بأن تنجح في اسكات الصوت المهيّب للمهدي؟ سيكون ذلك قطعا من نسج الوهم، لأن الشخص الذي ينهض خلف اسم ديني معلنا نفسه نبيا او المهدي، لن يتوقف اطلاقا في مسيرته، واثق تماما انه اذا تراجع فان الثقة التي منحها له مناصروه سوف تأخذ بالضعف و ستؤول حتما الى الزوال.

ان قسمة المهدي لا يمكنها ان تكون الا هذا: الموت او تحقيق الهدف الذي رسمه لنفسه. و هل عن طريق الاستعانة بالفرق العسكرية الفرنسية، و هي بذلك تبرهن عن ضعفها الذي يجهله الشرقيون، تحسب انكلترا بأنها ستخفق صوت المهدي؟ في هذه الحالة سوف تفضح ماضيها بهذه الطريقة، وستعود الى الوضع الذي دمرته ودون ان تشاء، سوف تعطي مصر للمصريين. و هذا ما نرغبه، مع المجازفة برؤية غلادستون البائس و هو يسقط عن عرش السلطة. و حين تياس انكلترا من التوصل الى اتفاق سلمي مع المهدي، فهل ستقترح عندئذ ان تقوم بجلب الوحدات العسكرية الهندية الاسلامية الى السودان؟ قبل كل شيء، هل هذا ممكن؟ و كيف يمكن للحكومة الانكليزية ان تتصور بأن المسلمين، و في سبيل تمتين سلطة عدوهم الوراثي اي الانكليزي، سيكونون قادرين على الدخول في حرب مع الرجل الذي ظهر كي يدعم ايمانهم؟

ام ان انكلترا تعتقد بأنها ستتوصل الى مخادعة الهنود في هذه القضية، كما سبق و خدعتهم في قضية «عراي»، حيث ستجعلهم يعتقدون هذه المرة ايضا، بأنها لا تفعل سوى القيام بمساعدة السلطان من اجل كبح المتمردين؟ لقد بات الهنود على يقين، بعد الذي حصل في مصر، بأن انكلترا مصممة على ان تلعب تجاه تركيا نفس الدور الذي لعبته في الماضي تجاه السلطة التيمورية.

ام ان انكلترا تتصور بأنها ستستدعي جنود السيخ و «الكوركو» Kourkou؟
لكن تدخل هذه الفئة سوف يؤدي بالنتيجة ليس فقط الى الازدياد الخطير للحقد
على الانكليز من قبل المسلمين الهنود، الذين لن يروا بدون عناء و بدون مرارة
ذهاب الهندوس الى الحرب ضد منقذهم (المهدي) فاضافة الى ذلك قد ينجم عن
هذا الرهان تبعات اخرى لاتقل كارثية عن سابقتها بالنسبة الى الانكليز: انها
تهييج السكان المسلمين الهنود الى درجة انهم سيستفيدون بدون شك من غياب
جزء من الجيش الانكليزي الموجود في الهند.

المهدية

(٣)

اذا اردنا ان نقيم حسابا دقيقا للمخاوف التي تعتري الانكليز من جراء الانتصارات المتلاحقة لمحمد احمد (المهدي)، فانه لامناص لنا من معرفة وضع الانكليز في الهند، مشاعر السكان الهنود تجاهها، و اخيرا النسب الحقيقية لقوتها العسكرية في هذا البلد.

ان عدد الجنود الاوروبيين الذين يمكن لبريطانيا العظمى ان تجهزهم لا يتجاوز الخمسين الف. والخمسون الف هؤلاء، ينتشرون على كافة نقاط الاقليم الهندي وصولا الى برمانيا. ولا يسهل انكلترا بأي طريقة من الطرق ان تعتمد على الجنود المسلمين والهندوس، في حال حصول انتفاضة، لأنه لم يبق في الهندوستان بيت واحد كبير لم يتعرض للهدم او للتشويه، ولم يبق قلب لم ينقبض، دون اقامة اي تمييز بين المسلمين والهندوس. لقد انتزعت انكلترا المملكة التيمورية الواسعة من أيدي الاسلام، كما استولت عنوة على حكم «الميريت» (mirits) الذين يشكلون العدد الاكبر والافتي بين الهندوس. لقد فتنت انكلترا اشراف السند و«راجوات» السيخ في البنجاب. كما قضت على عظماء البنغال ولم توفر ممالك «ميسور» Mysore و «أود» Awed التي افرغتها من السكان بواسطة المجازر. وأخيرا، قامت انكلترا

بتقطيع الاقاليم التابعة لرجاوات جيپور Djeypour ودجوبتور Djoptour و برودا Brouda حيث استولت على القسم الاكبر منها.

اما الراجوات و كبار النافذين، و عددهم قليل جدا على كل حال، الذين ما زالوا يحتفظون بممالكهم، فانهم لا يشعرون بالاطمئنان ازاء مشاريع انكلترا في المستقبل؛ و يجهلون اذا كانت انكلترا سوف تستشعر الضرورة لتركهم حائزين على املاكهم، و يتوقعون بين يوم و آخر ان يجدوا أنفسهم و قد انتزع منهم القليل الذي بقي لهم. وليس لديهم أدنى وهم حول المصير الذي تعدّه لهم المطامع البريطانية. ان الانكليز مقتنعون تماما انه بمجرد حصول فتنة في الهند، فان كافة الجنود المحليين، المسلمين والهندوس على حد سواء، سيؤلفون قضية مشتركة مع الثائرين، و سيتحدون خلف الراية ذاتها، ولكونهم مدعومين من الراجوات و كبار النافذين الذين يرفضون انتزاع ممتلكاتهم منهم، فان الجنود سيثورون ضد المسيطر عليهم و دون التفتيش عن مبرر لهذه الانتفاضة، و دون اخذ الوقت للتفكير بالفائدة التي سيجنونها، و دون اختبار النتيجة التي قد يصلون اليها.

لا يدوان محمد أحمد (المهدي) يجهل الوضع الحقيقي للانكليز في الهندونواياهم المبيتة بهذا القدر او ذاك من اجل وضع اليد على مكة؛ ولا يخفي المهدي علمه بأن اول مواجهة جدية يخوضها سوف تكون ضد الانكليز في مصر. و لذا فقد ارسل بمبعوثين و بدعوات الى علماء مكة، وبصورة خاصة الى العلماء الذين هاجروا من هندوستان، و من افغانستان و بخارى، والذين استقروا في مكة.

في هذه النداءات، التي سينشر نصها في اقرب فرصة مناسبة، يدعو المهدي المسلمين الى النهوض من أجل تأكيد الايمان الاسلامي و من أجل نصرته في تحقيق مهمته الالهية. و اذا كان هؤلاء العلماء العديدون لم يعلنوا حتى هذه الساعة عن تأييدهم لمحمد أحمد، فاني لا أشك لحظة واحدة، كما سبق و قلت، بأن هؤلاء العلماء سيقفون الى جانبه، و ذلك بمجرد ان يحقق المهدي انتصارا جديدا و جديا والذي بدوره سوف ينجز امر انضوائهم لحسابه.

ان الانسان، بطبيعته، ميال الى مبالغة كل الاخبار التي تأتيه من البعيد، الى درجة ان العدد واحد المتنفقل من شفة الى شفة والمتضخم بواسطة الهرج العام، لايني ان يتحول الى الف، وهكذا فان الراية سوف تجري مشاهدتها على انها جبل. و لهذا، فان الاعلان عن ظهور المهدي، سوف يملأ قلوب الذين ينتظرون الانعتاق بالوعود الكبيرة و سيفيضون املا و فرحا.

ان اول تملل سوف يحدث على ما يبدو عند مشايخ الطرق (الاخويات) المعروفين بالشيشيتية El-Chichtia، و هم من عائلة أولران شاه Olan-Shah في بلوشستان، و كذلك عند القادرية في السند، الطقشندية والقادرية في جبال افغانستان بقيادة ابن «اهوندسيوات» Ahoundsiouath، و عند الوهايين المجاهدين في افغانستان و في بلوشستان بقيادة أميرهم عبدالله. جميع هؤلاء سيلقون الدعم من جماعة «الميريت» القاطنة في «بونا» Pouna والتي بلغ عدد افرادها منذ عام اكثر من ٥٠٠ ألف نفس. هذه الجماعة، هي ايضا، تنتظر بفارغ الصبر كي تهب.

ستحظى هذه الحركات المدهشة حتما برد معاكس في الهند، اذ سيحصل نهوض عام، و سيجد الانكليز صعوبة بالغة في الحصول على مبرراته. وفي كل الاحوال، و بالتأكيد لن يصل الانكليز الى قمة غايتهم كما حصل في الانتفاضة الاخيرة. ان حدوث انتصار جدي للمهدي -والذي سيكون بلا جدال بمثابة معجزة جديدة في انظار المسلمين - سيكون له كنتيجة حتمية ليس فقط اندلاع الانتفاضة في بلاد الاسلام الواقعة تحت السيطرة التركية كما في بلوشستان ايضا و افغانستان و السند و هندوستان و بخاري و خوقند و خيفا - بل سيفضي ايضا الى اضطرابات في طرابلس و تونس و الجزائر وصولا الى المغرب. لأن كل المسلمين ينتظرون المهدي الذي يعتبرون مجيئه بمثابة ضرورة مطلقة.

العلاج الوحيد، برأبي لأزالة المرض قبل ان ينتشر في كل الجسم، لا يقضي، كما

تعتقد بعض الصحف الانكليزية المهمة، بالتخلي عن السودان والتوصل الى اتفاق سلمي يعقد بين المهدي و بين الحكومة المصرية، بل بواسطة التدخل التركي، او بتعاون الفرنسيين مع الانكليز من اجل تفادي حصول كارثة.

غير ان الانكليز بعيدون جدا عن القبول بتدخل فرنسي، ولن يتنازلوا عن ذلك قبل ان ينغرز الخنجر الاسلامي في صميم قلبهم، و عندئذ سيكون العلاج بلافعالية. بالفعل، فان الانكليز لم يدخلوا مصر بمفردهم و ضد امانى الفرنسيين، الا لأنهم رأوا هؤلاء قد استقروا في تونس. و قد فهموا (الانكليز) جيدا بأنه لم يبق امام فرنسا و هي احدى القوى العسكرية الاكثر ادهاشا، لتحقيق الاستيلاء على باب الهند - و أعني بذلك مصر - سوى السيطرة على طرابلس الواقعة حاليا في الأيدي الغافلة لتركيا.

لماذا لا ترغب انكلترا، بصدد هذه القضية، بمجرد الكلام عن تدخل تركي؟ هل لأنها تهاب تركيا، ام لأنها تخشى ان تقفل عليها هذه القوة (تركيا) طريق الهند؟ لاأعتقد بأي واحدة من هاتين الفرضيتين. فتركيا، بالفعل، و حين كانت اقوى مما هي عليه الآن، و قبل شق قناة السويس، الم تدع الجنود الانكليز يعبرون مصر لمحاربة اخوانها في الدين، اي الهنود المسلمون و انتزاع املاكهم و ممتلكاتهم؟ ان مبرر موقف انكلترا لايمكن اذن ان يكون غير الحق الصريح على المسلمين من قبل الانكليز، و خاصة من قبل السيد غلادستون البروتستانتى المتحمس واللاهوتى المتشدد.

اذا لم تقم فرنسا و انكلترا ببذل كل طاقتهما لاستباق احتمالات معينة، فانه سينجم عن تحرك انكلترا بمفردها في هذه المسألة الخطيرة، كوارث بالغة ستلحق بهاتين القوتين.

اما بالنسبة للرجلين الطامحين الى الخديوية في مصر، اي الخديوي السابق اسماعيل و حليم باشا والذان يستفيدان من الفرصة التي يمنحها لهما المهدي من اجل

الحصول على عواطف انكلترا الطيبة، فأنني سأكتفي، بصدد هما الآن ولكي لا أتعب القارئ، بالتحدث عن واحد منهما، وبأكبر اقتضاب ممكن.

ان صعود حلیم باشا الى عرش الخديوية، سيتمنح بدون شك سرورا بالغاً لكل الذين يأملون بتوسيع وتقوية السلطة العثمانية. فحلیم، بالفعل، واحد من المقربين للسلطان، ويعدّه باستمرار بوضع حكومة القاهرة تحت الرعاية الكاملة لديوان الاستانة كما هي حال ولايات سوريا وحلب.. الخ.. الخ.. لكن ليس لحليم اي حزب في وادي النيل، وهو معروف بصورة قليلة جداً، والنزير اليسير من الناس الذين يعرفونه فانهم يعتبرونه ملحدًا.

وندرک بسهولة ان رجلاً منهما بالزندقة من قبل المصريين العميقي التدين، لن يكون بمقدوره ان يقف وجهاً لوجه امام محمد احمد الذي يخرج للناس خلف هيبه لقبه الديني اي المهدي. صحيح ان عرابي باشا ذكر اسم حلیم باشا، بل وصرح بأنه يقبل به كخديوي؛ ولكن لا ينبغي الاستنتاج من ذلك ان عرابي كان مناصراً لحليم او انه كان لهذا الاخير حزب في مصر.

فقط حين وضع عرابي امام الجدار وارغم على الافصاح عن الرجل الذي يؤيده من بين المتطعين الى عرش الخديوية، حينذاك وبقصد ان يقوي وضعه في مصر، أعلن عرابي تأييده لحليم.

اما بالنسبة للخديوي السابق اسماعيل، فأنني سأكرس له مقالة خاصة أقيم فيها بالتوازي، النتائج المشؤومة والنتائج الطيبة التي يمكن ان يحظى بها امر اعادته الى عرض الخديوية.

٣

باب ما يؤول اليه امر المسلمين
في المستقبل

باب ما يؤول اليه امر المسلمين في المستقبل

اذا نظرنا الى الحالة الراهنة رأينا ان ما آن الاوان للتكلم في مستقبل الاسلام فان انحطاطه في زمن السلطان سليمان المسمى بالمشرع من يوم حصار مدينة ويانه في سنة ١٦٨٧ لم يزل يظهر شيئاً فشيئاً حتى بلغ اواخر القرن الاخير اي عهد السلطان محمود الثاني الذي بلغت رجال دولته اعلى درجة في التأخير وتملكت بعد الانكليز والمسكوا والفرنساوية على كثير من المسلمين وبقي معظم اهالي الاسلام يخبطون في الجهل منتظرين سقوط المملكة التركية تحت صواعق الافلاس والحروب الباطنية والحروب الخارجية التي يخشى من حصول النصر فيها فضلاً عن الهزيمة على ان تلك المملكة التركية هي التي ورثت الملك من الخلفاء الذين دانت لهم الارض باجمعها وخضعت لها ممالك اوربا بصياحها ودموعها وهي الآن حصن غير منيع لحفظ شوكة الاسلام ووقاية واهية للتجمع والالتئام.

فما ظنك الآن بما تؤول اليه امر المسلمين وهي في ظنك من تقلب الاحوال وضيق من عدم تحقق الآمال، افيخطر ببالك ان يقال ان هذا الدين يتلاشى وانه اخذ زمنه ومضى، او يخطر ببالك ان فيه الكفاية لتنظيم احواله ويرجع الى قوة منشأه ويكون معينا على نشر التمدن في جميع اقطار الدنيا. فهناك مسألتين خاصتين بحال الاسلام وما يؤول امره اليه بالنسبة لانصلاح شؤونه في المستقبل وبالنسبة لسياسة

النصارى الذين تحت حكومة الاسلام وهاتان المسئلتان لهما دخل عظيم في المسئلة الشرقية التي لا تحول ولا تزول.

فلا وجه للمجاوبة عنهما بوجه الايجاب لان الدليل الاقوى لتعصيد كل منهما لا بد من دخوله في مسئلة الاديان. وقال المؤلف فونظه ان الدين قاصر على الزمن الذى ظهر فيه وان الاديان سترفع من الارض بعد ان تنتشر المروءة على وجهها وان آخر دين اكثر تنقيحاً من باقي الاديان التي تقدمت وان التنظيمات التي تحصل في الدنيا لا بد لها من دين جديد فاذا كان هذا الدين هو دين الاسلام يلزمنا ان نتوقع زمن ظهوره على الاحوال التي حصلت فى الدنيا وتضاهي قواعده الاديان المتقدمة ثم نبحت في الثمرات التي ملئت منها التواريخ ونظّل على اسباب انحطاطه في هذه الايام واذا تأملنا في الاسباب الموجهة للانحطاط ظهر لنا انها ناشئة من عدم موافقة ذلك الدين للتقدم والتعمد الحاصل في هذا الزمن. فاذا امعنا النظر في درجات تلك المسئلة رأينا الاسلام ظهر بعد النصرانية بستمائة واثنين وعشرين سنة فكانت قواعده اعلى وامتن من دين النصرانية.

وعندنا دليل آخر وهو ان الدينين ظهرا في ارض واحدة وان الدين النصراني سقط في بلده يهوذا ولم يظهر باوربا بعدها الا بعد ان قاسى كثيراً من الشدة واللوعة في اوربا واما الاسلام فانه ازهر وأثمر وعلى شأنه في كل بلدة دخلها وكان عدد المسلمين بعد الهجرة بقرن يبلغ مائة مليون اكثرهم كان من اليهود والنصارى ولم يبق من عبدة الاوثان شئ الا وطعمى عليه سيل الاسلام فاغرقه وكذب يونس حيث قال انه لا يبعث نبي في بلده فان محمد صلى الله عليه وسلم بعث في بلده وظهر امره في جزيرة العرب. ومن ادعى ان قوة السيف هي التي نشرت ذلك الدين فقد ضل ضلالاً بعيداً لان العدد القديم من فرسان الصحابة لم يكن كافياً في الزام ثلث الدنيا باتباع الاسلام ونشر المتمدن بين الانام في زمن كانت فيه صولته الرومان والاروام وكان دين النصرانية كثير التشعب والمذاهب وكان الخصام واقعاً بين كثير

من تلك الشعوب وحصل الاضطراب عند نقص مذهب الارثدوكس فقرتب على ذلك قلقلة الجمعيات و سفك كثير من الدماء واحتيج الى ايجاد مرشد يصلح بين الناس ويهديهم الى الطريق المستقيم فكان ظهور الاسلام داعياً لسلامة الجميع و اتفاقهم على وحدانية الاله. فاحرقت معابد الاصنام و اضاء نورا لاسلام بلا اله الا الله محمد رسول الله و بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الكلمات و نحو آثار الاصنام و ازالة اعتقادات الاروام في تعدد الاله. و بعد ان مهد الطرق و مكن كلمته اباح للعرب ما كان من عوائدهم موافقاً لكلمة التوحيد و اقر اليهود على دينهم و النصرى على تعظيم المسيح و أمه و قال ان المسيح من روح الله و ان مريم احصنت فرجها، فما كانت تعتقده الروحانيون في احصان مريم مأخوذ من الاسلام. و لما رأى ان النصرى تكره بقية الاديان اباح حبها و قال ان اختلافها لم يكن الا بارادة الله و في القرآن: «ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة». و قال تعالى: «ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن و قولوا آمنا بالذي انزل الينا و انزل اليكم و ألهنا و الهكم واحد و نحن له مسلمون و كذلك انزلنا اليك الكتاب فالذين اتيناهم الكتاب يؤمنون به و من هؤلاء من يؤمن به و ما يجحد باياتنا الا الكافرون»، فصح على ذلك ان دين الاسلام يقبل العوائد المتقدمة و يقبل التأويل لموافقة للعلوم المتأخرة. فان الاقدمين كانوا يعتقدون عدم ادراك امر الروح و ذلك موافق «ليستلونك عن الروح قل الروح من امر ربي» و لم يخل شي من احكام الاسلام عن موافقة لحكم عقلية كتحرим النبيذ و بعض اللحوم و الميسر لثبوت ضررها بالتجربة. و حكم الوضوء هذا امر صحي و قال بعض المؤلفين الطاعين ان دين الاسلام اشتمل على ما كان في دين النصرانية من الامور الموافقة للشرع و الطبع و كذلك اغلب المؤلفين النصرى سلموا للعرب في التمدن و عظموه على ان التمدن لا ينسب للعرب بل للكتاب و السنة و ورد في الحديث: «اطلب العلم ولو بالصين»، و قال ايضاً: «عظموا من علمكم كلمة كتعظيم آبائكم». و سئل النبي

صلى الله عليه وسلم لمن الحكم، فسكتوا فقال لا علمكم. فكان هذا الحديث وامثاله موجبا لازديار الرغبة في العلم ونشره مع التمدن في البلاد المتوحشة حتى ظهرت الالفة بين سائر الناس وظهرت المعارف في بلاد الاكراد و غرناطه و سبته و القيروان من اعمال كسرى الاندلس ثم بدمشق و العراق و الموصل و بغداد و اصفهان و بخارى و سمرقند و الهرات و قابول و كندهار و دهلى من بلاد الهند و اشرقت شمس العلم بالاسلام في سائر النواحي و كانت بلاد النصرانية وقتئذ من الجهل في ظلمات بعضها فوق بعض و من اطلع على التاريخ علم ان الروم و الرومان ان كانوا قد ابتدئوا في نشر التمدن فان المسلمين اتموا نشره في عهد المأمون بن هارون الرشيد.

ولقد كانت عادة المسلمين انهم اذا ملكوا بلداً بادروا في تعليم اهلها وجعلوا في كل قرية مدرسة، و تلك آثارهم تدل عليهم لانك اذا نظرت الى مسجد من مساجد صدر الاسلام رأيت بجواره مدرسة و سبيلا و شتان بين تعليم تلك الايام و تعليم ايامنا هذه. و من شروط الاسلام المساواة بين الصغير والكبير و القوى والحقير فان طفيل ابن عمر أتى النبي صلى الله عليه وسلم و قال له اذا اسلمت كيف تكون مرتبتي عند الناس فقال الناس كاسنان المشط أي في الاستواء و قصة حيله ابن الاسهم من ملوك العرب لما اسلم في عهد عمر ابن الخطاب و حج داس على برده اعرابي فلطمه حيله فشكاه الاعرابي لعمر فدعى حيله ليقتص منه فقال فكيف يكون ذلك و انا من ملوك العرب و هذا صعلوك فقال قد سوى الاسلام بينكما.

وكانت المناصب في صدر الاسلام بغير مقابل اذ كان الامير يعيش من الجملة فكان علي صهر النبي صلى الله عليه وآله سلم عاملاً و كان عمر يضرب الطوب و يعيش منه و كان السلطان محمود الاول صائفاً و محمود الثاني خطاطاً يأكل من عمله.

و ناهيك بالعدل فانه كان طيبة للخلفاء و الملوك لقوله تعالى: «ان الله يأمر بالعدل و الاحسان». وقال سليمان القوة تزيد في اتساع الممالك و العدل يحفظها و اقوى دليل على عدل المسلمين انهم كانوا يحسنون معاملة النصارى من رعاياهم و لما رأى ملوك الروم ملوك المسلمين لا يحزجون عن كتاب الله و لا ينفذون الاحكام الا بفتوى من شيخ الاسلام صاروا يتحاكمون عندهم في قضاياهم. و حكي ان السلطان بايزيد الثاني كان حاضراً بالمجلس الشرعي و اراد ان يتكلم فمنعه القاضي فينارزاده و قال: انه غير عدل لعدم حضوره في المسجد يوم الجمعة كما هي عادة الخلفاء و الملوك. و من يسب النساء في الاسلام (و يمارس^١) الاستعباد فقد اخطأ فان المسلمين يعظمون نساءهم و ان العلوم الاسلامية مروية عن عائشة و فاطمة و خديجة و غيرهن، و في الحديث الشريف «الجنة تحت اقدام الامهات». و اما تعداد الزوجات فليس حكماً الزامياً لما ورد في الكتاب المجيد «و ان خفتم الا تعدلوا فواحدة». و حقوق النساء عند المسلمين اكثر مما عند الاورباويين. فان المرأة تبلغ رشدتها من تسع سنين و مهرها على زوجها، فان تزوجت لها الترف في متاعها و هي المصدقة بقولها في الشهادة على نفسها و تحريم الخمر و الميسر فيه حفظ للزوجة مع تقي الزوج وقعه.

و نهاية القول فان من ينسب الضعف للاسلام بنسبه مأخذه فقد اخطأ، لأن الكتاب و السنة ساريهما الاسلام و علا شأنه في التمدن و التقدم مبلغاً عظيماً من القرون. و لما ان هُجر العلم و حاد المسلمون عن اتباع شريعتهم اخذت دولتهم في الانحطاط. و من المشهور ان مبدأ انحطاط الاسلام كان من عهد السلطان سليمان و تصميمه على عدم تأويل السنة بما يوافق مواقع الاسلام حوال في اوقاتها مع انه سئل النبي صلى الله عليه و آله سلم فيما نقول في المستقبل ألتبع نص القرآن أم تتبع ما فسر به القرآن و الاحاديث فقال صلى الله عليه و آله سلم: شهادة الرجل حياً خير من

١. غير موجودة في النص الاصيل.

شهادة عشر من الاموات. فيفهم من ذلك ان شريعة الاسلام كالثوب المرن تقبل التمدد والتشكل باشكال التمدن و التقدم بخلاف دين النصرانية لتحكم النفس و تشديدهم و عدم الاباحة في التأويل فبقيت غير منتخبة. و أعجب من هذا انهم لقبوا السلطان سليمان بالمشترع مع انه اغلق باب التفسير بالقوة والاقتدار و جعل معنى القرآن قاصراً على آخر تفسير أمر به فسقطت بهجة العلوم الاسلاميه، في زمن اخذت أوروبا في اسباب التقدم والمعارف. و نرد على ذلك عيباً في كيفية الهجا المتبعة في اللغة التركية والعربية و الفارسية و هي ان الحركات لاتعرف الا بالشكل ويستحيل بغيره معرفة عواقد القراءة في تلك اللغات بخلاف الف باء الاورباوية فان حركاتها تكتب حروفاً اذا تعلمها اي شخص امكنه ان يقرأ بالصحة في أي كتاب ولولم يفهم المعنى. ولاشك ان تقدم العلم مبني على حسن ترتيب لغته و ان النفور يتصاعد اذالم يجد عبارة و جيزة يتكيف بها. هذا ولم يبق للمسلمين الا الايمان والحمية على اتباع كتاب الله فلا يخرج حبه عن قلبهم ابدًا. وان قيل لك ان النصارى لكثرة غواية الفلاسفة لهم وزحزحتهم عن دينهم شيئاً فشيئاً في مدة ثلاثمائة سنة يتركون دينهم ولا يبقى له وجود فصدقه واما اين قيل لك عن المسلمين شيء من ذلك فلا تصدقه مطلقاً.

وان امكن الاغارة على بلدة من بلاد المسلمين فانه لا يمكن جبرهم على ترك دين الاسلام و اتباع دين النصارى ولو عرضوا للهلاك بل يميلون للحكم على كره منهم فان لاحت لهم فرصة للتخلص نفروا مهللين بالشهادتين.

والحاصل ان الحمية الاسلامية غنية عن التعبير و ان حُبَّ المسلمين في نبيهم و تفضيله عن باقي الرسل امر لم تقلقله سياسة الدول الى الآن. و حيث ثبت انه من القوة البالغة الحدة و انه لا يمكن ازالته فالاولى موافقته بالعلوم المتأخرة والانتفاع به. وان دول فرنسا و انكليزا^١ والروسيا لم يعتدوا الى الآن بطريقة في حكوماتهم

توافق دين الاسلام، فتراهم يتبعون انفسهم في رد المسلمين عن دينهم فلم يهكنهم ذلك ويستعملون الظلم والقسوة التي لا تفيد شيئاً. وما يشبه الاوروبا والممالك المتقدمة ذكرها في معاملة المسلمين السلطان محمود لانه لما شرع في التعليمات الحرية الافيركية ادخلها على المسلمين بوجه افهمهم انه شارع في تغيير قواعد الدين فقامت عليه القيامة من الداخل والخارج وقلبت عليه الاحوال فاهلكته. واما المرحوم محمد علي باشا^١ فانه احب مصر بعد العدم ونشر ذكرها بين الامم فاخذت في اسباب التمدن واتسقت في الروه (!)

ولا يخفى ان كافة المسلمين ينضرون من الحالة التي هم عليها الآن و يحبون تغييرها بأي وجه كان فمن ثم كان قيام اهل العلم و خلع السلطان دليلاً على تيقظ الاسلام وان المسلمين من ابتداء مملكة مراکش الى بلاد الهند قد قربت ان تتحد كلمتهم على نصر الدين و تحسين احوال المسلمين سيما لما بلغهم من الصرب انهم يريدون نصر الصليب. وان اغلب دول اوروبا تساعد هم على ذلك فكان سعيهم من باب البغي والعدوان رحيم المرتع قليل المصراع فيا ليت المبالغ التي صرفتها الدولة في مشترى السفن المزرخة والآلات الحرية كانت صرفت في طلب العلم ولو في الصين كما في الحديث وكانت الامة الاسلامية تقدمت في المعارف والفنون، لكن نحمل ذلك على الاحتراز من بأس المعتدي ولا ضرر فيه وحيث تعين على الدولة ان توافق دول اوربا في اعطاء الضمانات المطلوبة لراحة النصارى فلا بأس في ذلك. انما يجب على الدولة ان تنتهز الفرصة وتلتفت الى تمدن المسلمين و نشر العلوم والفنون بينهم لأن هذا الزمان مساعد لذلك اذ لا وجود للماليك والانكشارية الذين عطلوا السلطان محمود في زمنه سيما للمسلمين الآن رغبة عظيمة في معرفة العلوم الاورباوية فامنا سمعنا مدرسة فتحت مجاناً في محروسة مصر منذ ثلاث سنوات وبلغنا عند افتتاحها ان التلامذة والراغبين هرعوا اليها ولم يكن يبقى الا

ثلاثمائة طالب فوجد عدد الذين دخلوا فيها يومئذ يبلغ سبعمائة وحصل مثل ذلك حيث امرت الحضرة الخديوية بفتح مدرسة للبنات وكانت اول مدرسة فتحت في مصر ما كان يؤمل انها تنجح ففي اول يوم بلغ عدد الوارد فيها قدر المطلوب ثلاث مرات فمن نظر الى ذلك بعين التأمل رأى نتيجة عظيمة لاتتال ولا بالقتال. فنشر التعليم خصوصاً بين النساء لاشك انه يؤول امره الى فصل مشكل المسئلة الشرقية. ولا يحتاج الامر فيها قتال ولا نزاع لان سيف التعليم امضى من سيف المحاربات. ولنضرب هنا مثلاً بالارض المزروعة يأتيها الشتاء فيستر زرعها بالثلج فتري كالميت و اذا اتى عليها الصيف وذابت الثلوج اخرجت زخرفها وازينت. فكذلك الاسلام اذا التقت الى معرفة العلوم والفنون دارك الدرجة العليا في التقدم كان عزمه قوياً ومستقبله مرضياً. ان الله على كل شئ قدير.*^١

١. تمت بخط سيد احمد الحكيم الازهري البحراني الحنفي. كتبت هذه المقالة في شهر صفر ١٢ فيه سنة ١٢٩٤.
 * في سنة ١٣٥٣ هـ. ش (الايانية)، قد أعطانا نسخة من هذه المقالة للسيد جمال الدين الحسيني، اخونا السيد حسن محبوب، حيث وجدها، بين الاوراق والوثائق الخطية في مكتبة «مجلس سنا» في تهران وكان الأخ محبوب مديراً عاماً للمكتبة آنذاك... خ

٢

الحكومة الاستبدادية

الحكومة الاستبدادية

إن طول مكث الشرقيين تحت نير استبداد المستبدين، الذين كان اختلاف أهوائهم الناشيء عن تضاد طبائعهم، وسوء تربيتهم، مع عدم وجود رادع يردعهم، ومانع يمنعهم، وقوة خارجية تصادمهم في سيرهم، سبباً أوجب التطاول على رعاياهم وسلب حقوقهم، بل اقتضى التصرف في غرائزهم وسجاياهم، والتغير في فطرتهم الانسانية، حتى كادوا أن لا يميزوا بين الحسن والقبيح، والضار والنافع، وأوشكوا أن لا يعرفوا أنفسهم، وما انطوت عليه من القوى المقدسة، والقدرة الكاملة، والسلطة المطلقة على عالم الطبيعة والعقل الفعال الذي تخضع لديه البسائط والمركبات، ويطيع أمره النافذ جميع المواليد من الحيوان والنبات. وإن امتداد زمن توغلهم في الخرافات التي تزيل البصيرة، وتستوجب المحو التام والذهول المستغرق، بل تستدعي التنزل الى المرتبة الحيوانية، و مداومتهم من أحقاب متتالية على معارضة العلوم الحقيقية التي تكشف عن حقيقة الانسان، وتعلمه بواجباته وما يلزمه في معاشه، وتبين له الأسباب الموجبة للخلل في الهيئة الاجتماعية، وتمكنه من دفعها، والسعي في إطفاء نورها بما ورثوه عن آبائهم من سفه القول و سخف الرأي والجدل في اضمحلال كتبها و

ضياح آثارها واستبدالها بما أوقعهم في ظلمات لا يهتدون الى الخروج منها أبدا.^١ كل هذه الأسباب تمنع القلم عن أن يجري على قرطاس بيد شرقي في البلاد الشرقية بذكر الحكومة الجمهورية و بيان حقيقتها ومزاياها وسعادة ذويها الفائزين بها. وإن المسوسين بها أعلى شأنًا وأرفع مكانة من سائر أفراد الانسان. بل هم الذين يليق بهم أن يدخلوا تحت هذا الاسم دون من عداهم، فإن الانسان الحقيقي هو الذي لا يحكم عليه إلا القانون الحق المؤسس على دعائم العدل، الذي رضيه لنفسه يحدد به حركاته وسكناته ومعاملاته مع غيره، على وجه يصعد به الى أوج السعادة الحقيقية، وتصدّه عن أن يرقم على صفحات الأوراق ما يكشف عن ماهية الحكومة المقيدة، ويوضح عن فوائدها وثمراتها، ويبين أن المحكومين بها قد هزتهم الفطرة الانسانية فنبهتهم للخروج من حضيض البهيمية، والترقي إلى أول درجات الكمال، والقاء أوزار ما تكلفهم به الحكومة المطلقة، وتطلب مشاركة أولى أمرهم في آرائهم وكبح شره النهمين منهم الطالبين للاستئثار بالسعادة دون غيرهم. ولهذا أضربنا صفحاً عن ذكرها، وأردنا أن نذكر في مقالنا هذا الحكومة الاستبدادية بأقسامها، فنقول:

إن الحكومة الاستبدادية باعتبار عناصرها الذاتية، وأقانيهما الحقيقية التي هي عبارة عن أمير أو سلطان، و وزراء، ومأموري إدارة وجباية، تنقسم الى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الحكومة القاسية وهي التي تكون أركانها، مع اتسامهم بسمة الامارة والوزارة والادارة والجباية، شبيهة بقطاع الطريق. فكما أن قاطع الطريق يقطع طرق السابلة، ويسلبهم أموالهم ومؤنهم وثيابهم التي تقيهم الحر والبرد و

١. استعمل «استبدل» هنا بما هو الشائع عند المتأخرين عامة. والذي في القرآن العزيز أن الباء بعد «استبدل» و «تبدل» تدخل على المبدل منه لا على البديل. فليتنبه له الكتاب. (هامش المنار)

سائر مواد حياتهم، و يتركهم في البوادي والقفار حفاة عراة جياعا تقطعت بهم حبال الوسائل، ولا يلاحظ أن فيهم الهرم والصغير والعاجز والضعيف الذين لا يستطيعون التخلص من المهالك، ولا يقتدرون النجاة، ولا يبالي بموتهم وهلاكهم عن آخرهم، ولا تأخذه في ذلك الشفقة والرحمة. كذلك هؤلاء الأركان يغتصبون ضياع رعاياهم وعقاراتهم، و يستولون على مساكنهم و بساكنتهم، و ينتزعون بالضرب والحبس والكي و غيرها من أنواع العذاب ما بأيديهم من ثمرات اكتسابهم، و يدعونهم في مخالب المصائب، معرضين للأسقام والآلام، و أهدافا لسهام البلايا، التي ترميهم بها عواصف الرياح الزمهريرية والسمومية، ولا يخشون اضمحلالهم و ابادتهم بالكلية، و محق حياتهم بالمره^١ بل يستبشرون بذلك كأنما هم أعداؤهم، ولا يشعرون أنهم قواد السلطة و أساسها. و من أفراد هذا القسم الحكومة الجنكيزية^٢ والتيمورية و غيرها من حكومات التتر والبرابرة كما تشهد بذلك التواريخ.

القسم الثاني: الحكومة الظالمة. و أولياء هذه الحكومة تماثل الأخساء الذين يستعبدون أناسا خلقوا أحرارا ظلما و اعتداء. فكما أنهم يكلفون عبيدهم بأعمال شاقة و أفعال متعبة، و يجبرونهم على نقر الأحجار، و خوض البحار، و فلق الصخور، و قلع الجبال، و طي المفاوز وجوب البلاد، في صرّه الشتاء و هجيرة الصيف، و يؤلمون أبدانهم بالسياط اذا لجأوا آنا ما إلى الراحة التي تجذبهم الطبيعة إليها، و يحجبونهم بأشغالهم المستغرقة لأيام حياة هؤلاء المظلومين عن مزايا جواهر عقولهم المقدسة، حيث لا يجدون فرصة من دهرهم للنظر في الآفاق، و في

١. قيل لحاكم شرقي أن رعيته يموتون في عمل السخرة الفلاني الذي كلفتهم به فلو رفقت بهم فقال: «و هل نحن استلمناهم بالعدد فنخشى ان ينقصوا» (هامش المنار)

٢. وضع رشيد رضا «الحكومة الانكليزية» و حاول أن يشرح ذلك في الهامش (المصدر السابق ص ٥٨٠) و بالرجوع الى الأصل تبين أن الأفغاني يقصد الحكومة الجنكيزية نسبة الى جنكيزخان.

أنفسهم، كي يرتقوا من الاحساس البهيمي إلى عرش الإدراك الإنساني، ويشاركوا أبناء جنسهم في اللذائذ الروحية، و يجتنوا ثمار عقولهم ليؤازروهم بنتائجها من الصنائع البديعية، والمخترعات الرفيعة، فيسعدوا مع السعداء. و مع ذلك يحرسون حياتهم، و يحرسون على استبقائها استيفاءً للخدمة منهم بتقديم قوت من أردأ ما يُقتاتُ به لسد الرمق، و ثياب خشنة رثة لتحفظهم من أظفار العواصف و برائن القواصف. فلا يكون حالهم مع ساداتهم إلا كحال البهائم والأنعام الأهلية، لا يعيشون إلا لغيرهم، ولا يتحركون إلا برضاه، بل بمنزلة آلة غير شاعرة بأيدي مُستعبد لهم يستعملونهم كما يشاءون.

كذلك هؤلاء الولاة مع رعاياهم، فإن الرعايا لا يزالون يتحملون المتاعب والأوصاب، و يكدون أيام سنيهم، و يسهرون ليايلها، مشغولين بلا فتور بالفرس والحرث، والحصد والدرس، والندف والحلج، والغزل والنسج، مهتمين بالحدادة والتجارة، والملاحة والتجارة، ساعين في حفر الأنهر و إنباع المياه، و إنشاء الجداول والجسور، متكبدين آلام التغرب في الحر المبيد والبرد المميت، كي ينالوا (أي الحكام) أرغد العيش بطيب المطعم والمشرب والملبس والمسكن، و يحوزوا الراحة والرفاهية والحظ والسعادة. و هؤلاء الظلمة لا يفترون عن السعى في سلب ما بأيديهم جبراً، و غصب ثمار مكاسبهم و فوائد متاعبهم رغماً، ولا يدعون لهم مما اكتسبوه بكديهم، و عرق جبينهم، سوى ما تقوم به حياتهم الدنيئة، حتى تراهم بعد اقتحام هذه الأخطار و تحمل تلك المصاعب، لا يقاتون إلا بكسرات خبز رديئة ناشفة، يبلونها بدموعهم المنسكبة من جور و لاتهم الفاتكين، ولا يسترون أبدانهم الا بخرق رثة مرقشة بدمائهم السائلة من سياط حكاهم الجائرين. ولا يسكنون إلا في الأكثّة المنخفضة، والاختصاص الخسيسة، كأنهم أنعام حرمتهم الطبيعة من المزايا الانسانية، ولا يشاهدون الا بوجوه مغبرة مقشرة، و أبدان مقشرة معفرة. و تدوم عليهم هذه الحال الرديئة التي نشأوا عليها، و

المعيشة الدنيئة التي اعتادوها، حتى يقنعوا بها ولا يتعلقوا سواها. بل يتنزلون بسوء تصرف هؤلاء الولاة مما منحوه من فضيلة العقل الى رتبة البهيمية، ولا يحسون بمعيشة أكمل مما هم فيه ولا يتألمون إلا بالآلام الجسمانية. و من أقسام هذه الحكومة غالب حكومات الشرقيين في الأزمان الغابرة والأوقات الحاضرة، وكذلك أكثر حكومات الغربيين في الدهور الماضية، ومنها أيضا الحكومة الانكليزية الآن في البلاد الهندية.

القسم الثالث: الحكومة الرحيمة وهي تنقسم الى قسمين: القسم الأول منها الحكومة الجاهلة. ودعائم هذه الحكومة تحاكي الأب الرحيم الجاهل. فكما أنه يحث أبناءه على اقتناء الأموال، واكتساب الثروة، واستحصال السعادة، والاقتصاد في المعيشة، بدون أن يبين طرقها، ويمهد لهم سبلها، لعدم علمه بها، و يدعوهم رافةً الى المجاملة والمودعة، ورفع الشقاق والنزاع من بينهم، بغير أن يحدد لهم الواجبات، و يقدر الحدود اللازمة للإدارة المنزلية^١ لقصور إدراكه عنها، فكأنه يدعوهم إلى أمر مجهول مطلق لا يهتدون اليه سبيلا.

كذلك حال هؤلاء الدعائم الرحماء الجهلاء يطلبون من رعاياهم السعي في المكاسب والصنائع، والتمسك بالتجارة والفلاحة، والتشبث بالعلوم والمعارف، و يغرونهم على مجارة الجيران، ومباراة أهل العرفان، والتعلق بأسباب النجاح والفلاح، بلا تشييد المدارس المفيدة، وتأسيس المكاتب النافعة، وتسهيل طرق المعاملات، و بث فنون الزراعة، جهلاً منهم. ويريدون من أولئك الرعايا التباعد عن الشقاق والنفاق، والاحتراز عن الاعتداء والاعتصاب، والتجنب عن الفساد والعناد، والحيثف والميل في الحقوق، والاحتراس عن كل ما يخل بالراحة

١. يستخدم الأفغاني هنا - و بعد ذلك - مصطلح «الإدارة المنزلية» بالمعنى القديم الذي وضعه فلاسفة الاغريق لما يعرف اليوم باسم «الاقتصاد»

العمومية، بلاتقنين ناموس عادل، حافظ للحقوق معين للحدود، فاصل للقضايا، قاطع لما يطرأ من النوازل، جامع لجميع ما يحتاج اليه الانسان في اجتماعاته المدنية. و من أفراد هذه الحكومة سلطنة بعض السلاطين المجبولين على الشفقة المطبوعين على الرأفة، الذين كانوا يكونون على سوء أحوال رعيتهن مع جهلهم بما يصلح شأنها. والسَّيَرُ بذلك ناطقة.

القسم الثاني منها: الحكومة العالمة. وهي تنقسم الى قسمين: القسم الأول: الحكومة الأفينة. وأقانيمةا تضاهي الأب العالم المأفون^١. فكما أن شفقة هذا الأب تسوقه الى العناية بأحوال أبنائه، وتقصره عليها، وأن علمه بأسباب الترف والثروة و علل المعيشة الهنيئة المرضية يقوده الى الاهتمام بتأديبهم بأحسن الآداب، و تعليمهم الفنون، و تمرينهم على الحرف، و يجبره على أن يبين لهم قوانين العشرة، و يحدد لهم حقوقهم. ولكن بعد ذلك يتركهم وشأنهم، لضعف رأيه، و قصر نظره، و جهله بأن ملازمة الشبان للآداب و اجتنائهم ثمار معارفهم التي اكتسبوها، و اجتهداهم في المكاسب لا تكون الا بقوة حافظة، مالم تحنكهم التجارب لما جُبِلُوا عليه من الميل الى الشهوات، والانعكاف على البطالة، والتقاعد عن الفضائل، فيهوون في هاوية التعاسة، و تذهب مساعيه سدى.

كذلك هؤلاء الأقانيمة^٢ يعمرن بيوت العلم، و يشيدون دور المعارف، و ينشئون المعامل، و يوسعون نطاق التجارة، و يواظبون على تشريع سياسة مدنية، تثبتاً للحقوق، و استتباباً للراحة، على مقتضى ما أحاطوا به من أحوال رعاياهم. ولكنهم، لعدم تدبرهم في العواقب، و عدم تبصرهم بأن افتقار انتظام أحوال العباد، و سير أمورهم على نهج العدل، و نيلهم غاية بغيتهم من مساعدتهم الى العلة المبقية كافتقارهم الى العلة الموجدة، لا يواظبون على أعمالهم هذه، ولا ينظرون إليها

١. الافين: ناقص العقل. والمأفون: ناقص العقل أيضاً، والاثان بمعنى واحد.

٢. الاقانيمة: الجواهر أو الاصول، و مفردها الاقنوم: الجوهر و الأصل.

نظرةً ثانية بل ينبذونها ظهرياً، ويتركونها نسياً منسياً، فيتطرق إليها الخلل، و يعثرها الفساد، ويسري إليها الانحلال، لما جُبِلَ عليه الانسان من الحرص والشره، والميل إلى الجور والاعتداء، المستلزمة لمخالفة القانون فيقع كُُلُّ في العطب والنصب والشقاء والعناء، ويستولي عليهم الفقر والفاقة ويصيرون كأرض موظوبه^١، بتوالي تطاول ايدي جائريهم، و تعاقب اعتساف معتديهم. ويشبه أن تكون حكومة المأمون وبعض سلاجقة ايران من أفراد هذا القسم.

القسم الثاني: الحكومة المتنطسة^٢. وأساطينها الحكماء. تضارع الأب المتدبر المتبصر. لا يبرح ساعياً في اعداد الاسباب الموجبة لسعادة أبنائه زمن حياتهم، و تهينة معداتها القريبة والبعيدة، ولا يتجافى آناً ما عن مواظبة دقائق حركاتهم و سكناتهم، و تفقد شئونهم و استكناه أحوالهم، ولا يتقاعد لمحة عن تأييدهم في سيرهم بأرائه السديدة و أفكاره الصائبة، خوفاً من التواني والكسل والاهمال والفشل، و خشية من عروض الموانع التي تصدهم عن البلوغ للغاية.

فنجده هؤلاء الحكماء الأساطين يعلمون أن قوام المملكة، و حياة الرعايا، بالزراعة والصناعة و التجارة، و يعرفون أن كمال هذه الأمور و اتقانها لا يكونان إلا بأمرين، أحدهما هو في الواقع عليهما الأولى: العلوم الحقيقية النافعة والفنون المفيدة، التي لا يمكن حصولها، والفوز بها إلا بمدارس منتظمة، و مدرسين ماهرين، و متخلقين بأخلاق فاضلة، شفوقين على المتعلمين شفقتهم على أبنائهم، و ثانيهما إعداد آلات الزراعة و أدوات الصناعة، و تسهيل طرق التجارة البرية و البحرية. و يفقهون أن حفظ اساس المدينة، و صون نظام المعاملات، و فصل المنازعات، و كَفُّ أيدي المتعدين، و منع المدلسين، و كبح الأشرار، و ردع الفجار، لا يكون إلا بالمحاكم الشرعية والسياسية المؤسسة على دعائم العدل والانصاف.

١. هي التي رعيت مرارا حتى لم يبق فيها كلاً ولا نبات (هامش المنار)

٢. نفس: استقصى الأمر و دقق فيه النظر، و كذلك: تنطس. والمعنى هنا: حكومة الخبراء.

وإنها لا تتحقق الا بقانون حق، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة - حتى إرش الخدش^١ - إلا محفوظاً بأمناء يقظين، محروساً بِمدول نشطين، محفوظاً بعلماء فقيهن، معزراً بقضاة مُقسطين، مؤيداً بحكام أَعفَاء وأَعوان بررة، يدركون ببصيرتهم الوقادة مصالح العباد، ومناهج تعمير البلاد، ووسائل درء المفساد الداخلية، وطرق منع النوازل الخارجية، وأن القيام بذلك لا يكون الا بضرب ضرائب عادلة عليهم يجمعها جُبأة عدول، تصرف في منافعهم العامة لدى الضرورة بلا حيف وميل، و انتخاب طائفة من ابطالهم الموصوفين بالصدقة وعزة النفس و علو الهمة لحفظ الأمانة^٢ الداخلية، ودفع الأعداء الخارجية، ويشعرون بأن استكمال سعادة المملكة، وصيانة استقلالها، لا يكونان الا بارتباطاتها السياسية وعلاقتها التجارية مع الممالك الأخرى، وإنها لا تتم إلا برجال عارفين، دهاء، متبصرين، محبين لأوطانهم (لا كحسن أفندي فهمي شيخ الاسلام الأسبق في الآستانة^٣ الذي كان يقول لعدو وطنه الجنرال إغناطييف سفير الروسية فيها: إنك عيني اليمنى، وإن حيدر ابني عيني اليسرى، كما ذكره حضرة مدحت أفندي في كتابه المسمى بأُسّ الانقلاب) متدربين محنكين بالسياسة عالمين بالحوادث قبل ظهورها، محيطين بطرق التجارة، فيقومون بواجبات ما اقتضته حكمتهم، وما أحاطوا به علماً، ولا يتهاونون آنأ ما عن أداء حقوق رعاياهم، ولا يفتدون راحة أنفسهم بسعادة أولئك الضعفاء. وزد على ذلك أنهم يدرون أن غالب أفراد الانسان طبع على الحرص، و فطر على الشر، و جبل على الشهوة، و خلق متهاوناً بواجباته متوانياً عن إصلاح شؤونه، و نشأ على المكر و الحيل، و غرز فيه حب الاعتداء على حقوق الغير و عدم الاكتفاء بما ملكته يده، و غرس فيه بغض الشرائع والقوانين، حينما يراها

١. الارش شرعاً بدل الدم أو الجناية او هو للاطراف كالدية للنفس (هامش المنار)

٢. الأمانة: الأمن.

٣. قيل - و مصدر ذلك هو الأفغاني نفسه - ان حسن فهمي هذا كان من أعداء الأفغاني و حساده خلال إقامته في تركيا (١٨٦٩-١٨٧١) وأنه تسبب في طرده منها.

سدا يمنعه من سلوك سبيل الغدر، و حاجزا يردعه عن مقتضيات الشره، و غلاً يكف يديه عن التطاول. و إنهم يفهمون أن كل ما يقع في العالم الانساني من المرض والصحة والفقر والغنى والنَّصَب^١ والراحة، بل كل ما يقتضي الشقاء والسعادة، و يوجب الصلاح والفساد، لابد و أن يكون لارادة الانسان و حركاته الاختيارية فيه دخل تام، و يدركون أن الانسان مادام على هذه السجية والغريزة فهو كمرىض تنازعتة أمراض خطيرة مختلفة، لا ينجو منها الا بتمريض طبيب ماهر يعرف العلل والعلاج، و يتفقدہ آناء الليل و أطراف النهار، فيهتمون حكمةً و شفقة بتتبع أحوال الرعايا مثل ذلك الطبيب الماهر، ولا يبرحون عن موازنة أعمالهم و أفعالهم و حركاتهم، ولا ينفكون عن مقايسة آرائهم و أخلاقهم، ولا يفترون عن تعديل ثروتهم و غنائهم، و تقويم علومهم و معارفهم و تجارتهم و زراعتهم، و إحصاء عددهم، و تعداد أحيائهم و أمواتهم، ولا يتوانون عن مقابلة الصادر والوارد في ممالكهم، والمعادلة بين قوة حكومتهم و اقتدارها و اقتدار الغير و قوته، لكي يقتدروا على تدارك مصالح البلاد قبل تمكن الفساد، و يقدروا على جبر الكسر و سد الثغر، و زَفُو الخَرَق، و إزالة جرائيم الرزايا والمصائب، و ابادة أسباب الخلل والمصاعب. و اذا لم يمكنهم القيام باستقصاء دقائق التعديل والتقويم، و جزئيات الموازنة والمقايسة مباشرة، انتخبوا رجالا يقظين عارفين بأحوال الدول و قواها، متبصرين بشئون الممالك و أسباب سعادتها و شقائها، عالمين بفنون التجارة والزراعة والصناعة و لوازمها، مهندسين محاسبين لأداء هذه المصالح، و تسجيلها في السجلات بغاية الدقة والاتقان، و عرض كلياتها على هؤلاء الولاة الحكماء، مع بيان موارد النقص والخلل و ايضاح أسبابها. و غير خاف أن تسجيل المعادلات و حفظ الموازنات للدول ألزم من تقييد التاجر معاملاته في دفاتره اليومية، فإنه لا يلزم من إهمال في التقييد والتثبيت، إلا أن

١. النص - بفتح النون و الصاد: التعب والاعياء.

يضيع رأس ماله على جهل منه، ويصبح مفلساً، وهذا ضرر خاص به. وأما إهمال الدول في حفظ المعاملات و تسجيل الموازنات فيوجب خراب البلاد و هلاك العباد و من أجل هذا تجد للدول الغربية عناية تامة بهذا الشأن المسمى عندهم بالاستاتستيك.^١

فهاك يا أيها الانسان الشرقي صاحب الأمر والنهي حكومة رحيمة حكيمة و عليك بها، والقيام بشأنها، و حفظ واجباتها، و إلا فبحياتك التي أفديتها براحة العالم أن تعفونا عن تحمل ثقل تشدقك بالرحمة والعدالة والحكمة والفضيلة. أتريد أن تظلمنا و نكافئك بالشكر؟ و تغصب حقوقنا و نجاريك بالثناء؟ أو تظن أنك تقدر أن تُعَرِّكُ العالم و تعمي بصائرهم؟ و أن تنزل بالملك عندهم منزلة الحق؟ و أن تجلس جورك مجلس العدل؟ و أن تقيم سيئاتك مقام الحسنات؟ و أن تُفَعِّدَ رذائلك مقعد الفضائل؟ ولعلك اغتررت بتمجيد المتملقين، و تعظيم المتبصصين^٢، و تبجيل المتزلفين أمامك. ويحك، لو كنت تعلم مقامك في النفوس، و منزلتك لدى أرباب البصائر والعقول لودعت هذه الدنيا الخؤون التي ألهمت، و فارقت حياتك العزيزة التي طالما افتديتها بالمروءة والانسانية. و أما أنتم يا أبناء الشرق، فلا أخاطبكم، ولا أذكركم بواجباتكم، فانكم قد ألفتكم الذل، والمسكنة والمعيشة الدنيئة، واستبدلتم القوة بالتأسف والتلهف. صرتم كالعجائز لا تقدرّون على الدَرْء والاقدام، والجلب والدفع والرفع. فإنا لله و إنا اليه راجعون.

١. الاستاتستيك: علم الاحصاء، و كان علما حديث النشأة في ذلك الوقت. و من الواضح أن الأفغاني نقل الاسم عن الفرنسية.
٢. المتبصص: الطامع أو الراغب في الملق.



«أحرار» يقتلون الحرية
الخدوى أعار يديه للاحتلال خوفاً
على العرش. مصر باب الشرق و فيها
لم يخدم العصيان

«أحرار» يقتلون الحرية^١

السيد رئيس التحرير

لقد خان الأحرار الانكليز كل تعهداتهم التي ضمنوها برنامجهم السياسي، الذي بموجبه وصلوا إلى الحكم... وذلك بتدخلهم في شؤون مصر، وجهودهم التي هم بصدد بذلها في سبيل السيطرة على هذا البلد.

انهم خانوا وعودهم، بسبب تعهدهم أمام ناخبيهم للدفاع عن حق الناس وحرية الأمم، في كل أنحاء المعمورة.

الأحرار فاقوا المحافظين في مجال الفتوحات والحروب الظالمة، التي انتقدوا بفصاحة اللورد بيكونسفيلد وأصدقاءه، بسببها.

ومن لا يتذكر غلادستون خلال الانتخابات العامة، الذي لم يتردد في تأييد «الزولو» الذين تخطوا الحدود الانكليزية، والأفغان الذين، بتحالفهم مع الروس وحدهم، قضوا على علاقاتهم الصداقية مع انكلترا.

وهو، غلادستون نفسه، الذي أعلن الحرب على المصريين الذين لم ينتهكوا حدود أحد، وكل ما طلبوه هو أن يعيشوا أحرارا في وطنهم... الذين لم يعطوا

أفضلية، على صعيد التحالف، لأية دولة أوروبية، دون الأخرى. مفضلين العيش بسلام وبصداقة طيبة مع الجميع.

أهكذا، إذن، يجري اللعب على قيمة الكلمات بين الأوروبيين، وهل يجب أن نعتقد بأن الذين يزدانون بينهم بلقب الأحرار، في وطنهم، هم أسوأ أعداء الحرية لدى الآخرين.

فضلا عن ذلك، فإن فتح انكلترا لمصر قد تم وفق موضوعة الفتوحات الخاصة بهذه الأمة والمتبعة منذ جيلين، فانكلترا لا تقدم على ذلك، والسلاح باليد. انها تحترس جيدا. وبالعكس، هي تدخل البلد الذي تطمع به، تحت كل الأشكال الأكثر مجاملة، وكل المظاهر الأكثر مودة. هناك، تنحاز أحيانا إلى جانب الأمير ضد الشعب، وأحيانا إلى جانب الشعب ضد الأمير. وهي تنحاز مرة لدولة ومرة لأخرى، تبعاً للظروف، ووفقاً لعروض الخدمات الملحة، واضعة تحت تصرفهم أخلص موظفيها وضباطها الذين، سرعان ما يهيمنون على كامل الإدارة. وليس ما يمنهم من الظهور بالتجرد من أية غرضية، حيث أنهم لا يقصدون إلا انقاذ الأمير من أعدائه الداخليين، وتخليص الشعب من أعدائه الخارجيين.

هذه المسرحية، المتكررة، لعبتها انكلترا مؤخرا، تارة الى جانب الخديوي توفيق، وطورا إلى جانب الحزب الوطني المصري، حيث لم تعد تعرف، حتى اللحظة، الأخيرة، أيا من الاثنين هو تحت حمايتها نهائياً. بالنسبة للخديوي، حاولت أن تقنعه انها الوحيدة التي تستطيع وتريد دعمه ضد الحزب الوطني، الذي يهدف فقط إلى قلبه، وهذا خطأ. وقالت للحزب الوطني وعرايي بواسطة جواسيسها السريين، انها الدولة الوحيدة التي ترغب في الحكم الذاتي لمصر، وهذا أيضاً خطأ.

واحسرتاه! فلو كان الخديوي اكثر فطنة او أكثر ثقافة، لكان تذكر ما يترتب عادة على الأمراء والأسر المالكة، الذين يقبلون المساعدة والحماية من انكلترا

ضد مواطنيهم. في الواقع، بدأت انكلترا في تجديد سلطتهم، معلنة انها خادمتهم الأولى... تلك السلطة الملكية التي وضعتها بريطانيا دائما في المقدمة، وجابهت بسببها الجميع في الداخل والخارج، ولكن شرط أن تتصرف السلطة تلك كما يحلو لها (أي لانكلترا).

هذا ما يمكن رؤيته في الهند خلال ٨٠ سنة. فانكلترا لديها الصبر - الصبر كان فضيلتها السياسية الكبرى - أن تظهر بمظهر الصديق المتواضع، الأكثر سعادة والحليفة الأكثر تبجيلا من عائلة تيمور المالكة، رغم انها، منذ اليوم الأول لتدخلها الصداقي لم تترك لهم، في التحديد وفي الحقيقة، غير القلب الشرفي للشاهنشاهية. ولم تخلع القناع وتظهر على حقيقتها: السيدة الوحيدة والمطلقة للهند، إلا منذ حوالي ثمانين سنة.

لو كان توفيق أكثر ثقافة، لأدرك ان انكلترا، وهي تسيطر كم فعلت، بحجة الدفاع عن البلد، وعن الجيش المصري... ستعامله، وهو الخديوي، تماما مثلما عامل «الناباب» في «البنغال» و«لاكوانو» و«كاماتاك» وغيرهم من «النابايين» الذين هدرت دمهم وضمت بلادهم، بواسطة الجيش الذي وضع تحت رعايتها حيث أعادت تنظيمه، كما ادعت، من أجل الدفاع عن العرش.

ولو أردت أن أقيم مزيدا من المقارنة والتشابهات، لكنت لاحظت كيف ان انكلترا حين استولت على جزيرة قبرص، قد تظاهرت بالقول أنها لم تسلبها نهائيا عن الامبراطورية العثمانية التي سوف تعيدها اليها. ولكن حين سلخت كالكوستا من آل تيمور، لم تقل الا الشيء نفسه.

حتى خلعها لاسماعيل واستبداله بتوفيق، ليسا شيئا فريدا في سياسة انكلترا الشرقية. ذلك ان الاحتفال الرسمي نفسه، قد جرى برعايتها، يوم تم خلع «الناباب سراج الدولة»، واستبداله بمراد جعفر.

باختصار، انكلترا هي بصدد تفكيك الامبراطورية العثمانية من أجل ابتلاع

الأجزاء المرغوبة منها، الواحد تلو الآخر، تماماً بالطريقة نفسها التي ابتلعت فيها الهند، ببطء، ولكن بلا مخاطر.

غير أنها، لسوء حظها، قد اضطرت الى التخلي عن نهج النفس الطويل في مصر، رغم أخطائه، فان نجاحات الحزب الوطني، الذي لم يقبل باقل من الحكم الاستقلالي للبلد، قد دفعتها الى التفكير الشديد. ان حكم الحزب الوطني لمصر، كان مناقضا لما حلمت به. ولذلك سرعت الأحداث. والمعروف ان النتيجة المباشرة لتسريع الأحداث: قصف الاسكندرية. إبطال حياد قناة السويس، و معركة التل الكبير، وغيرها.

ولكن الكوارث الماضية الناجمة عن تسريع الأحداث، ليست موضع اهتمامي الآن. ما أريد التوقف عنده هو نوعية و كمية النتائج المتلاحقة التي ستنتج حتماً عن تلك السياسة.

أولى تلك النتائج ان انكلترا، من الآن وصاعداً، لن تتمكن من اخفاء لعبتها. في شهر حزيران (يونيو) المنصرم، تذرعت انكلترا، لتدخلها في مصر، بمطلب الحزب الوطني أن يكون لمجلس الأعيان حق فحص الميزانية، مع أن المطلب صحيح، ومشروع ومنطقي، جداً.

«كلا لا أستطيع الموافقة على ذلك»، أجابت الحكومة الانكليزية باصرار. «ان مثل هذا الادعاء يمس شروط المراقبة الموضوعة عبر اتفاق دولي بين مصر، فرنسا و انكلترا، اتفاق مصادق عليه و معترف به من أوروبا. لاتمسوا شروط اتفاق المراقبة، انها مقدسة».

ان ما كان مقدساً لانكلترا في شهر حزيران (يونيو)، أصبح أقل قداسة بعد القصف في أيلول (سبتمبر)؛ ثم انتهى تماماً الآن. فحتى تصبح سيدة مصر سريعاً، عمدت انكلترا نفسها إلى إلغاء الاتفاق، رغم احتجاج فرنسا الشديد، والقلق القليل الذي أبدته أوروبا، التي تنظر بحيرة إلى ما يجري في هذا المجال بين القوتين الغريبتين الأعظم.

بلاشك، لقد استعملت كلمة غير دقيقة تماماً، بقولي ان انكلترا نفسها هي التي ألغت الاتفاقية، فهي كلفت رسمياً توفيق و وزيره الأول شريف باشا، للقيام بتلك المهمة. ولكن هذا التوكيل لم يغش أحدا، ولم يثبت إلا ان انكلترا، منذ اليوم، صار لها اسمان مصريان مستعاران بدلا من واحد.

بالنسبة لحيرة أوروبا، فهي تفهم على ضوء الأزمة الداخلية التي تجتاح فرنسا، ولكن من المتوقع ان الحيرة ستزول بزوال الأزمة. وانكلترا، عند الحاجة، تتعهد بوضع حد نهائي للأزمة، عبر وقاحتها الخداعة. في الواقع لأحد يجهل، انها وحدها، منذ شهر آب (اغسطس)، سرقت حق الأمم بأخذها قناة السويس قاعدة لعملياتها الحربية. تحت خطر توقيف تجارة العالم بأسره. وانكلترا نفسها اليوم، ترفع الصوت عاليا في أوروبا، متشكية من الأضرار التي لحقت بتجارها الخاصة بسبب الحرب المجرمة التي أضرمتها. وفي اليوم الذي يتسنى فيه لأوروبا أن ترى كيف يهزأون بها في مصر و يضحكون من سمو مصادقتها، فحينئذ لا يكون لها أن تسأل أو تتذكر من هي المتشكية و من أى شيء تشكى. و عاجلا أم أجيلا، فان أوروبا ستستيقظ ذات يوم لتبلغ انكلترا أنها ليست مادة لسخريتها. ولكن ثمة يقظة أخرى سابقة، حيث تكون نتائجها مخيفة للامبراطورية البريطانية، وأقصد بها يقظة الهند.

أنا لأعتقد اني أبالغ في قولي أن خشونة تدخل انكلترا في مصر قد أفقدتها، في لحظة، كل ما نالته عبر براعة رجال الدولة عندها خلال سنوات طويلة، من ميل وثقة الهنود. لقد أصبحت انكلترا، الآن، موضع بغض عميق من قبل الهنود المسلمين، السنة منهم، والشيعة. و سواء جاء ذلك بالفريزة أو عبر تحذير ممن لهم معرفة بالهند، فالمسلمون الهنود قد اقتنعوا الآن ان هدف الانكليز من الاستيلاء على مصر، هو في الدرجة الأولى للتحضير من أجل فتح الحجاز و مكة. و هم يعتقدون جميعاً ان الانكليز، في حال وضع يدهم على مهد و مركز الاسلامية،

سيتوفر لهم عامل قوي من أجل القضاء على هذا الدين. ذلك انه من المعروف ان لدى عامة الهنود فكرة عن انكلترا مختلفة عن فكرتهم ازاء فرنسا أو روسيا مثلاً، وهي ان الأولى تطلب منهم اضافة إلى الاتاوات والضرائب حيث تحاول استمالتهم إلى الديانة المسيحية. والذي يعرف الشرقيين، واهتمامهم القلق، عندما يهددون باعتقادهم الديني... يتوقع حدوث كل شيء.

لقد سافرت إلى الهند خلال الحملة العسكرية الأخيرة لمصر. هناك، لم ألق مسلماً واحداً، إلا وكلمني عن هذه الأحداث بقلق و ألم عميقين. الجميع قالوا لي: «يجب أن نتضرع الآن حتى تسرع روسيا في أخذ الهند من الانكليز، وتقلب هنا حكومتهم الشرهة... حيث، بخلاف ذلك، ستلاقي الاسلامية، قريباً، بينهم من هم أكثر المضطهدين المبغضين. ان ارسالياتهم تريد أن تعمل منا مسيحيين، بأي ثمن».

يجب الاعتراف ان ما تنشره في تلك الحقبة جريدة «الأخبار» الهندية في لاهور، ليس بمقدوره أن يهدىء من تلك التصورات. كانت الأخبار تنشر، من دون تعليقات، بعض المقالات نقلاً عن الجرائد الانكليزية شبه الرسمية، مثل قولها: «انه يجب على حكومة صاحبة الجلالة أن تقرر، بسرعة، فرض المسيحية على مسلمي الهند، حيث، دون ذلك، لن تصل إلى شيء، لأن المخالفين لها دينياً، هم مخالفون سياسياً، ولا يرون في الهيمنة البريطانية إلا هيمنة غير شرعية وزائلة، حيث لا يجب أن تكون أطاعتها إلا في الحد الأدنى، اضافة إلى عدم الثقة بها. و عليه، فلا ريب انه من الضروري أن تتصرف انكلترا كما تصرف الفاتحون المسلمون، حيث تفرض بدورها دينها على الشعوب المغلوبة».

اني لا أقدر هذه الألفاظ حق قدرها، بالنظر إلى الاحتمال الديني الحديث. أما بالنظر إلى التدبير السياسي المألوف، فمما لاخلاف فيه، ان العبارات تلك تدعو إلى عجب الكتاب الذين لم ينسوا أن ثورة عام ١٨٧٥ نشأت عن خوف و تهديد

أقل وضوحاً من هذا التغيير في الدين. واني أعلم يقيناً أن هذا الخوف قد استولى الآن على كل أفغانستان و بلوستان، حيث جاؤوها بطريق سمرقند و أشكباد من أملاك روسيا. وليس من الخطأ أن تتنبأ بأنه سيتم حصد مثل هذا الزرع حين تحل روسيا في « مرو »، مما لا يطول أمد انتظاره. لأن حلم الانكليز المتعلق بدعم ألمانيا والنمسا ضد روسيا في أوروبا، بما يحولها عن الهند، هو حلم وهمي.

هاك في آسيا النتائج القريبة والأكيدة تقريبا، في مذهبي، لضلال أحرار الانكليز في المسألة المصرية. أما في أوروبا، فمن الممكن أن لا تكون هذه النتائج في ساعة ما مخيفة. ومهما كانت تأكيدات وزارة الخارجية مطمئنة وضاحكة، بالنسبة لأفكار أوروبا الحالية في هذا الشأن، فان أمرا واحدا متغلب على كل ذلك، وهو أن أوروبا لا يمكنها أن تنسى أن مصر كانت في مدة أجيال عديدة أرضا حرة مفتوحة لكل الأوروبيين، الذين كانوا يتمتعون فيها بمنفعة خاصة، فكانوا يتجرون فيها و يربحون بحرية. وكيفما ننظر الآن في المسألة نرى ان هذا الحق نقص و مس بالتداخل الانكليزي، الذي تتألم منه الآن النمسا و ايطاليا، و بالأخص فرنسا التي لم يصادف نفوذها المخصب في تلك الجهات فشلا إلى تاريخ هذا التداخل، فان مصر كانت ولا زالت على الدوام باب الشرق، ولكل أمة أوروبية عظيمة أو صغيرة مصالح و علاقات في الشرق. فاذا كان في نية انكلترا أن تحفظ لنفسها وحدها هذا الباب و تضع مفاتيحه في جيبها، فكل الأمم على اختلاف أجناسها تجد بذلك إهانة و احتقارا لها، و تدفع بقوة الحوادث رغم المغايرات والمخاصمات التي تفصلها عن بعضها في جهات أخرى من الأرض، إلى تأليف عصبة واحدة ضد انكلترا في الأرض المصرية، وهذه هي النتائج التالية المتوقعة لسياسة وزارة غلادستون المصرية.

بقي علي أن أظهر ان هذه السياسة الانكليزية المصرية لا تصادف في أرض مصر نفسها أخطارا قليلة، لأن الأفكار بعيدة فيها عن السكون. والعصيان لم يخمد

فيها بمطامعه الشرعية و غيرته الوطنية. والخديوي توفيق، باعارته مداخلات الانكليز أذنا صاغية، بأمل انقاذ عرشه وبقائه بعيدا عن بعض الأخطار الناجمة من رعاياه، مما أدى الى استدعائهم لمساعدته وفتح أبواب البلاد لهم. غير انه عندما يتضح له ان المدعين لحمايته ليسوا الا عبارة عن سجانين، و عندما يعرف حقيقة هدفهم، التي ليست تعمير مصر، بل السيطرة عليها و استثمارها... في ذلك اليوم، لانشك انه يرفض أن يكون أداة بأيديهم، و سيخجل من كونه قد أعار يديه للأجانب الذين احتلوا بلاده.

عندئذ، سيفعل ما فعله ملك الأفغان الشاه سودجاه. لأن توفيق ليس أقل ديانة من الملك الأفغاني، بل انه يعادله بالوطنية والشجاعة ذلك ان توفيق يجب أن يكون ابنا جديرا بأبوه محمد علي.

اذن، مثل شاه سودجاه، سوف يصرخ اطرده و الانكليز، ولو اقتضى ذلك أن تدوسوا على جثتي.

عندها، سيجد توفيق والمصريون في أوروبا حكومة مفعمة بعواطف الشجاعة والشهامة. تمد لهم يدا المساعدة.

«جوستيس»

٢٧ آذار - مارس ١٨٨٣

٦

بایئه

بَابُهُ

دين ظهر في بلاد العجم نحو سنة ١٨٦٣ بدعوة رجل من اهل شيراز يُعرف بالسيد علي محمد و كان تلميذا لبعض تلامذة الشيخ احمد زين الدين الاحسائي الذي مزج التصوف والفلسفة بالشريعة و جمع بين اعتقادات الشيعة الامامية والاصول الفلسفية على طرز جديد و قال ان المهدي الغائب المنتظر ظهوره عند الشيعة هو الآن من سكان عالم روحاني غير هذا العالم الجسماني سماه بجابلقا و جابرسا وان اجسام سكان ذلك العالم الروحاني كاجسام الجن والملائكة المسماة بالاجسام الهورقليائية و هي من اصطلاحات الكيمياء القديمة و قد قفاه على هذا الاثر تلامذته و قاموا في مقام التعليم على هذه الطريقة و كان من امر السيد علي محمد المذكور بعد ان حج، الى مكة ان ادعى انه باب المهدي و اقام على تقرير هذه الدعوى مدة و اسس ذلك الدين من عناصر اسلامية و نصرانية و يهودية و وثنية و لقب نفسه باب الدين ثم ترك هذا اللقب و لقب نفسه النقطة او خالق الحق مدعياً انه ليس نبياً بسيطاً بل هو مشخص للالهة و منع احد اتباعه لقب الباب و ارسل دعاءً الى جهات مختلفه. ثم بناء على قول مقتداه الشيخ احمد المذكور في امر المهدي ادعى ثانياً انه المهدي بعينه و ان ذاك الجسم اللطيف الروحاني قد ظهر في هذا الجسم الكثيف المادي و لما كانت الرجعة اي رجوع بعض الائمة السابقين و تابعيهم

من الاصول الثابتة في مذهب الامامية والتناسخ من اعتقادات طائفة الباطنية الذين تسلطوا في بلاد العجم مدة طويلة كان له بقايا في النفوس فقام جماعة من اتباع هذا الرجل اعني السيد علياً وادّعى بعضهم انه الحسن وبعضهم انه الحسين وبعضهم انه غيرهما من الائمة و تابعيهم و ايّد هذه الدعاوى عندهم رأي رآه هذا الرجل نفسه و هو ان شخصية الشخص التي باعتبارها يمتاز عن غيره و ينال اسماً خاصاً به كحسن او حسين مثلاً انما هي صفاته و اخلاقه التي يكون عليها فن وجدت فيه صفات شخص و اخلاقه و احواله على وجه تامّ فهو هو في اي زمان كان. و لقرب هذه الاعتقادات من مشرب الطائفة الشيعية من الشيعة و هم اتباع الشيخ احمد زين الدين المذكور آنفاً لبي دعوة هذا الرجل كثير من اهالي بلاد العجم المتمذهبين بذلك المذهب الجديد. فلما رأى اقبال الناس عليه و اجابتهم دعوته ترفع في دعواه فقال انه هو النبي و ان الله قد انزل عليه كتاباً يسمى بالبيان و انه المشار اليه بقوله تعالى خلق الانسان علمه البيان. و الانسان هو محمد و البيان هو هذا الكتاب المنزل على السيد علي. و كتابه هذا يحتوي على كثير من العربي المسجّع و بعض الفارسي الا ان العربي منه كان ملحوناً فلما سئل عن سبب وقوع اللحن في هذا الكتاب المنزل مع ان اللحن نقص اجاب بان الحروف والكلمات كانت قد عصمت و اقترقت خطيئة في الزمن الاول فعوقبت على خطيئتها بان قيدت بسلاسل الاعراب و حيث ان بعثتنا جاءت رحمة للعالمين فقد حصل العفو عن جميع المذنبين و المخطئين حتى الحروف و الكلمات فاطلقت من قيدها تذهب الى حيث شاءت من وجوه اللحن و الغلط. و مما ينسب اليه انه كان سريع القلم في الكتابة حتى كانت سرعة قلمه تحسب من جملة معجزاته. و قد لقب نفسه بالذكر و زعم انه المراد من الآية انا نحن نزلنا الذكر و انا له لحافظون. و من قوله فاسألوا اهل الذكر ان كنتم لاتعلمون و امثال ذلك من الايات القرآنية و اخذ يدعو الناس الى دينه و لم يعلم من يجيب دعوته فتبعه جمع كثير من اهالي بلاد العجم و استفحل امره و علقت

بقلوب الناس دعوتهُ و اوقع تابعوه في قلوب الناس رعباً و خوفاً اذ كانوا يقفون على سرائر الناس و خباياهم فمن كان يومئذ بطن في معتقدهم لم يلبثوا ان يقتلوه و فشا منهم التعدي و الغدر حتى كانوا يتشكلون باشكال متعددة كالسائلين و نحوهم ليتمكنوا من الفتك بمن ظنوا به او توهموا فيه انه يشير بسوء الى مذهبهم فسفكوا بذلك دماء كثيرة و كانوا شبه الناس بالقداوية الذين اشتهر امرهم على عهد الفاطميين (راجع اسماعيلية) ثم انهم لم يقفوا على هذا الحد بل تجاوزوه الى ان اثاروا الفتنة على الحكومة في ثلثة مواضع و ابرزوا من الجسارة ما لم يسمع بمثله حتى كان الرجل منهم يتزر بازار و يأخذ سيفه و يهجم على الالوف من العساكر عرياناً ليس عليه سوى الازار و كانوا يعتقدون ان من يموت منهم في المحاربات يقوم بعد اربعين يوماً فاشتد على الحكومة خطبهم و حاولت كبجهم فقاوموها و ثبتوا امامها الى ان قبض على هذا الرجل اعني السيد علي محمد و قتل بالرصاص على فتوى العلماء في تبريز و ذلك سنة ١٨٥٠ بعد ان بقي في السجن ١٨ شهراً و قذف بجثته في خندقها و ذلك في عهد الشاه الحالي في السنة الثانية من جلوسه على كرسي المملكة و يزعم اتباعه ان جثته قد صعدت الى السماء اما غير اتباعه من الاعجام فيقولون ان جثته قد اكلتها الكلاب. و بعد مضي سنة من قتله حلول ثلثه من اتباعه قتل الشاه فرموه بالرصاص الا انه اخطأ فنشأ عن ذلك اضطهاد شديد فقتل جماهير من اتباع الباب في طهران و عذبوا بعدابات تقشعر لها الابدان و من جملتهم قره العين الاتي ذكرها و كان ذلك باعثاً على زيادة امتداد الباقية في العجم و الهند و قسم من تركيا. ثم ان هذا الرجل كان قد اوماً في بعض رسائله الى ان الذي يخلفه بعد موته شاب من تلامذته يسمى يحيى و يلقب بصبح ازل فلما وقع تشديد الشاه عليهم و تعقبهم بالقتل في جميع الاماكن هرب كثير منهم الى بغداد من بلاد الدولة العلية. و ممن خرج منهم يحيى صبح ازل و اخوه الاكبر المسمى ميرزا حسين علي الملقب ببهاء. فاخفى صبح ازل عن اعين الناس بامر اخيه و ادعى اخوه انه حاضر بين الناس الا انهم

لا يرونه اذ ليست الابصار بقابلية لان تناله. ولما وقع الاتفاق بين الدولة العلية و دولة الشاه على اخراجهم من بغداد و نقلتهم الدولة الى ادرنه تنفس صبح ازل و اسفر على الناس قائماً بامر الخلافة داعياً الى دين استاذهِ السيد علي فحسدهُ اخوهُ و انكرهُ و ادَّعى انه دجال فوقع الشقاق بينهما و افترق التابعون فثنتين فثنة اقتدت بصبح ازل و اخرى بهاء و الاولى تسمى ازلية و الاخرى بهائية و البائية اسم لها عامٌ. و بعد مدة احست الدولة العلية منهم سوء المقاصد و او جست منهم شرّاً فنفث صبح ازل الى جزيرة قبرس فمات فيها و نفث بهاء الى عكاء و هو الان فيها مع جمع من اتباعه.

و اما ديانة الباب فثبتت مبدأً واحداً كسائر الاديان على ما يترأى من قول اتباعه و تحكم بصدق جميع المرسلين السابقين و تقرب من قول النصارى بحلول اللاهوت في الناسوت و تنبيُّ عن ثواب و عقاب للارواح بعد مفارقة الابدان لكن على وجه يشبه الخيال فتلتذ النفوس الطيبة باخلاقتها و معلوماتها و تتألم النفوس الحبيثة بملكاتِها الرديئة و جهالاتها الى ان تزول هذه الملكات عنها فتعود الى عالم الاجسام مرة ثانية و هو ضرب من القول بالتناسخ و تأمر بالصلاة و جوباً و هي ركعتان فقط وقت الصباح. وقد اتخذ مسجداً كبيراً في شيراز و جعله كعبة تولى الوجوه اليها في الصلاة و تفسد الصلاة بالانحراف عنها. ثم انه جعل الشهر تسعة عشر يوماً لان هذا العدد عندهم مقدس لان اصل وحدة اللاهوت مؤلفة على زعمهم من ١٩ اقنوماً و رئيسهم الباب فهو عندهم اعظم من محمد كما محمدا اعظم من عيسى و فرض الصوم شهراً من اخرا الحوت بحيث يوافق عيد فطرهم يوم النيروز و هو اول الحمل. و من احكامه انه يجب تخريب جميع البقاع المقدسة كمكة و بيت المقدس و قبور الانبياء و الاولياء عند حصول اول سلطة لاحد ممن تبع دينه و يحرم شرب الخمر و كذا الدخان على عهده و حللهُ اتباعه من بعده و يندب شرب الشاي ندباً مؤكداً حتى ان من شربه ينال جزيل الثواب و منها انه يجوز العقد

على اثنتين فقط والشرء والمتعة بغير حصر و على ما يقال أنه يجوز نكاح الاخت. و منها ان من كذب في قول او نادى شخصاً من خلفه فقد اساء و كفَّارته اعطاء ثلاثة مثاقيل من الياقوت فان لم يجد فصيام يومين. و منها ان شهداءهم الذين قتلوا في طهران و غيرها يجب ان يبنى لهم مشاهد مكلفة بانواع الجواهر و انه يجب على اي سلطان يكون منهم ان يضع سيفه في العالم فاما الدين او الموت ولا يجوز اخذ الجزية. و انه يجب على كل واحد منهم ان يكون عنده كأس من الفضة و ثوب نظيف نقي اما الكأس فيتناول بها الماء القراح الصافي و اما التوب فيتجمل به عند الفراغ و انه يجوز ان يظهر بعده كامل اخر لكن بعد ان يمضي من السنين عدد حروف المستغاث يعني النبي سنة و كسوراً. و يحظر في مذهبهم اتخاذ السراري والطلاق و استعمال النساء للنقاب و يصح ان يقال ان دينهم الى الان لم يقرّ على نظام واحد بل هو كالرمال السيالة تحدث بسيرها تلاً في محل ثم تنتقل و تحدث تلاً اخر بشكل اخر في محل اخر. و كان من جملة دعائه امرأة فتيّة بارعة الجمال متوقدة الجنان فاضلة عالمة تسمى باسم سلمة من بنات احد المجتهدين في العجم و كانت متزوجة بمجتهد اخر طلقت نفسها من زوجها على خلاف حكم شريعة الاسلام و آمنت بذلك الرجل عن غيب و كانت تكاتبه و يكاتبها فكان يخاطبها في مكاتباته بقرة العين فلُقيت بذلك و كانت تناظر العلماء والفضلاء مكشوفة الوجه بدون حجاب ثم لما وقعت المحاربة بين البايين و عساكر الدولة في مازندران جيشت جيشاً و قاده مكشوفة الوجه و سارت امامه طالبة اعانتهم و في اثناء الطريق قامت في الناس خطيبةً و قالت ايها الناس ان احكام الشريعة الاولى اعني المحمدية قد نسخت و ان احكام الشريعة الثانية لم تصل الينا فنحن الان في زمن لا تكليف فيه بشيء فوق الهرج والمرج و فعل كل من الناس ما كان يشتهي من القبائح ثم قبض عليها و ألّبت البرقع جبراً و حكم عليها بان تحرق حيةً ولكن الجلاد خنقها قبل ان العب النار بالحطب الذي أعدّ لاحراقها و من احكام هذا الدين انه لا يجوز ان يضرب المعلم تلميذه اصلاً و ان

الزكوات والصدقات لا يجوز اعطاؤها لغير البايين فان فقد فقير في البايين فتصرف على من بقي على مذهب الشيخ احمد زين الدين الاحساني.

و اما نسبتهم الى الاباحية (الكمون) بهذا من لوازم مذهبهم حيث ان كل من خالفهم في معتقدهم فدمه وماله هدر. و اما تشاركهم في الاموال فهو من مقتضيات كل دين او مذهب جديد اذ يتعاون اهله ببذل جميع ما بأيديهم و يرتفع الحجر و المخرج من بينهم. فهذا ما رواه عنهم السيد جمال الدين الافغاني المشهور وغيره.^١

١. دائرة المعارف، قاموس عام لكل فن و مطلب، تاليف: المعلم بطرس البستاني، ج ٥ - دارالمعرفة، بيروت ص



دائرة المعارف

رسالة

من أديب اسحق إلى جمال الدين الأفغاني

سيدي الأستاذ الأعظم

لئن كان لأدوار الزمان قضاء نافذ في الناس، فلقد حال الكمال أنفس آحاد الرجال عنه فما تنفعل بالمحادثات ولا تؤثر فيها التقلبات، بل هي في مقام التجرد الذي تستوي فيه مظاهر عبث الأيام بأبناء الزمان. والسيد^١ لازال حجة هذا القول، ما ترك فضيلة ولا قعد عن مكرمة ولا ضن بمنفعة، ولكن قضاء الزمان الذي لم يؤثر فيه قد كان نافذاً في مريديه فما أطاقوا الخير معروضا من جانبه ولا زادوا الشر طارثا من جانب الأحداث وهكذا وقع من بعضهم^٢ الاهمال في مكاتبة من راسلهم عن السيد من أمراء الهند، فانقطعت أخباره عن سائرهم إلى هذه الأيام فعسى أن يعرضهم المستقبل مما أضاعوه خيراً فيجد الأستاذ تحت سماء الحرية^٣ مستقراً طيباً أميناً، فلا تحتجب بعد ذلك أنوار أفكاره عن البصائر وان احتجب ضياء وجهه عن

١. اي الافغاني، وكان يوقع بكلمة «السيد» بعض مقالاته.

٢. ربما يقصد بعض تلامذته من المصريين، الذين انقلبوا عليه بعد أن طردته السلطات البريطانية من مصر، ونفته إلى الهند.

٣. اي باريس، حيث كان يقيم الافغاني حين كتب اديب اسحق رسالته.

الأبصار وقد حمل البصير^١ إلينا مفتتح مقالة السيد في الشرق والشرقيين^٢ فكانت مقدمتها غذاء للألباب و ما يليها مهمازاً للعزائم ولا تزال الأنفس مشتاقة إلى البقية اشتياق الظماء إلى بارد الماء فالمستول من كرم السيد أن يرسل إلي ما طبع منها ومن سواها في البصير وغيرها من جرائد لندرة وباريس جملة فتلك أمنية للعاجز فيها شركاء كثيرون ممن عرفوا السيد بالخبر أو بالأثر ولست أذكر للاستاذ شيئاً مما لدي من أخبار مصر العمومية فانها تصل باريس قبل ورودها إلينا بل قبل شيوعها في مصر ولكني أحسبه مشتاقاً إلى الأخبار الخصوصية عن بعض الأصدقاء فهذه أعرف منها أن عبد السلام بك^٣ على أحسن حال من السلامة والعافية على انه منقطع في منزله اجتناباً للشبهات إلا عن بعض الأخصاء وان سليم أفندي النقاش^٤ سار إلى مصر باذن حكومتها على أن يصرف أموره وأشغاله ثم يعود فهو الآن هناك يستمتع رجال تلك الحكومة عوضاً مالياً مما لحق به من الخسارة بسبب تعطيل مطبعته وجريدته بلا موجب معلوم^٥ وان سعيد البستاني عزل اثر الفتنة ثم اعيد إلى الخدمة بمثل الراتب الذي كان له من قبل وهو الآن على حد قول القائل: و خمول ذكرك في الحياة سلامة. أما أبو تراب^٦ فقد أبلغت إليه وعد السيد باستقدمه إلى باريس عن قريب فكاد يطير بذلك سروراً وهو مقيم هاهنا على الدعة والراحة يترصد معنا الأخبار ويعد الأيام ويستبطن البرد فعسى أن نجيشنا كتب

١. جريدة البصير لصاحبها خليل غانم، وهو وطني لبناني لجأ إلى باريس هرباً من السلطان العثماني عبد الحميد، وكتب هناك في كبريات الصحف الفرنسية امثال «الديار».

٢. نشر المقال في «اوراق» (العدد الثالث) نقلاً عن جريدة «ابونضاره». وكان قد نشر في حينه في جريدة «البصير» وفي جريدة يعقوب صنوع، في آن، كما هو حال مقالات المشاهير من الكتاب.

٣. عبد السلام المويلحي، وهو أحد تلامذة الافغاني.

٤. لبناني وطني اصدر في مصر جريدتي «التجارة» و«العصر الجديد» حيث حرر فيها اسحق، وكان صديقاً للافغاني.

٥. إشارة إلى التدابير القاسية التي اتخذت بحقه وبسائر أبناء بلاد الشام، الذين كانوا يصدر وزن دوريات في مصر. من قبل حكومة عرابي باشا الثورية.

٦. خادم الافغاني، الذي لازمه طوال حياته.

السيد بما نتوقع ولا بأس في تعليلنا بالأمانى فما الحياة إلا الأمل وله في تحقيقه رأيه
العالي المؤيد وأمره الكريم المطاع ومني على حضرته السلام بالاجلال والاعظام.

الخادم

أديب اسحاق

بيروت في ١٥ آذار ١٨٨٣

كتاب «دائرة المعارف»

«ان اللسان يقصر عن تقديم فريضة الشكر والثناء لقطب العلماء و سيد
الفصحاء، الحكيم الذي ذاع صيته في كل مكان، و حدث بفضله الركبان، القابض
على عنان روح العصر، المفيض من طيب فضله في كل مصر، السيد السعيد الكريم
الأصل، العميم الفضل، زبدة العلم والأدب، أمام كل من كتب و خطب، جمال الدين
الأفغاني وفقه الله إلى نوال كل مراد. و نفع به الناس في كل صقع و ناد. كيف لا
تتشنف الأسماع بذكراه، و هو ينبوع الفضل و مبدأه. و كم له يداً تشهد بزاهر تلك
الأفضال، و يياض ما له من الأعمال، و هو صانع هذا العقد من ألفاظه الدرية،
ومفرغ أبلغ المعاني في هذه القوالب العسجدية. هذا و اننا لنشكر حضرة الأدباء
أصحاب الجرائد الوطنية في الديار المصرية، و هي جريدة «الأهرام» و «مصر» و
«مرآة الشرق»، بنشرهم شهادة ذلك العلامة لدائرة المعارف بين الخلق. و نسأله
سبحانه و تعالى أن يمن علينا بحسن النهاية. كما وفقنا إلى محاسن البداية».

بطرس البستاني

قال السيد جمال الدين الافغاني:

«ان الانسان باعتبار أقتوميه المتجاذبين المتدافعين و هما جوهره العقلي النوراني
و هيكله الهولاني الظلماني يقسم إلى قسمين أحدهما و هو القسم الأعظم سواداً

الأكثر أفراداً وهو الذي تنقلب فيه جنبته البهيمية الظلمانية على أصله العقلي الذي به قوام إنسانيته فتستعمله لقضاء أوطارها من جلب الملاذ الحسية الجسدانية وتهيد طرق الشهوات الحسية الحيوانية فلا يهتم إلا بالمأكل والمشرب والتفنن فيها ولا يسعى إلا لتزيين الملابس وتشديد المساكن لا يدرك اللذائذ العقلية ولا يتطلبها ولا يسعى في تحصيلها بل ينكرها ويسخر ويمزأ بمن يجتهد لنيلها والوصول إليها ولا يعقل الفضائل الحقيقية فيميل إلى التحلي بها ولا يفقه الرذائل فيجنع عنها ولا يشاق إلى المحامد الحسنة فينزع إليها.

وهذا القسم وإن كان على صورة الإنسان إلا أنه في الحقيقة من البهم والعجاوات بل أخط منها منزلة فإن حيواناً ما من الحيوانات لم يهمل شيئاً مما أودع الله فيه من الخواص التي تنادي به إلى كماله الواجب له بخلاف هذا القسم من الإنسان فإنه قد أهمل أشرف خواصه وهي خاصة العقل التي بها يمتاز عن غيره من أصناف الحيوانات وقد ذهب عليه أن المأكل والمشرب والمسكن إنما هي مقاصد بالتبع لا بالذات يرام نيلها لاستبقاء الحياة كي يكتسب بها المعارف العقلية والملكات الفاضلة.

والقسم الثاني هو الذي يبتغي لذة أخرى فوق اللذائذ الجسدية بل كثيراً ما يكف نفسه عن اللذائذ الحسية ويفادها رغبة في استحصال تلك اللذة وهو ينقسم إلى قسمين أحدهما السلاطين والأمراء وذوو المناصب والرتب. فمن هؤلاء من يتقشف في معيشته مأكلاً ومشرباً وملبساً ويصرف فكرته أثناء الليل وأطراف النهار ويتجافى عن مهاد الراحة والدعة إلى وهاد التعب والمشقة ويتباعد عن السكون والطمأنينة إلى الاضطراب والحركة. بل قد يقتصر من لوازم حياته على الضروريات التي لا يمكن التعيش إلا بها ولا يبالي بفقد ما عداها من الحاجيات والكماليات فهو بالحقيقة معذب الجسم مؤلم البدن يحمل نفسه على تحمل كل ذلك سعيّاً في توسيع الممالك وفتح البلدان وقهر السلاطين واستحصال المراتب العالية

والمناصب السامية ليكن بذلك هيئته من القلوب و عظمته في النفوس و ينال من الناس محمدة و ثناء و يكون ذلك غاية لذاته و منتهى مطلوبه و لا يعد ما سواه لذة. و هؤلاء و ان طلبوا لذة روحانية إلا انهم راموها من غير وجهها و أتوها من غير بابها فان أعمالهم هذه لا توجب توقيهم من النفوس و لا انطلاق الألسنة بالثناء عليهم خصوصاً عند ذوي العقول و البصائر لما انه لم يترتب عليها فائدة في العالم الانساني و مع ذلك قد أخطأوا المرمى لأنهم قد اتخذوا لمقصدهم هذا وسائل القتل و النهب و القهر و السلب و احقاق الباطل و ابطال الحق و تخريب البلاد و تدمير العباد و هذه الوسائل المشؤومة قد انتزعت محبتهم من القلوب و اسكنتها الضغائن و الأحقاد عليهم و نفرت منهم الطباع و بدلت التعظم بالتحقر و المدح بالذم و الثناء بالثلب لدى العارف و العامي و العالم و الجاهل و ها هي كتب التواريخ مشحونة بمثالبهم و معاييبهم و أطلال القرى و رسوم المدن المنخفضة بدماء ساكنيها تشهد بشناعة أعمالهم و قبح مساعيهم و خروجهم عن حد الانسانية إلى خطية السبعية و الافتراس حتى نرى أن أفضلهم و أنزههم لا يوصف إلا بعدم الظلم و الجور و الارتشاء و غير ذلك و ليس بخاف ان هذه الاعدام لا تعد مدائح إذ ليس لهم حق في التعدي حتى يمدحوا بالكف عنه على أن مادحيهم بهذه الاعدام لم يأتوا ذلك الا رياء و نفاقاً و قلبهم ينكر عليهم و ما مدحهم بذلك الا كمدح بعض الاحاد بأنه ليس بسارق و لا مختلس مثلاً.

الثاني الحكماء المصنفون و العلماء المؤلفون و العرفاء المخترعون و هؤلاء هم الذين رفضوا مقتضيات الجنبه البهيمية و نزهوا أنفسهم عن الصفات الخبيثة السبعية و بذلوا راحتهم و صرفوا نفيس عمرهم في تحلية عقولهم بأنوار العلوم الحقيقية و المعارف العقلية و نفوسهم بالصفات و الاخلاق كاملة بل أثبت نفوسهم الشريفة و مهمهم العلية أن تقف بهم عند هذا الحد من الكمال أعني تحصيل الفضائل القاصرة على دواتهم بل بذلوا الوسع و أجهدوا النفس في نشر العلوم و الآداب و وضع

القوانين العادلة و اختراع الصنائع النافعة والفنون العالية و غير ذلك مما لا يقوم للنوع الانساني قائم إلا به لا يختصون بذلك جنساً دون جنس ولا وطناً دون وطن ولا يبتغون بذلك سوى لذة الكمال العقلي و استحصال المحمدة الحقبة بما قلدوا به أعناق أفراد النوع البشري من نتائج أفكارهم و آثار أعمالهم فصار توقيهم في النفوس و تعظيمهم في الأئمة فرضاً على كل شخص من النوع الانساني بالطبع ان أنكره لسانه شهدت به جوارحه و جنانه بل حازوا السلطنة الحقيقية في المملكة الانسانية لا يعزلون عنها بموتهم ولا تزول سلطتهم المعنوية الحقيقية ما دامت السموات. انظر إلى سلاطين اليونان و الرومان و الفرس و الكلدان قد محيت أسماؤهم من صفحات الأذهان لا يطلع عليها إلا المتوغلون في قراءة التواريخ و سير الأمم و اما فيثاغورس و سقراط و أرسطو و أفلاطون و بزرجمهر و جاماسب فلا تزال الأنفس رطبة بذكراهم ناطقة بفضائلهم و مزاياهم و النفوس معترفة بعوارفهم و مذعنة بعظمتهم و ان هؤلاء العظماء الفضلاء من الشرقيين و الغربيين في الأزمان الغابرة و الأوقات المحاصرة يحتلون جميعهم من الشرف مكاناً علياً و استحقاقهم للمحمدة الحقبة و الثناء الخالص يتفاوتون فيها على حسب تفاوتهم فيما حازوه من الفضائل و ما ترتب على مؤلفاتهم و مصنفاتهم و مخترعاتهم من الآثار و الفوائد فمن كان منهم في المعارف أوسع دائرة و بالآثار أعم فائدة و أتى من الأعمال ما يقيم نظام الهيئة الاجتماعية لنوع البشر كان أحق بالمدح و أجدر بالثناء فيجب على كل من وضع قدمه في أول درجات الانسانية أن يقدم له الشكر و الثناء على قدر طاقته قياماً بأداء الحق و استنهاضاً للنفوس الحاملة لأن تنال ذاك المقام الأسمى و الشرف الأعلى.

ولهذا رأيت من الفرض علي أداء الشكر أصالة عن نفسي و نيابة عن كل عارف باللغة العربية الشريفة أن أنشر عطر الثناء على حضرة العالم الفاضل المتبحر بطرس أفندي البستاني بما أودعه في مؤلفه «دائرة المعارف» من الفوائد الجليلة و المنافع

العميمة التي قلد بمنتها أعناقنا قائلاً ان هذا المؤلف الفاضل فضلاً عن سائر مؤلفاته كمحيط المحيط وقطر المحيط وغيرهما قد أتى لنا بكتاب دائرة المعارف محيطاً بجميع ما يحتاج إليه الانسان في معاشه و معاده إذ قد حوى جميع التواريخ من سير الأمم والسلاطين وأخبار الأنبياء والحكماء والقديسين وجغرافية البلاد و علوم الطبيعة والكيمياء والنباتات والحيوانات والحساب والجبر والهندسة والفلك وغير ذلك من الفنون الجليلة فمن وهبه الله أدنى عقل غريزي وكان له أقل إلمام بمبادئ العلوم فله أن يستغني بهذا المؤلف عن تجشم الجلوس بين أيدي الأساتذة لأن صعوبة العلوم بصعوبة الوقوف على اصطلاحاتها وهذا الكتاب قد كشف حجاب الخفاء عن جميع الاصطلاحات بأوضح بيان وألطف عبارة وأرق إشارة غير انني مع ذلك لا أنمالك ان أظهر أسفي من أن هذا المؤلف لم يبرز بتمامه في عالم الوجود ولست أتوهم انه من فتور في همة المؤلف الفاضل ولكنه لقصور في رغبة الشرقيين فنوجه إليهم الخطاب قائلين يا أبناء الشرق أفلا تعلمون ان سلطة الغربيين و سيادتهم عليكم انما كانت بارتفاع درجتهم في العلوم والمعارف وانحطاطكم فيها فلم لا تتقد أحشاؤكم بنيران الشوق لهذا المؤلف البديع و أمثاله حتى يبرز بمعدت رغبتكم و كمال شوقكم من عالم القوة إلى الفعل هل رضيتم بعدما كان لكم ذروة الشرف بواسطة العلوم والمعارف ان تدوم لكم تلك الحالة الوخيمة التي أوصلتكم إليها الجهالات والضلالات حتى عادت ترق لكم قلوب الأعداء فضلاً عن الأصدقاء فهلما لاقتناء المؤلفات واقتناص صيد المعارف واعتصموا بعري الاجتهاد في نيل العلوم واستضيئوا بسنا الحق لتسترجعوا مجدكم و تنالوا حقيقة استقلالكم فتفوزوا مع الفائزين».

بروت في ١٥ آذار ع.م

سیدی الاستاذ الاعظم

لئن كان لودوار الزمان قضاء نافذ في الناس فقد كان الكمال انفس آحاد ارجاء عنه
فما تنفع بالحادثات ولا تؤثر في التعلبات بل هي في مقام التجرد الذي تستوي فيه مظاهر
عبث الايام ببناء الزمان والسيد لولا جملة هذا القول ما ترك فضيلة ولا قد عن
مكرمة ولا عن بمنفعة ولكن قضاء الزمان الذي لم يؤثر فيه قد كان نافذا في مرديبه
فما الى قوا ان يجد مروضاً من جانبه ولا ذلوا الشرطاً من جانب الوجدان وهكذا
وقع من بعض الاحمال في مكتبة من ارسلهم عن السيد مراراً الهند فانقطعت لغيره
عن سائرهم الى هذه الايام فعلى ان يعرضهم المستقبل ما اضعاه خيراً فيجد الاستاذ
تحت ساء الحربة مستراً لحياتنا امينا فندعجب بعد ذلك انوار اطواره عن البصائر
وانما اجب خفاء وجهه عن البصائر وقد حمل البصير البنا مفتوح مقالة السيد
في الشرق والشرقين فكانت مقدتها غداً للوهاب وما يجرها لهما في العزائم
وتوزال النورس مشتقة الى البقية اشيا في الظلماء الى بارد الماء فاحسول من
كرم السيد ان يرسل الي ما لجمع منها ومن سواها في البصر وغيره من جرائد نشره
وباريس جلد فقلت امنية للعاجز في شركاء كثيرين من عرفوا السيد بالخبر
او بالثر ولست اذكر لستاد شيئاً مما لدى من اخبار مصر العمومية فانها
تعمل باريس قبل ورودها اليها بل قبل شيوخها في مصر ولكن احببت شيئاً قال
الاجبار انخدعية عن بعض الاصدقاء فانه اعرف من ان عبد السلام بك عمي
اعطى حال من السيرة والعافية على انه منقطع في منزله اجاباً بشهادات

أقول عن بعض الأخصاء وأن سليم أخذ في النقاش سار إلى مدله بأذن حكومتها على أن
يعترف بدوره واستقاله ثم يعود فهو الآن هناك يستخرج جبال تلك الحكومة عوضاً عما
بما تقدمه من خفاء بسبب نظير طبيعته وعريته بلا موجب معلوم وأن سيداً البستاني
عزّل اثر الفتنة ثم أجد إلى الخدمة بمنزلة الذي كان له من قبل وهو الآن على حد قول
الأنفاس: وعمل ذكر في كمينه سلامة. أما أبو تراب فقد بلغت إليه وهو السيد يستعد
هي بديهي عن قرب نكاد بطير بذلك سروراً وهو ضيقها هنا على لوعة والراحة يترصد
هنا هو حصار وبعد الأيام ويستطيع أن يبرّد نفسه أن يجيئنا كتب السيد بانتدفع ولد
باسم في تليفنا بالدمى فما الحياة إلا الأمل ولد في تحقيقه رأيه العالي للتوحيد وأمره
أكبر المطاع ومنى على حفره السلام بأرجل والأعظم ^{منه الله} ادست



خطبة بالاسكندرية
(زينا)

خطبة بالاسكندرية

(زيزينيا)

يا أيها السادة ويا أيتها السيدات.

أرى من الواجب أولاً أن أثنى على الجرائم الشريفة الشرقية التي مضت عليها الدهور ومرت العصور، وهي في حالة الكون، لمنع الموانع الخارجية وقسر القواصر الداخلية. ومع ذلك لم تفقد مزاياها العالية، ولم تَقْدُم سجاياها السامية، بل برزت ونمت، فرأينا أصولها الشريفة سادة شرفوا هذا المحضر، لاعلاء كلمة العلوم ورفع منار المعارف، وتأييد أمر الفضل اعتقاداً أن العلم سلطان عادل حكيم، إذا حل ببلد قوم تبعه الغنى والثروة لأنها لا يحصلان إلا بالتجارة والزراعة التي لا تحصل إلا بالعلم، ولزمه الطمأنينة والراحة لأنه يعين الحدود ويُبَيِّن الحقوق، فيكون لكل من الناس خط لا يتخطاه، وحد لا يتعداه، ووليته الحرية لأنه يُبَيِّن للانسان مقدار نفسه، فيعرف بذلك قدر غيره، ولا يخضع لمن يتوهم فيه السيادة خضوعاً أصم، ولا يطيع لمن يعتقد به الرئاسة طاعة عمياء، فلا يؤخذ إلا بالقانون ولا يدين إلا للشرعية، وتلتها الشفقة لأنها لا تحصل إلا بأن يدرك الانسان ما ألمّ بغيره من المصائب إدراكاً يحسُّ ذلك في خياله، حتى كأنه يشعر بألمه. وهذا الادراك هو عين

العلم، و علماً بأن الجهل سلطان غشوم جاهل يتبعه الفقر و الفاقة، و يواليه الارتباك و الاضطراب، و يألفه الذل و العبودية، و تَلْزُمُهُ القسوة و الشراسة. ولذلك فإنني أقدم الشكر للأفاضل الكرام الأرومات، الشرفاء الأصول، الذين اجتمعوا في هذا المقام لاهياء العلم الموجب لتلك المزايا، و دفع الجهل الداعي لهذه المعاني.

و ثانياً، إنه لمعلوم أن الأمة المؤلفة من طبقات الناس تماثل الشخص الواحد المؤلف من الأعضاء و الجوارح. فكما أن قوام الأعضاء و غوها يكون بالقوة الحيوية، تقوى بازديادها و تضعف بضعفها على نسبة واحدة، كذلك جسم الامة لا تحصل لطبقاته القوة إلا بروحه الحيوية التي هي عبارة عن الميل إلى المعالي و الشوق الى الكمالات. و ليس بخاف عنكم ما ألم بروح الجنسية في الأمم الشرقية من الضعف و الوهن المستلزم لضعف سائر الطبقات، فلا تأخذوا من قام فيكم خطيباً، إن رأيتم في صوته تهدجا و في عباراته قلقاً، و في معانيه اضطراباً، فما الخطباء إلا من طبقات الأمة التي ألم بها الضعف بروحها الكلي فسرى الى طبقاتها و أعضائها. و لهذا فإذا رأيتم في خطابتي نقصاً، فلا بد من التجاوز عنه لكوني رجلاً شرقياً.

و إذ تقرر لي ذلك فإنني أشرع في بيان المطلب، فأقول: لا أريد أيها السادة أن أذكركم بمجد آبائكم الكرام، و إنكم إما أن تكونوا من أبناء المصريين أو من حفدة الفينيقيين، أو من سلالة الكلدانيين. و إن المصريين قد بلغوا من الهندسة ذروتها، و من الحساب غايته، و من المساحة قاصيتها و من فن جَرِّ الأثقال منتهاه، و علّموا اليونان الحكمة و الفلسفة. بل إن شخصاً واحداً منهم قد بحث في اليونان روح المعرفة و علمهم فنّ تدبير المنزل على حين كانوا همجا متوحشين، و أبان لهم كيفية الزراعة و الصناعة على حين كانوا يتعيشون بالصيد و القنص، و ان جل علمائهم و معظم حكماهم لم ينالوا الفلسفة إلا بما تعلموا في مدرسة مصر العظيمة.

ولا أذكركم بالفينيقيين و أنهم وضعوا أصول الصناعة، و خاضوا عباب البحار.

و كانت انجلترا و اليونان من مستعمراتهم. ولا تزال أسماء بلاد أسبانيا و سلافينا شاهدة بأنهم رفعوا على تلك الأقطار ألوية تمدنهم، و أن أهلها كانوا لا يعرفون الصناعة و لا التجارة. بل كانوا يقدمون لحدودكم كنوز الطبيعة، و معادنها الثمينة، ليأخذوا منهم الأقمشة و الآلات و سائر ما يحتاجون اليه، و أنهم علموا اليونان الخط. و كان أعظم حكمائهم منسوباً اليهم و هو تاليس^١ الصوري.

و لا أعيد ذكر الكلدانيين جدودكم الأول الذين أنشأوا صناعة النحت، و قسموا الفلك بالدوائر، و عرفوا معدل الأنهار و منطقة البروج و دائرة نصف النهار، و وضعوا الاسطرلاب و عرفوا القطب و اخترعوا الكرة ذات الحلقتين.

لا أذكركم بجميع ذلك لأنكم تعلمونه علم اليقين، و لا تخافون فيه منكمرا أو معترضا، فإن الهرمين، و المسلات، و أعمدة الكرنك، تفقاً بأصابعها الدهرية أعين المعترضين الذين يرمون الشرقيين بالهمجية و النقص في الفطرة، و إن تلول نينوى، و أطلال صور و بعلبك و منفيس و ثيبة^٢، ما بقيت إلا لتثير الغبار على أبصار المنكرين الذين ينظرون إلينا بعين الاستخفاف و الاحتقار، و انما أريد أن أعطف نظركم الى حالتنا الحاضرة، فإنكم تعلمون بما حصل لنا من الانحطاط، و ما حاق بنا من الذل و الهوان، و ان النوائب قد خفضت منارنا و الأجانب اقتسمت ديارنا. و لا شك أن هذا حادث من الحوادث فلا بد له من علة يوجد بها. و يعدم بعدمها. و بعبارة ثانية إنه قد وضع في دائرة الوجود عوالم متعددة، و لكل منها مركز يكون بمنزلة شمس تجذب توابعها بحبال الجذبات اللستيكية التي تدفع تارة و تجذب أخرى، و ترسل إليها رسل الأشعة حاملة عناصر الحياة، و إنه قد وضع في كل نبات و في كل حيوان من التغذية ما هو حافظ لنفسه، و من التوليد ما هو حافظ لنوعه. و لا شك أن ما وضع فينا من قوى الادراك لم يكن الا لتنال مرادنا من

١. تاليس الفيلسوف الاغريقي، و ينسب الى صوري في لبنان.

٢. ثيبة هي طيبة المدينة المصرية القديمة.

السعادة. فلا بد أن يكون لحرماننا من تلك الأمنية مانع. و اذا سبرنا الموجودات سبراً فلسفياً فلا نجد لتأخرنا غير سبيين أصليين، و هما التعصب و الاستبداد. فأما الأول فهو عبارة عن سوء استعمال الدين. فإننا اذا نظرنا بعين التأمل البصير الى الشارعين من عهد (مهاديو) الى زرودشت الى موسى، الى عيسى، الى محمد (صلعم) لانجد في شرائعهم إلا الدعوة لمعرفة مبدأ الحق، و هو الله، و الحث على الفضائل، و فعل الخير، و الزجر عن الرذائل و الشرور. و بعبارة ثانية لانلق بها الا الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، و لكننا إذا نظرنا الى الكثير من الذين تبعوهم، فإننا نراهم قد استعملوا تلك الشرائع للشقاق و النفاق، و اتخذوها و سائط لاضرام الفتن و وسائل لالقاء الإحن حتى أمكن للشاعر العربي أن يقول:

إن الديانات ألفت بيننا إحناً.. و أودعتنا أفانين العداوات.

و ما مثل هؤلاء إلا كمثل رجل قلد السيف لقتل الأعداء فاستعمله في قتل الأحياء. فبئس ما كانوا يفعلون.

و أما الاستبداد فهو أن تكون أمة من الأمم مقيدة بسلسلة رأي واحد من الناس لاتتحرك الابارادته و لاتفعل إلا لرضاء. فإذا كانت الأمة على هذه الصورة لزمها لامحالة أن يصرف كل منها ما أودع فيه من العقل و الذكاء لمرضاة شخص واحد فيكون الكل فانياً فيه. و من المعلوم أن الرجل الواحد، ولو انفرد في العقل و الذكاء و الهمة و علو النفس، لا يستطيع جلب السعادة لنفسه فضلاً عن جلبها لأمة كبيرة. و هاهنا يمكن لي أن أبشركم بأن قد زال عنا هذا المانع بما نلناه من الحكومة الشورية. فلم يبق إلا أن تسعوا في صيانتها و تأييدها. و لاتكتفوا بمجرد حصولها اذلا يخفى عنكم أن الحكومة هي كسائر الأجسام الطبيعية و الاجتماعية. بما يطرأ عليها من التحليل.

و حيث أنا شعرنا بالآلم، و علمنا بسقوطنا في هذه المهواة، و أن أنفسنا تميل الى الخروج منها، فلا بد لنا من البحث عن الدواء الحقيقي لهذا الداء الحادث، فإذا رجعنا

إلى بصيرتنا النورانية وفطرتنا الأصلية علمنا بأنه لا يمكن الخروج عن هذه الخطة إلا بالسبب. فان المتحرك لا يسكن والساكن لا يتحرك إلا بالعلة. ولا أرى لخروجنا من علة سوى الغيرة. فهي الحركة للنفس الداعية الى المجارة والمباراة، والباعثة على الاهتمام والاقدار، وعلى قدرها تأتي العزيمة وترتفع القيمة. وعلى حسب تأصلها في الأنفس وضعفها يكون صعود الأمم الى معارج العز والثروة، وهبوطها الى دركات الذل والفاقة.

ولاشك أن الغيرة لا تحصل إلا بحزب من الوطنيين يعلمون أن لاشرف لهم إلا بحسبهم، ولا قوة إلا بأمتهم، ولا فخر إلا بوطنهم، وأنهم إذا أرادوا تحصيل الشرف بالانتماء الى غيرهم يكونون بمنزلة الرقعة في الثوب الجديد، أو بمنزلة العبد الذي يفتخر بسيده. ولهذا أرجو منكم يا أيها السادة ان تقيموا حزباً يصون لوطنكم حقوقه ويحفظ عليه بهاءه. على أني لا ألومكم على انتفاء بعضكم الى الأجنيين، فان ذلك لم يكن الا فرار من الظلم وحرصاً على الحقوق الانسانية والمدنية. ولكني أؤمل منكم ان تؤيدوا أمر الوطن وتشدوا فيه الحكومة الشورية ليستقيم به أمر العدل والانصاف، فلا يعود بكم من حاجة الى حماية الاجنبي، بل تمزقوا أوراق الانتفاء، وتذاكر الحماية، حتى يكون شرفكم منكم واليكم، وحمايتكم في ظل قوانينكم، ولا تكونوا رقعة بالية في ثوب الاجنبي الجديد.

ولاشك أنكم تعلمون أن الحزب الوطني لا تحصل له القوة، ولا يكون له البقاء، ما لم يكن لأهل الوطن لغة جامعة، مهذبة التراكيب، جيدة الأساليب. فان لم يكن لهم ذلك لا تستقر فيهم المعارف ولا تقيم بأحيائهم العلوم، وان ذهب جماعة كثيرة منهم الى أوروبا وتعلموا اللسان الأجني، فإن معارفهم المكتسبة تكون سريعة الزوال، ووطنهم يكون كالبلد الذي لا ماء فيه، يجلب لأهله الماء من ضواحيه، فهو عرضة للظما وسوء الحال، وأهله على شفا الاضمحلال.

فإن سأل سائل: كيف يمكن بث الغيرة وانشاء الحزب الوطني وحياء اللغة؟ قلنا

إن أعظم الأسباب الموجبة لحصول هذه المزايا هو إنشاء قاعة للخطابة يقوم فيها الخطباء الألباء، وينطقون عن الغيرة والحمية بما يبين لنا الحقوق ويعين الواجبات، ويذكرنا بمجد آبائنا و ذل أبنائنا، ويرينا حالة الأجنيبين، وما هم عليه من القوة والثروة والمجد والسطوة، فنعلم أسباب السقوط و وسائل الهبوط، ويتبع ذلك إنشاء الجرائد الحرة القائمة بأمر الوطن الآخذة بأطراف الحق، فإنها تقرب الأقصى باللفظ الموجز، وتنبئ بأخبار السلف، وتبين لنا أحوال جيراننا، فترينا المصالح و المفاسد لنجتلب تلك ونجتنب هذه. ولا شك أنه لا بد في عالم المدنية من كل منها، و لا يمكن البلوغ إلى غاية السعادة إلا بهما. و لا فرق بينها إلا أن الخطابة تحرك الدم بحركة الخطيب وقوة المشافهة، و أن الجرائد تثبت المطالب في الأذهان باعادة النظر الى ما لا أثبت في الصحائف.

ولكني أجلكم يا أيها السادت عن أن تحسبوا أنكم تتالون مزايا المدنية، و تحوزون المعارف و العلوم، و تستكملون أسباب التقدم والسعادة، و تبلغون ذروة المجد و الشرف، إن كان العلم فيكم مقصوراً على الرجال. بل أعيذك من أن تجهلوا أنه لا يمكن لنا الخروج من خطة الخسف و الجهل، و من محبس الذل و الفاقة، و من ورطة الضعف و الخمول، مادامت النساء محرومات من الحقوق، و غير عالقات بالواجبات، فإنهن الأمهات اللواتي تصدر عنهن التربية الابتدائية و الأخلاق الأولية. ولا شك أن أول ما ينقش في لوح ذهن الانسان يكون ثابتاً صعب الزوال. و قد قيل: العلم في صغر كالنقش في الحجر. و أقول إن هذا النقش هو السبب الأصلي في اختلاف المذاهب، و تنوع المشارب، فإن وجدت فيه الكدوره، فلا صفاء في الذهن و لاسلامة في المشرب، ولكن اذا كانت الأمهات عالقات، عارفات بحقوق الانسانية، متأدبات على ما تقتضيه أحكام الشرف و المدنية، فلا شك أن أولادهن يتخلقون بأخلاقهن، و يكتسبون منهن تلك المزايا الفاضلة. و عندي أنه إذا حصل التساهل في تربية المرأة، و كانت رجال الأمة جميعاً راسخين في العلم و

المعارف، مترقين في درجات الكمال، فلا يمكن بقاء الأمة على تلك الحال المكتسبة إلا مدة بقاء أولئك الرجال. فاذا انقضوا، وخلفهم الأبناء المتخلقون بأخلاق أمهاتهم على ما بهن من النقص في الكمالات العلمية، رجعت أمتهن الى ما كانت عليه من الخسف وسوء الحال.

أقول هذا و في يقيني أن جِلْمَكُم يقيني الملام، و أن تلطفكم يضمن لي حسن الختام.

٩

السياسة الانجليزية
في الممالك الشرقية

السياسة الانجليزية في الممالك الشرقية

بلغنا أن الحكومة الانجليزية قد عرضت لائحة في المسئلة المصرية على الدولة العثمانية تسكيناً لروعها، وتطيناً لبأها، تذكر فيها أنها ما قصدت الاستيلاء على مصر، ولاتود وضع اليد عليها، ولكن سوف تبقى العساكر الانجليزية في البلاد النيلية الى مدة زوال القلاقل، وحصول الراحة، وتشكيل المجالس والمحاكم. ولاتود الدولة البريطانية أن تمس حقوق الحضرة السلطانية بمدخلتها في مصر.

نعم. هذه هي السياسة الانجليزية في جميع البلاد الشرقية، عملت بها في الممالك التي أرادت الاستيلاء عليها، وقد حذقت فيها وجربتها مرات عديدة، حتى إذا خاض العاقل فيها رأى أن لاسياسة للانجليز سواها كأنها عرفت عقول الشرقيين، وعلمت ما فطروا عليه من السذاجة وشدة الاعتقاد بمواعيد عرقوب، فتأخذهم على غرة وتستلب بلادهم، وهم في أمن منها يثقون بعهودها، ولا يعرفون أن هذه الحكومة إنما تقتنص بأوهاق الايمان^١ ولاتسلك في فتوحاتها إلاً مسلك الوداد، حتى إنها قل ما تملك بلدأ بالقوة القاهرة. وإن الشر لا يأتي إلاً من معاهداتها.

١. الوهق، محرک ويسكن، الجبل يرمى في أنشودة فتؤخذ به الدابة والانسان. الجمع أوهاق (هامش المنار)

أليست هي التي أزالَت السلطنة التيمورية التي كانت منبثة في جميع أرجاء الهند بمدخلتها الودادية و مواعيدها المؤكدة؟ أليست هي التي نقضت الحكومة النظامية في بنغالة بعساكرها التي وضعتها للمحافظة على تلك البلاد؟ أليست هي التي أزاحت السلطنة الكهنورية بنفس جنودها الذين أقامتهم لتوطيد الراحة فيها؟ أين ذهبت حكومات أمراء الكرناتك و مدراس التي كانت مطمئنة بالعساكر الانجليزية و معتمدة على معاهداتها؟ أين حكومة بنجاب و بمالك أمراء السند؟ أين حكومة المراتيين في بونه؟ ذهبت كلها لاعتماد أهلها على وعود الانجليز و حماية عساكر الملكة. و ما أبادهم، لعمرى، سوى تلك العساكر نفسها التي وضعت لصيانتها من الفساد الداخلي، فاحذروا يا أهل الديار النيلية من أن يحل ببلادكم ما حل بغيرها. ولا غرو أن يحذو الفتى حذو والده.

وقد بلغنا منذ قدمنا لوندن^١ أن معظم الأوامر التي يجريها الخديو تكتب أولاً في الوزارة الخارجية بلوندرة، ثم ترسل الى المندوب الانجليزي بمصر، والمذكور يقدمها لحضرة الخديو ليجريها كأنها صادرة عن أمره باختياره، و لأمر له فيها ولا اختيار، وربما هذا كان الباعث على استقالة رياض باشا من الوزارة.

هذه هي السياسة الانجليزية التي كشفت عنها غطاءها التجارب، و بهذه السياسة جالت في ميدان جميع فتوحاتها، فلا أظن أنها تتمكن بعد الآن من احتلال عقول الشرقيين بهذه المواعيد^٢. و ما أظن أن السلطان و رجال دولته بعد ما علموا نبأ معاهدات الانجليز في الهند أن يعتمدوا عليها، و يثقوا بأصحابها، ولا ريب أنهم قد

١. كذا في الأصل المطبوع. و هي لندن.

٢. إن أمير مكة حسين بن علي و أولاده قد خيخوا آمال السيد جمال الدين فانحدوا بالعود الانكليزية على قول الذين يحسنون الظن فيهم ببقاوتهم، و الذين يدافعون عنهم - ويرى آخرون انهم خائنون لامتهم لانحدوعون، فإنهم يطلبون الملك، و لم تسم همهم الى طلبه إلا من طريق الانكليز، فساعدوهم على اخذ البلاد العربية ليشاركوا معهم و تحت ظلمهم في التمتع بحكمها (هامش النار)

اطلعوا على المعاهدات الانجليزية التي طبعت في أربعة مجلدات بمطبعة (نول كشور) في بلدة لكتناهور. و منها علموا كيف يستولى الانجليز على البلاد بحرفة العهود الفارغة والمواثيق الباطلة، وفيما قلناه عبرة لمن يعتبر، وسوف نعود إلى الخوض في هذا الموضوع متصلا.

١٠

اسباب الحرب
بمصر

اسباب الحرب بمصر

لقد ذهب الناس مذاهب شتى في أسباب الحرب التي قَدَحَتْ الانجليز زنادها على المصريين، فمنهم من زعم ان الطمع في الاستيلاء على البلاد النيلية الخصيبة كان الباعث على ذلك، ومنهم من اعتقد أن مصالح بريطانيا في خليج السويس حملت الانجليز على فعل ما فعلوا، وظن قوم أنهم اندفعوا الى تجشم تلك الخسائر الباهظة غيرة على حفظ نفوذهم السياسي و التجاري بالديار المصرية، و التأمين على استيفاء ديونهم، و هلم جرا.

تلك، لعمري، تعليقات سارت بها الجرائد رجماً بالغيب أو تمويهاً على عيون الناس.

أما أسباب الحرب الحقيقية فهي ما كان ثبت في عقول الانجليز و الفرنسيين من أن جلالة السلطان عبد الحميد قد سعى منذ تولي الخلافة و الملك في جمع كلمة المسلمين المنتشرين في أقطار الهند و أفريقية و سورية و العراق و اليمن و الحجاز و مصر، و غيرها من البلاد لكي يجعلهم عصبة مستمسكة بعروة الخلافة الوثقى، و أمة تتساند بعضها إلى بعض كالبنيان المرصوص، و أن يكون السواد الأعظم من المسلمين في يد أمير المؤمنين يستنجدهم في المللّات لمقاومة دول أوروبا إذا طمعوا في سلب بلاد المسلمين. فكان الفرنسيون يقاومون نفوذ السلطان و خلافته في

مسلمي الجزائر و تونس، مخافة أن يكون ذلك وبالاً عليهم، وكانت الانجليز تحاذر من إقنياد مسلمي الهند الى دعوى الخلافة و من الانضمام الى العصية الاسلامية. وكانت تلك الدولة القيصرية قد بلغها أن الحضرة السلطانية بعثت برجال الدين الى المسلمين ليدعوا اخوانهم الى طاعة أمير المؤمنين، و ينشروا بينهم رسائل تولد في عقولهم فروض الانقياد الى الراية النبوية إذا نشرها السلطان و دعاهم إلى التشمير عن ساق الجعد لنصرته و الجهاد في سبيل الملك و الدين.

وما زاد في طنبور الانجليز نغمة إلاّ النشرات التي كان السيد (نصرت علي) ينشرها في دهلي بايعاز السلطان، فلما أخذت مشروعات السلطان و مندوبيه تضرم نار الغيرة الدينية، و تثير الحمية الاسلامية في نفوس بعض من الهنود، اضطرت الحكومة الانجليزية بالهند إلى اتخاذ الاحتياطات اللازمة لمنع سريان تلك العدوى. و عثرت في أثناء ذلك على رسائل منتشرة بين المسلمين كانت قد طبعت في القسطنطينية بدار الطباعة الشاهانية، و أرسلت إلى الأقطار الهندية لانهاض همة المسلمين، فألقت القبض على كثيرين من الذين وجدت عندهم من تلك الرسائل و حاكمتهم، و من ذلك الوقت شرعت انجلترا تتوجس في تلك المقدمات نتائج وخيمة في ممالكها الهندية، فكملت بالمرصاد تترقب الفرصة الملائمة لتمزيق شمل تلك العصية الاسلامية التي يصفها الافرنجيون باسم (بانسلاميزم^١) و فيما كانت تضرب أخماسا في أسداس، و تقدم رجلا و تؤخر أخرى، بلغها أن الحضرة السلطانية قد باشرت تنفيذ مشروعاتها بالديار المصرية، و ضم مسلمي تلك البلاد أيضا الى العصية الاسلامية، بواسطة الشيخ محمد ظافر، والسيد أحمد سعد المدني، و بسيم بك، و راتب بك، و أحمد عرابي و أحزابه، فأصدرت الدولة البريطانية أمرها الى مندوبها بمصر بأن يستقصي حقيقة الخبر.

أما ذلك المندوب فكان بادي بدء يعتقد أن الحرب الأهلية عبارة عن عصية

عسكرية جُلُّ سعيها في اصلاح شؤونها و طرد الضباط الشرکس من مصاف
الجهادية المصرية، ولكن خيل اليه بعد ذلك أن الحضرة السلطانية قد اغتنمت من
ثروة العساكر المصرية، واتخذت عرابي باشا آلة لقضاء أغراضها، و توطيد نفوذها
في القطر المصري وضم المصريين الى العصية الاسلامية، فرغ المندوب الانجليزي
تلك الأخبار الى لورد جرانفيل، و أثبت وجود عصية دينية قد تردت برداء
عصية سياسية وطنية، تدعي تحرير الفلاحين من ربقة المرايين و الأجانب. و في
الحقيقة ليست سوى عصية اسلامية دينية تحت قيادة السلطان أمير المؤمنين
غرضها الوحيد مقاومة دول أوروبا و انهاض همة المسلمين في الهند و الجزائر
و تونس و بلاد العرب، فتداركت انجلترا العواقب، و صممت على إذلال تلك
العصية الاسلامية قبل أن يستفحل أمرها، لأن الانجليز تعتقد أن مصر باب الهند
و خليج السويس دهليزها فإن استفحل أمر عرابي باشا و حزبه لحق بهم المصريون
على اختلاف أجناسهم، و تبعهم السوريون و العرب، و أنشأوا أمة عظيمة الشأن
شديدة البأس تضر الانجليز و مستعمراتهم في الهند. فرسخ في عقول رجال السياسة
البريطانية أن منع إفشاء الوباء خير من علاجه بعد انتشاره، و صمموا على إخراج
عرابي باشا و أحزابه من الديار المصرية، إما بالحسنى و إما بالاكراه، طمعاً في إطفاء
نار الفتنة، و تمزيق شمل العصية الاسلامية المتظاهرة بشعار الوطنية، فلما آيسوا من
إخراجهم بالحسنى، عولوا على إذلالهم بالأساطيل المدرعة، و المدافع المشنة، و
الجنود البحرية و البرية، و ما انتنوا حتى فتكوا بهم في ملحمة التل الكبير، و كانت
القاضية على عرابي باشا و أحزابه، و قد ثبت في عقول كثيرين أن إذلال عرابي و
أنصاره قد أذل العصية الاسلامية إذلالاً لا عز بعده ما توالى الفرقدان.

الحق والباطل
أوتائج سياسة الانجليز في مصر

الحق والباطل

ما اختلف رأيان في أمر إلا كان أحدهما حقاً والآخر باطلاً. إن الحق أوسع الأشياء توصفاً، وأجلاها برهاناً، وأوضحها بياناً. ولقد صنف الحكماء فيه كتباً، وبينوا سنته، وذكروا شواهد، وقسموه الى أقسامه من حقوق الملل والدول والرعاة والرعايا، وشرحوا في مصنفاتهم أن الحق قوام الاجتماعات الانسانية، منزلية كانت أو مدنية، وأن مدة دوام الاجتماعات الانسانية، منزلية كانت أو مدنية، وأن مدة دوام الاجتماعات وبقاء الدول بمقدار دوام الحق فيها وبقائه، لأن بالحق يحصل التكافؤ بين القوى المجتمعة لاكتساب الأمنية والسعادة اللتين هما غاية سير الأمم في حياتهم.

فاذا حصل الانحراف عنه زال التكافؤ فاضمحل الاجتماع، ووقفت الأمم دون بلوغ غايتها.

ولو تأمل البصير في زوال الأمم الغابرة ليرى له سببا سوى الحيدان عن الحق. وإن الحق مهما كان لديه من الظهور والبروز، وسعة المجال في التواصف، أضيق الأشياء تناصفاً وتعاملاً، وأخفى الأمور عما أراد أن يسلك مسالكه، ويزن بميزانه أعماله وأفعاله، لأن الحق يكون للانسان وعليه. فاذا كان عليه فحينئذ يشاب إدراكه المتبجس من محض عقله بالحاسات الطبيعية، ويمتزج بالأوهام

الناشئة عن عاداته، فيخفي عليه محبته، ويسلك مدحض الباطل، ظناً منه أنه على الحق، غير حائد عنه، وهذا هو السبب لاختلاف الأسم في آرائهم و مسالكهم. ولا يعرف الحق بنفسه إلا من انقادت طبيعته لعقله، وأزال ناشئة العادات عن لوح ضميره، فصار عقلاً صِرفاً، يخضع لحكمه ويهتدي بنوره، لا يجد الباطل فيه سبيلاً، ولا يضل عن رشده أبداً.

و قليل من يتحقق في الانسان بهذه الصفة وان كانت حماة الحق كثيرة. أنظر الى الحزب الحر^١ في الحكومة الانكليزية كيف كانوا يحامون عن حرية الأمم، و يحثون الدول على إطلاق ربق العبودية عن الشعوب، ويدافعون عن الأيرلنديين، و يجاهرون بدمائهم الحزب المحافظ، و يذكرون شنائع أعمالهم في حرصهم على الفتوحات عند اعتراضهم عن الحكم. و كانوا ينددون على دزرائيلي في إقدامه على حرب الأفغانيين، قائلين له إن شير علي خان^٢ حر في بلاده، له أن يقبل سفير الروس و يرفض سفير الانكليز، و ليس لأحد أن يعارضه في أمره هذا، مع أنه كان لدزرائيلي أن يقيم الحجة عليهم قائلاً إن رفض شير علي لسفير الانكليز و اقتباله لسفير الروس - و قد كان مصادقاً لنا و معاهداً إيانا - دليل على اتفاقه مع الروسية، و مخالفتها، فيجب علينا أن نتدارك هذا الامر قبل ظهور نتائج الوخيمة كي لا نجلب بأيدينا مضرة على البلاد الهندية. و لما آل الأمر إليهم، و أخذوا زمام الحكم بأيديهم، ما حرروا بلاداً، و لا أعتقوا عبداً و لا أطلقوا رقاباً، بل صاروا على الأمم أشد من الحزب المحافظ، و زادوا في التحريج و التضيق و أحكموا حلق العبودية، و شددوا ربق الرقبة، و ضيقوا المجال على النفوس التي تهوى الحرية و تميل إليها. وها هو صراخ الأيرلنديين ينبك عن سيرهم في ساحة سياستهم، و سلوكهم في مذهب إدارتهم.

١. المقصود هو حزب الأحرار الذي تزعمه في ذلك الوقت غلادستون.

٢. أمير أفغانستان.

و أعجب من كل هذا أن المصريين بأجمعهم، ولا أستثني منهم أحداً، أرادوا أن يضعوا في بلادهم أساس الحرية، بتشكيل مجلس النواب، قتلصا من ربة الاستبداد الذى يستجلب الوبال على المستبد و من استبد عليه كليهما، و خرجا من مضيق العبودية التى نشأت من الأيثار و الاستيثار بلا ملاحظة المنافع و المضار، و طلبا للانخراط فى سلك الأمم المتقدمة، رجاء أن يحظوا من السعادة بما حظيت به الأمم، و اتفق معهم خديوهم لما أن رأى صدق نياتهم و إصابة رأيهم، و أن حكومته لا تقوى إلا باتفاق كلمة الأمة، وهو نتيجة المجلس الذى تسعى الأمة فى تشكيله.

و لما رأى الحزب الحر فى الحكومة الانكليزية ميل المصريين الى الحرية، و سيرهم اليها، و سعيهم فى طلب اسبابها، ماوتوا أن جبهوهم بالرد، و عارضوهم بالعنف، و دافعوهم عن الوصول اليها، و أوجبوا الشقاق بين الراعى و الراعية، علما منهم أن اتفاق كلمة المصريين لاصلاح بلادهم بالادارة الشورية^١ يصد الحكومة الانكليزية عن نجاحها فى مقاصدها المشطة، و يمنعها عن استملاك تلك الاقطار بمدخلتها الودادية، كما فعلت من قبل بالممالك الهندية. و ألقوا فى روع الخديو، و دسيسته منهم، أن هذه المساعي ليست لتأسيس الحرية و نصب دعامة المدنية، و انما هي لتغيير الحكومة و استبدالها. و ساعدهم على ذلك بعض وزرائه الذى جلب إليه الجهل العجيب بنفسه، و الاستبداد برأيه. و الخديو، لسلامة قلبه، ظن أن هؤلاء لا يريدون إلا تشييد حكومته، و لا يبتغون إلا تأسيس مباني إمارته بمقاومة المعارضين، و مصادمة المقاومين من أهل الوطن، فأصغى اليهم، و اعتمد بكله عليهم، و جاهر أعوانه الذين كانوا يسعون فى اصلاح البلاد، و نجاح العباد، و صون حكومته عن دخل الأجانب بالمقاطعة و المناوأة، فاضطر أعونه لما أن رأوا حيدانه عنهم و ميله إلى الذين لا يريدون إلا ختل المملكة، و اختلاسها من أيدي مالكيها، أن يقابلوه بما قابلهم به.

١. الصواب هو الشورية من الشورى، و لكن صحف ذلك العهد كانت ترسم الكلمة على هذا النحو مع كثير غيرها.

وبعد أن خلبوا قلب الخديو بموارباتهم، لاحظوا ما للأمة الفرنسية من الحقوق في تلك الأقطار، فعلموا أن نجاحهم في مقاصدهم لا يكون إلا باتفاقها معهم في الرأي دون العمل، فوجدوا منه مقتحما، بذل جهده في إمالة آراء الأمة اليهم، بلا تَرَوٍّ، في أن حالتها الحاضرة تمنعها من مشاركتهم في الأعمال.

ثم لما علم الحزب الحرُّ في الحكومة الانكليزية أن سهام موالسنتهم قد أصابت، جندوا الجنود، وألبوا العساكر، و ساقوهم لفتح الديار المصرية، متظاهرين بأن الغرض تأييد الخديو في حكومته، ودفعُ المفسدين الذين يريدون خلعه، وكأنهم أرادوا بسيرهم هذا أن يجعلوا جزيرة قبرس في البلاد العثمانية بمنزلة كلكتا، و خلع اسماعيل باشا و نصب توفيق باشا كخلع سراح الدولة من البنجاله و نصب مير جعفر، فيفعلوا في هذا فعلهم في البلاد الهندية. و لاغرو في ذلك فإنه قد سبقهم الى مثله أسلافهم من قبل. و إنما العَجَب أن يصدر هذا الفعل من الذين رفعوا لواء الحرية، و نادوا بأعلى صوتهم بفك رقاب الأمم عن العبودية، كأنهم عن إنزالهم ما كانوا يحامون عن حرية الأمم، إلا لأن يأخذوا زمام الحكومة بأيديهم، فجعلوا المحاماة عن الحق آلة للوصول إلى باطلهم، أو عموا عن معرفته بعدما استقروا على منصة الحكم، و استبدوا بالأمر، كما هو ذأبُ كل من لم يخلص عقله عن شوب الهوى و اتباع العادات. بل يمكن أن يقال إن هؤلاء في حرصهم على استلاب حقوق الأمم مع دعوى حماية الحرية عجزوا أن يلبسوا باطلهم بلباس الحق، و أن يقيموا دليلا سفسطيا على مداخلتهم في القطر المصري، حتى وقعوا في المتناقضات و أتوا بالمتضادات. فإنهم رأوا وجوب الحرية على المصريين لطلبهم عرض ميزانية المراقبين على مجلس النواب، مستدلين بأن هذا إجحاف بحقوق المراقبين و نقض للعهود المبرمة بين الحكومة الخديوية و بين الحكومتين الفرنسية و الانكليزية في أمر المراقبة. ثم إنهم حرصا على استملاك مصر رفعوا المراقبين بلاستشارة من الحكومة الفرنسية و لا موافقة منها، و تشبثوا فيه بأمر الخديو، و طلب شريف باشا. و لاشك أنهما لم ينطقا إلا بالقنوهما مما يؤسسون عليه أساس تملكهم.

متى كانت الحكومة الانكليزية تصفى الى الخديو و تأتمر بأوامر شريف باشا، حتى يظن أن رفع المراقبين كان منبياً على مجرد الامتثال و الانتثار لاغير؟ فياله من برهان ما أدحضه، و من دليل ما أضعفه، و من عذر ما أنكره! ثم إنهم هم الذين هتكوا حقوق الأمم، و أوجبوا العطلة في تجارتها بإقامة الحرب في ترعة السويس. و الآن، إغفالاً للدول، و تسكيناً لجأثمتها، تراهم يشكون من وقوع الخلل في التجارة أيام الحرب لشغلهم التركة بسفنهم الحربية، بأمر الخديو على حسب دعواهم، فكأنهم يشكون من أنفسهم، و يسخرون بأقوالهم هذه من عقول الأمم، و يتلاعبون بالخديو و رجاله لاستلاب ملكه.

وليت أن صدر هذا الاجحاف بحقوق المصريين عموماً، و حقوق الخديو خصوصاً، من الحزب المحافظ، حتى لا يقال أنه لا يوجد في الانكليز حزب يحامي عن الحرية، و يدافع عن حقوق الأمم. و ما تظاهر بعض رجالها بهذا الاسم إلا رياءً، و سمعة أو مكيدة منهم، حتى ينتهزوا الفرصة، و يستلبوا البلاد على حين غرة من أهلها. و دع الآن دعوى محاماة هؤلاء المجازفين عن الحرية بالباطل، حتى نتكلم في النتائج التي ترتبت على مداخله الانكليز في مصر، و ما يمكن أن يترتب عليها، فنقول إن مداخله الحكومة الانكليزية في القطر المصري أوجبت نفور مسلمي الهند عنها قاطبة، سنين كانوا أو شيعيين أو وهّابيين. و قد انتشر بينهم، و قرّ في أذهانهم إثمًا من استنباط انفسهم أو بدسائس الدول التي لها مآرب في الهند، أن غرض الحكومة الانكليزية و بغيتها الحقيقية من الاستيلاء على مصر أن تجعل هذا الاستيلاء مدّرجة لوضع اليد على الحجاز و إدخال مكة المكرمة في حوزتها. و إذا استتب لها الأمر في تلك البلاد التي هي محتد الديانة الاسلامية، و مغرس شريعة المسلمين، و ركن دينهم، فحيثئذ تهتم في إزالة هذه الديانة عن وجه الأرض. و اعتقدوا بعد دخول العساكر الانكليزية في مصر أن هذه الحكومة في فتوحاتها لاتتقن بالضرائب و الجبايات التي تقنتها من الذين تستعبدهم كالحكومة الروسية،

بل تحرص على تبديل الديانات وتكيد في تغيير الشرائع فحصل لهم قلق و اضطراب شديد، كما هي عادة الشرقيين في الحرص على صيانة ديانتهم، والخوف من وقوع الخلل فيها، وكل ينتظر نجاة، ويطلب خلاصاً، ويرى أن بقاء دينه مصوناً عن الفساد لا يكون إلاّ بيد أجنبية. وكنت عند استمرار الحرب في مصر، وأنا أسوح في الهند، لا أرى رجلاً من مسلمي هذه البلاد إلاّ قد استولى عليه الحزن والأسف و أيقن أن غرض الانكليز وضع اليد على الأراضي الحجازية.

ولقد أحكم هذه العقيدة في نفوسهم ما كتبه أثناء الحرب صاحب جريدة «أخبار عام»^١ بلاهور نقلاً عن جريدة انكليزية طلب محررها أن تسعى في إحالة الديار الاسلامية الى النصرانية، قائلاً إن مسلمي الهند ما داموا على ديانتهم لا يثقون بالحكومة الانكليزية، و يحسبونها حكومة أجنبية غير شرعية، لا يجب طاعتها و لا الاستسلام لها، فإذا ن يجب عليها أن تعطف نظرها الى هذه الديانة، وتسرع لرسوخ أساسها الى معالجة ما أوجب هذه العقيدة. وبالجملة فان الحكومة الانكليزية بمدخلتها في مصر قد ضيعت ما اكتسبته المدد الطويلة بحسن سياسة رجالها من ميل قلوب مسلمي الهند اليها وثقتهم بها، حتى لا ترى أحدا منهم في هذه الأوقات إلاّ قد أصرّ أذنيه نحو مَرّو و هراة، و شخص بصره الى عشق آباد يظن أن ديانتهم لا تصان من الخلل و الفساد بالروسين الذين بغيتهم مصادمة هذه الحكومة. ولا يخفى على المتدربين في سياسة الشرق من الانكليز ما يمكن أن يترتب على هذه الخيالات المجائلة في مخيلة مسلمي الهند. و أظن أنهم مانسوا النتائج السيئة التي نشأت في سنة ١٨٥٧ من هذه الأوهام الدينية. و هذه الظنون، على ما علمت، تمكنت من قلوب الأفغانيين و البلوجيين أيضاً، ولا أدري أَسَرَّت اليهم من الهند أو فشت منهم فيها. والظاهر أن هذه الأقاويل قد انبعثت من سمرقند و عشق آباد، و طاقت بالأفغانستان و البلوجستان، ثم ملأت أرجاء الهند، و تمكنت من قلوب

١. إحدى صحف الهند في ذلك الوقت، كانت تصدر بمدينة لاهور.

أهلها. وإن أثرها إنما يظهر عندما يتخذ الروس بلدة مرو ومعسكراتهم، وليس هذا بعيد. وعند ذلك فلا علاج. وأما ما يُنتقَى به الانكليز أنفسهم من قهر الجermanيين الروسية (روسيا) باتفاق مع النمسة فتسلم الهند من مهاجمتها، فوا أضغاث أحلام، لأن النمسة (النمسا) أحلم وأحزم من أن تصير سبباً لضعف دولة يستلزم ضعفها زوال نفسها كلية.

هذا ما يمكن أن يكون من المضرّة على الحكومة الانكليزية في آسيا. وأما في أوروبا فلا يرتاب أحد في أن أرض مصر كانت بمنزلة حق مشاع بين جميع الافرنج، يرتعون فيها ويتنعمون بنعمها. فمداخلة الانكليز تغيظ الكل، لأنهم يعدونها اجحافاً بحقوقهم، خصوصاً الأمة الفرنسية التي لها في مصر من الحقوق ما لا يمكن أن تنساه.

وإن مصر باب للشرق، ولكل دولة من الدول الغربية مأرب فيها، فإذا وضعت الحكومة الانكليزية يدها على مصر، فقد اخذت بمُخَنَقِ الكل، وضيق عليها في تجارتها وفتوحاتها. فالدول مع ما بينها من المنافسات والضغائن لا يستبعد اتفاقها، صونا لمصالحها، على معارضة هذه الحكومة في مداخلتها في أرض مصر.

وبعد هذا وذاك، إن النفوس في مصر ما قَرَّت، وإن هيجان القلوب ما همد، والفتنة ما أطفئت، والخديو ما استظهر بالحكومة الانكليزية - لما تمكن في باله من الوسوس التي ألقاها في روعه أهل الدسائس لنيل أغراضهم، إلاّ لأن يستقل بالأمر، ويصان منصبه من آفات يمكن أن تطرأ عليه من الحزب الوطني. وأما الآن، وقد انكشفت له حقيقة مظاهرة الانكليز، وظهر لديه أن كل هذه الوسوس كانت دسائس منهم للمداخلة في القطر، وتملكه باسم المراقبة والمحافظة، فلاشك أنه لا يرضى أن يصير هو السبب لمداخلة الأجانب في وطنه، وأن يجعله الانكليز آلة للتصرف في مصر فيفعل كما فعل شاه شجاع الأفغاني، لما رأى أن الانكليز يريدون أن يتخذوه وسيلة لاستملاك الأفغانستان، فطلب عظماء الأفغانيين سرا، وقال لهم

إن الانكليز قد أنشبوا أظفارهم في بلادكم، ولست أنا إلا آلة في أيديهم فأنقذوا بلادكم، وإن كان فيه هلاكي. و توفيق باشا ليس أضعف منه ديناً، ولا أقل حمية، فمن الواجب أن يقتدي به. و حينئذ لا يعدم المصريون دولة تقوم بمساعدتهم، لأنه قد أزيحت اللبسة، و ارتفعت الشبهة، و ظهرت مقاصد الحكومة الانكليزية لدى كل الدول.

١٢

شباب الاسكندرية

شباب الإسكندرية

كثيراً ما كنت أجيل أفكاري، وأردد خواطر اعتباري في أحوال الشرقيين الذين هم آلى وبنو آباءى، وسعادتى بسعادتهم، وشقائى بشقائهم، وما وصلوا إليه من رداءة الأحوال و غاية الانحطاط، والتردى فى مهاوى الشقاء، وانفتاح أفواه طمع الغربيين لالتقامهم، والتهام ما بأيديهم، وامتداد سلطتهم فى بلادهم، وكنت فى حيرة أطلب الوسائل لخلاص أهالى تلك البلاد مما هم فيه والارتفاع بهم من تلك الدركات إلى أعلى الدرجات، فكانت تعيينى الحيل، وتنقطع بين يدى الأسباب، و كان أسفى يزداد عندما أنظر ذاك المجد القديم الذى كانت تلك البلاد متوجة به، و تيجانها مكللة بفخره، وكان يأسى يغالب رجائى، وقنوطى يغالب أملى، والأولان يغلبان، إلى أن اتفق لى السفر إلى مدينة الإسكندرية من بضعة أيام، فلما وردت إليها وجدت شبانها على غاية من الفضل والكمال وكرم الأخلاق، ولطف السجايا، و شدة الشوق إلى المعالى. والتولى إلى نبيل المجد الحقيقى، و فى أسمى درجات الشغف بإحياء الوطن، وإعلاء كلمة الأمة، ورفع لواء مجدها وفخرها مع ما هم فيه من الغنى والثروة وتوفر دواعى الترف والانغماس فى النعيم وغير ذلك من الأسباب التى لو اجتمعت لشيوخ عمر ألف سنة لاجتذبتهم إلى اعتناقها، وأهسته عن النزوع لسواها فضلا عن فتیان هم فى عنفوان شبابهم، فقد غضوا أبصارهم عن جميع ما

يملكون من القصور المشيدة، والجواهر الثينة والأموال الوافرة، ولولا وجوههم نحو اكتساب الشرف وبقاء الذكر الجميل، وتعالى همهم عن أن تميل إلى اللذات الفانية، والزخارف البالية، وأخص من بينهم شبان آل بيت منشئة، وآل بيت الكونت زغيب، وآل بيت المخلع، وآل بيت قطعة، وآل بيت سرسق، وهم من قد بلغوا من المجد ذراه، ومن الفخار والفضل قصاراه، ومن حسن التربية أعلى درجاتها، ومن الهمم العلية أقصى غاياتها، فعند ذلك استظهر رجائي على يأسى، وأمل على قنوطى، وظننت بل أيقنت أن سيكون للأمة الشرقية شأن فى أقرب زمان، فليستبشر الوطن وبنوه بالظهور بعد الخمول والصعود بعد الهبوط، وبالسعادة بعد الشقاء، بل بالبعثة بعد الفناء، ولا أشك أن الشرقيين بما ينالون من نتائج مساعيهم، وما يجتنون من ثمرات جدهم واجتهادهم، سيقومون لهم تماثيل على أطلال مدينة منفيس بمصر وريوات صور وتدمر، وعلى هضاب نينوى وبابل تخليداً لأسمائهم، وتذكيراً لآثارهم ومجد آبائهم وأسلافهم.

ورجاؤنا أن يقتدى سائر الشباب الشرقيين بهؤلاء العظماء الفضلاء وأن يتخذوهم قدوة لأنفسهم كي يفوزوا مع الفائزين.



تعليق:

نشرت جريدة «مرآة الشرق» فى العدد رقم (٢٧) ما يأتى:
 إن ضيق المقام فى العدد الماضى من المرأة فوت عليها أمراً عظيماً وهو أن تشفع نبذة أستاذنا ومولانا الأجل «السيد جمال الدين» فيما شاهده من شبان الإسكندرية من علو الهمة بما يناسب المقام من الثناء على أولئك الشبان خصوصاً من خص بالذكر منهم، فإنهم أولى بثناء الجرائد الأهلية، بل أخلق بأن تشكرهم الإنسانية وبنوها على تلك الهمة التى صرفوها فى تحسين أحوال وطنهم، وتخليص بنيهم من

ورطة الانحطاط شأن الأعظم الذين علموا معنى الوطن وما هي محبته، فقاموا بما
وجب عليهم له، ولقد كان في نشر ما شاهده أستاذنا منهم باعثاً بعث في أبناء
المحروسة من الغيرة التي هي أساس الأعمال ما حملهم على أن يجاروهم، ويحذوا
حذوهم... جزا الله أولئك الشبان عن الإنسانية أحسن الجزاء، فإنهم وفوا بحث
رعايته، وقاموا بغرض خدمتها، فنثنى عليهم ثناء، كما أثنت عليهم همهم العالية.

١٣

المخاطبة بين الانسان والهرّة

المخاطبة بين الانسان والهرة

إن هرة خطفة حمامة لانسان وأكلتها. فغضب الانسان غضبا شديدا، فأخذ عصا وهجم عليها، و ضربها ضرباً أليماً وقال:

الانسان: يا أيها الحيوان الخسيس الدني الخائن.

الهرة: يا أيها الانسان، هل يليق بك أن تذكرني وتناديني بهذه الأوصاف القبيحة، إلا أن تكون متصفاً بضدّها. فانه لا يذم شخص غيره بشيء إلا اذا كان طاهرا منه، و تاركا له تماما و متصفا. و أين أمانتك و شرفك؟ و أي آثار ترتبت عليك حتى لا تكون شريفا غير خسيس ولا دنيء؟

الانسان: العجب من وقاحتك. ألا تنظرين إلى عظم الانسان كيف يأنارته قد عمّر الدنيا، و تسلط عليها، و أدخل جميع الحيوانات تحت رق عبوديته؟

الهرة: يا أيها الانسان. إنك لم تبين ما هو الشرف، وإنما افتخرت، و تمدّحت بحرصك و طمعك و ظلمك و عددك، و أنا سألتك عن الفضائل الحقيقية والصفات الجميلة.

الانسان: أيتها الهرة، أفلا تنظرين الى الانسان كيف اخترع العلوم ودونها، والصنائع وأتقنها. وإنّ في تفصيل ذلك من الأمور الدقائق ما يعجز الحيوان عن الاتيان بأصغر منه. أوليس هذا من قوة إدراكه و علو شأنه على جميع الحيوانات؟

الهرة: أعلم أيها الانسان أن مهندس الكون العظيم و منظمه قد خلق الهرة و الحيوانات غنية عن الانسان و غير مفقرة، بأن وضع فيها جميع ما تحتاج إليه في تحصيل سعادتها مدة حياتها. و ألهمها من الادراك ما تميز به ضارها و نفعها، و من الجلود ما تتقي به الحر و البرد، و من الآلات البدنية كالنياب و المخالب ما تدفع به عدوها و نحو ذلك. و أما أنت فخلقت محتاجا «فقيرا» من جميع الوجوه، فاحتجت إلى الاستعانة بالعلوم و الصنائع على تحصيل الراحة في حياتك مثل أدنى حيوان. و مع ذلك لم تصل بعد إلى الراحة المطلوبة.

الانسان: أفلا تنظرين إلى الانسان كيف وضع القوانين و النظمات، و أقام المحافظين على الحقوق لتحصيل الأمن عليها، و تنفيذ أحكام القانون، حتى يتم بذلك اطمئنان كل أحد على جميع نفسه و حقوقه. فهل يوجد في طائفة الحيوانات مثل هذه النظمات؟

الهرة: أيها الانسان، ان بيانك هذا قد دُلّني على أنكم أشرار قد جُبِلتم على الخيانة و الظلم و الغدر و العدوان و الشقاق و النفاق و جميع الشرور. من أجل هذا احتجتم الى وضع الحدود و القوانين و القيام بتنفيذها لدفع شر بعضكم عن بعض، حتى يكون لكم نوع ما من الاصلاح. و مع ذلك أين الاصلاح؟ أجبني؟

الانسان: أيها الحيوان. أنظر الى حكمة الانسان. كيف أحكم الارتباط بين أفراد، حيث جعل الملوك العظام و الوزراء و الولاة المدبرين و الرؤساء المتصرفين حتى يكون كل واحد منهم بمنزلة عقدة سلسلة لاجتماع الانسانية، حتى ينال السعادة بالتعاون. و يكون النوع كجسد واحد يشد بعضه بعضا بخلاف بقية الحيوانات فإنهم قُرُطٌ لا رابط لهم.

الهرة: أيها الانسان المشاغب المغالط السوفسطائي. إن بيانك قد أفاد أنكم أخساء أدنياء، طبعتم على حب العبودية و الرق. فإن الحرّ يستنكف أن يكون خاضعا لشخص واحد. و أنتم قد اجتهدتم لأن تصيروا عبيد العبيد. و مع ذلك، إن كباركم

هؤلاء قد تسلطوا على نفوسكم وأرواحكم يسيعونها إلى الحروب والمقاتلات، تقاسي من الاتعاب والمشقات ما لا يوصف حتى تموت في حضيض شقائها. كل ذلك في تحصيل شهوة سلطان أو فخر كبير. و تسلطوا على أموالكم التي تتحملون فيها المصاعب حتى تحصلوها، فيأخذونها منكم قهراً عنكم ليصرفوها في قضاء شهوتهم و تحصيل أغراضهم، فإن أبى أحدكم أو عجز لا يجد رقة ولا رحمة. ولكن يعامل بأشد العذاب والعقاب، حتى إنهم يجردونكم من جميع ثمرات أتعابكم. فإن أبقوا لكم نعمة فما ذاك إلا لتأكلوا و تسمنوا لتصيروا أقوياء، حتى يستعملوكم في خدمتهم و يتسلطوا على أعراضكم... فيهلكون حرمتها إن شاءوا. أفبهذا تفتخر؟ بنس الافتخار!

الانسان: أيتها الهرة، أفما سمعت أن مدبر الكون قد شرف الانسان بالأنبياء والرسل الكرام العظاء الذين هم فخر الوجود بأسره؟ أيليق المجدال بعد ذلك في شرفه على جميع الأنواع؟

الهررة: آمنت و صدقت بشرفه و علو مقامه. ولكن يا أيها الأشقياء، أين إيمانكم بهؤلاء العظاء؟ و أين إيتباعكم لشرائعهم و اقتداؤكم بهم في مزاياهم و فضائلهم؟ إنهم بعد ما جاءوكم لم تزدادوا إلا طغيانا و فسقا و عدوانا. وقد نبذتم ما أتوا به من الحق وراء ظهوركم، ولم تشكروا نعمة الله عليكم ببعثة هؤلاء العظاء المقدسين فيكم لكي يرشدوكم الى طرق خيركم. مع هذا إنك تعلم أن صحيح المزاج لا يحتاج إلى الطبيب. فاحتياجكم الى المرشد هو دليل على تمكن المرض من نفوسكم. فكانكم قُطِرْتُمْ على المرض، إلا أنكم لا تحسون بألمه. فكيف العلاج؟ فالك لا تقيم دليلاً إلا و يكون مفضحاً لك؟

الانسان: أيتها المتمشدة الخسيسة، إنك بهذه الشقشقة قد أخرجتني عن الموضوع. أنتِ لمَ خطفت حمامتي، وبأي وجه ختتيني في مالي؟ الهرة: أيها الانسان المُعجب المتكبر الجهول. أقول لك أولاً إنه لا يليق بك، ولا

بنوعك، أن تنسبني الى الخيانة، مع أن مدبر الكون قد أباح لي أن آخذ من العالم ما يسد رمقي، ويدفع حاجتي بأي طريق كان. أمّا أنتم فكل واحد منكم ينتهز الفرصة لأخذ ما يبيد الآخر. وكل قوي منكم يسلب أموال الضعيف. وينفقها في القصور المشيدة والألبسة الفاخرة والأطعمة الشهية، وما يشبه ذلك من اللذات التي لا حاجة به إليها، وإنما يحصلها بطراً وازدراء. وأن أحدكم لا يكتفي بقرينته التي اختص بها. بل يطلب امرأة جاره و صديقه، و يخونه فيها. وقد اتخذتم الكذب والنفاق آلة لتحصيل مآربكم، حتى إنّ الوالد يخون ولده والولد يخون أباه، والأخ يخون أخاه. وتظهرون المحبة والصفاء، وتعلنون الوفاء والأمانة، وتضمرون الغدر والخيانة، تحلفون وتحنثون، و تعاهدون وتنقضون، و تعدون وتخلفون، لا يرى أحدكم راحة من أخيه لمحبة. بل على توالي اللحظات يحذر سوء أخوانه، و يتوقع منهم الشر. و ثانيا قد نُسِبتُ الى الخسة والدناءة، مع أنني و من يشاركني في نوعي جُبُلْنَا على عزة النفس والشرف وارتفاع الهمة. لا يرضى أحدنا أن يدخل تحت الرق، و أن يحني الظهر الى العبودية. ألا ترى أن أضعفنا لو هجمت عليه الألوف بالسيوف، وراموا إزالاله و خذله، و حصروه، و سدوا عليه طرق الفرار، و تقطعت أسباب خلاصه، ولم يبق له إلا سبيل الموت فإنه يجمع قوته، و يصل صولة الأسود والنمور. و مع صغر جسمه و ضعف قوته يهجم على عدوه فيضرب هذا و يعض ذاك، إلى أن يموت بعزة و شرف، و يختار الموت الشريف على الحياة الدنية. و أما أنت أيها الانسان، و من يشاركك في نوعك، فقد طبعتم على الذل و على الانكسار، و جُبُلْتُمْ على الحقارة والهوان. فإني أرى أن رجلاً واحداً منكم يظلم صالحكم، و عالمكم، و جاهلكم، و غنيكم، و فقيركم، و ضعيفكم، و جبانكم، و شريفكم، و وضعيكم، و ذليلكم، و غيبكم، و زارعكم، و صانعكم، و تجاركم، و عمالكم، و أرباب سيفكم، و أصحاب قلمكم، و يستصغروهم، و يستحقروهم، و يضيع حقوقهم، و يهتك أعراضهم، و يسلب أموالهم، و يتصرف في أرواحهم و أبدانهم، و

يستخدمهم شهورا و أعواما، و لا يعطيهم مالا يحفظون به حياتهم من القوت الضروري واللباس الكافي، و ما يتعلق بذلك. بل تراهم في أدنى الضروريات، مع أن الانسان اذا كان عنده ثور أو «حمار» يقضي عليه عمله، لا يجد مفرأ من أن يطعمه و يسقيه و يأتي اليه بجميع لوازمه. و أنتم عند ذاك الرجل أدنى و أحقر من الحيوانات، لا ينظر اليكم نظرة راضٍ، و لا يكافيء أعمالكم الشاقة و أتعابكم الدائمة بشيء، حتى إنه لا يراضيكم بكلمة معروف و لا حمد و لا شكر. و لا يلاقيكم بالترحاب و البشاشة، و لا يقطب جروح آلامكم بإظهار المنونية.

و مع ذلك لا تزدادون الا خضوعاً له و طاعة لأمره، و وقوفاً بين يدي إرادته. أفلا تنتظرياً أيها الانسان الغشوم الى الأماكن التي خصصت لمنفاكم، سبيرياً أرض الزمهرير كيف جعلها محلا لنفي أبريائكم الذين لا جنانية لهم؟ أولا تنظر الى الالوف منكم و قد سيقت لمجزرة الرجال بآسيا و أوروبا و ماتت بالظماً. أولا تنظر ما فعله الصينيون بصلحائكم و أتقيائكم بأرض كاشغره؟ فيم إذا نفعتكم علومكم أيها العلماء، و أفادتكم آدابكم أيها الأدباء؟ و ماذا صنعتكم بتدبيركم و تفكيركم أيها الحكماء؟ و ما الذي عاد عليكم من قوتكم و شجاعتكم أيها الأقوياء؟ و أي شيء دفعته عنكم سيوفكم و خيولكم أيها الفرسان و المدربون على الحروب و المتعودون على غوائلها، الذين قد أعددتهم أنفسكم لمصارعة الموت و تهيأتم لمعاناته، فتعسا لكم من نوع خسيس دنيء ذليل رذيل!

إن حياته عناء، و سعادته شقاء، و حريته عبودية، و عزته ذلة، و رفعتة حطة، و علوه خسة و دناءة، و شجاعته جبن، و جرأته خوف، و فخاره مسكنة (فخرس الانسان الكاتب).

و لما رأيت حجة الهرة رميت القلم و كسرتة، و طرحت المحبرة، و قطعت العهد منها، و قلت مادام الانسان بهذه الحالة الردية، فهو أردأ و أسوأ حالا من جميع الحيوانات.

١٤

منافع الوفاق

و

مضار الشقاق

منافع الوفاق و مضار الشقاق

إن للأمم صعودا و نزولا. و إنما في ارتفاعها و انخفاضها تتناوبها السعادة و الشقاوة، و تعتورها العزة و المسكنة. ما يطمع بصرها إلى ذرى المجد الأ و ترى نفسها في حضيض المذلة، و ما تشيم سيوف القهر إلا و تجندل بها، و ما تمديدها لفتح الممالك إلا و تنهب دورها، و تنصب بلادها، و تستعبد رجالها. إن الفارس (فارس) الأولى تقلص ظلها بعد بسطة الملك بفتوحات اسكندر اليوناني، و انقرضت السلطنة اليونانية الفسيحة بأيدي الرومانيين، و أباد العرب المملكة الساسانية الراسخة، و جدّعوا أنف الروم. و استولى محمود الغزنوي على البلاد الهندية الواسعة بهجمات المتتالية، و جعل كلمة الاسلام عالية بقهر الوثنيين، و إزالة دولة برهما، و جتّ هلاكوخان شجرة الخلافة العربية التي وشجت عروقها، و امتدت فروعها شرقا و غربا. و فتح العثمانيون مدينة قسطنطينية، و أخنوا على الروم و اليونان، و دوخوا بلادهم. و قام بعد هؤلاء أقوام تفتح البلاد، و تقهر العباد. و لقد كانت أسماؤها مطوية في طومار الدهر من قبل. أليس لهذه التبديلات من علل؟ أفلا توجد لهذه الحوادث مقتضيات؟ أفلا تكون لمقتضياتها معدات؟ بلى. إن الحوادث في عدمها تفتقر الى علل افتقارها اليها في وجودها، و إن عللها مسببة عن مقتضيات تعدها للوجود، و تجعلها أن تستتبع معلولاتها.

و ليست أسباب هبوط الأمم، و عروجها، طلوع نجم، و أفول كوكب كما ذهب اليه البعض. وليس جَزُرُ قوتها. ومد سلطتها مسببين عن الأسباب الطبيعية، لأننا نرى أنما كثيرة شبت بعدما شابت، و بعثت بعدما ماتت، و صارت عظاما نخرة. والأسباب الطبيعية لا تحيد عن سننها ولا تقف عن سيرها، ولا تعثرها التبديلات، ولا يصدها عن مسالكها اختلاف الحركات. ها هي الأمة الايطالية أمامك فأنظر إليها يظهر لك صدق مقالي. ولا تنفض النظر عن أسبانيا متدبرا فيما كانت عليه، معتبرا فيما آلت اليه. و إن الأمم، ما صعدت إلا بنفسها، و ما هبطت إلا من نفسها، وفيها سعادتها و منها شقاوتها. و إنها هي السبب الموجب لضعف قوتها، و رفع سلطتها و خراب بلادها. و إنها هي التي تجعل نفسها بنفسها عبيدا أذلاء للأجانب، يحكمون فيها كيفما شاءوا، و يستعملونها في منافعهم بما أرادوا. إن الانسان بجبلته لا يسعى إلا إلى سعادته، ولا يدأب إلا لجلب الخير الى نفسه، و دفع الشر عنها، حيث أنه المتصرف في عالمه، و بيده سعادته و شقاوته، فما الذي يهوى به الى مهواة الشقاء و يقوده الى الهلاك؟ و ما الذي يعوقه عن النجاة، و يمنعه من الخروج من الورطات، و لو نسبنا شقاوة انسان الى القوة القاسرة، و عزونا حرمانه الى المزاحمات التي قلما يخلو عنها الانسان في سيره في مسالك سعادته، فما الذي يمكننا أن نقيمه دليلا على انحطاط أمة قاومت الدول القديمة و غالبت الأمم العظيمة، و فتحت البلاد، و قهرت العباد؟ و ما السبب الذي يوجب ترعرع أمة، و هي لقلة العَدَد فاقدة العِدَد، و يجعل لها يدا عالية و قوة القاهرة؟ هنا يلزم السُّبُر والدوران.

إن الأمة العربية (في) صدر الاسلام ما كان عددها يزيد عن المليونين. و إنها مع الفقر المدقع وقتئذ، و خلوها عن العلوم والصنائع قد أرغمت الأكاسرة و دمغت القياصرة. و الآن بلغ عددها ٣٠ مليونا و هي قاصرة عن إدارة نفسها عاجزة عن صيانة بلادها.

إن العثمانيين، مع قلة العدد، قد أرعدوا الدول الغربية، وأذلوا الجبابرة. و تراهم من نصف قرن، مع سعة بلادهم، وكثرة رجالهم، يسترحمون ملوك الافرنج، ويمحتمون بهم، و يزعمون أن لاهياة لهم على البسيطة إلا ٣٣.

و إذا رجع البصير الى نور بصيرته، أفما يحكم بأن هاتين الأمتين قد فقدتا الآن أمرا كان هو السبب لعلو شأنها وبسطة سلطتها و رفيع منزلتها؟ فيجب علينا أن نسبر حركاتها الفكرية و أخلاقها النفسانية، حتى نقدر أن نجد الأسباب الحقيقية التي أوجب وجودها جلب علو كلمتها و انعدامها أوجب انحطاطها، فنقول:

لا يمكن أن تنال أمة من الأمم سعادة ما إلا بالتتام آحادها التتام أعضاء الجسد بعضها ببعض. ولا يحصل لها علو الكلمة، وبسطة الملك إلا أن تصير مسالك حركات أفرادها كأنصاف الدائرة منتهية إلى نقطة سعادة الكل، غير خارجة عن محيط الجنسية، و أن يلاحظ كل منها منفعة الكل أولا و بالذات، و ينظر الى منفعة نفسه ثانيا و بالعرض، حتى يكون خير الكل كينبوع تتشعب منه جداول خيرات الآحاد. و حينئذ يجذب كل الآخر عند دفعه إياه، و يقبل عليه عند إعراضه عنه، فيرتفع الشقاق و يزول النفاق و تعتدل الاخلاق، لأن كلا يعلم إذ ذاك أن الآخر لا يسعى إلا له ولا يدأب إلا في إيصال المنفعة اليه. وليس له أن ينال الخير إلا به، فهو بمنزلة نفسه، و منه سعادته، و به يزود الشر، فيحبه محبة ذاته و يعامله معاملة نفسه. وإذا بلغ كل مع الآخر إلى هذه المنزلة من الالتتام، فلا يمكن أن يتحقق في الأمة فساد الأخلاق، لأن منشأ الأخلاق الرذيلة المزاحمة في المنافع، و المنازعة فيها. فن ذا الذي يوالس الساعي في خيراته، و من يغش الباعث على سعادته، و من يخون قوام حياته؟ و لهذا تلتئم الأفكار، و تتحد الآراء، و تأتلف الأهواء، و تترادف الأيدي، و تتناصر السيوف، و تجتمع القوى، فتصير الأمة التي حازت هذه الدرجة من

الوحدة مقومة في نفسها، متمكنة من صيانة حوزتها، قديرة على قهر الأمم التي تغالبها، كما وقع للعثمانيين وللأمة العربية من قبل.

و كَوْنُ كل من أحاد هذه الأمة المتلبسة بالوحدة ناظراً الى ما يجلب الخير والسعادة الى الكل، يبعث كلا على الأفعال الشريفة التي يستفيد من نتائجها مجموع الأمة فتكثر بينها الصنائع النافعة، و تنتشر العلوم الحقيقية والمعارف الصادقة، وترتقي بها إلى ذروة المدنية، وأوج المجد، متمتعة بثروتها، متنعة بثمار مساعيها، يحف بها الأمن و تكتنفها الرفاهية، وهي تسود ولا تساد، ولا تضرب دون نفاذ مقاصدها الأسداد، كالأمة العربية في الأزمان السابقة.

ولما ظهر أن علة صعود الأمم هي اتفاق الكلمة والاتحاد التام بين أفرادها، عُلِمَ أن سبب النزول (هو) التفرُّقُ وعدم الاتحاد، وعن تفرق الكلمة ينظر كل إلى نفسه، و يسمى لمنفعة شخصه، فتختلف جهات حركات الآحاد، و تتفاير مسالك المنافع فيكثر النفاق، و يزيد الشقاق، و يروج سوق الحياة والكذب والافتراء، و تتمكن العداوة والبغضاء، و تتشتت الآراء، و تتنافر القلوب، و تتفلق الآحاد، و يستولى الكسل، و تغلب الجبانة و تحصل الوحشة فتضعف الهمم و تقنط النفوس. و حينئذ تندثر العلوم، و تندرس المعارف، و تنطمس مسالك النجاة، و تخفى محجة الحق، فتعطب الأمة عن ذروتها و تتناثر طبقاتها، و تتلاشى أعضاؤها، و تنحل عقدها، فلا يمكنها أن تسوس نفسها، ولا تقدر أن تذود عن حوزتها، فتصبح مملوكة، بعد ما كانت مالكة، تخضع لكل قاهر، و تنقاد لكل أمر.

ولقد أوجب هذا التفرق انقسام السلطنة العربية أولاً و اضمحلالها ثانياً. و قد كانت ممتدة الى جبال بريني^١ و شعاب هيمالايا. والسلطنة التيمورية العظيمة في الهند ما زالت إلا بهذا السبب بعينه. و إن ضعف العثمانيين في هذه الأيام ما نشأ إلا عن

١. جبال بريني: جبال البرانس في شمال اسبانيا و جنوب فرنسا.

تزعزع أركان الاتفاق الحقيقي بينهم. نعم، إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

و نحن نكتب فيما بعد مقالة نبين فيها الأسباب التي يمكن بها إيجاد الاتفاق وإعادة تده بعد زواله و نشرع الباعث على حصول الخلل منه والموجب لاضمحلاله. لعل الله يهدي بها من يشاء من عباده.

١٥

الانجليز في الهند و مصر

الانجليز في الهند و مصر

إن من تتبع حركات الانكليز في السنين الأخيرة رأى أنهم يهتمون مزيد الاهتمام بالاستيلاء على جميع الطرق المؤدية الى البلاد الهندية. فقد حاولوا منذ مدة أن يضبطوا مضائق أفغانستان و بلوجستان. و هم الآن يريدون البقاء في مصر والتسلط عليها.

و سبب إتباعهم هذه السياسة حرصهم على ممالكهم الهندية، و خوفهم أن تنتزع من أيديهم في زمن ربما كان قريبا. و ماوقع في روعهم من هذا الخوف بعثهم على نهج مسلك يصادمون فيه أمما أخرى، و التمسك بمقاصد و مطامع تذهل رجال السياسة و تهيج الغيرة في صدور الدول.

و ان الانكليز يعلمون لاحالة أن سكان الهند على اختلاف أجناسهم، و تباين مذاهبهم، و تفاوت مراتبهم، يكرهون ظلمهم كرها شديدا، و إن صوت مدفع قريب في إحدى جهات سواحلهم، أو في بعض أنحاء تخومهم يكفي لاثارة حرب عمومية تمتد ناراها من سيلان الى أحصنة هملايا.

و إنهم لا يجهلون ضعف سلطتهم و وهن قوتهم، و قد تحققوا عدوان رعييتهم الهندية، و تأكدوا من عدم كفاءة عساكرهم في أوقات الحاجة، و لذلك صاروا يريدون إفرااد الهند، و عزلها عن سائر العالم، بأن يضرّبوا حولها شبه سور من الموانع

التي يلقونها في سبيل السياح من أي أمة كانوا، مخافة أن يكشف الأجانب سر ضعفهم المحجوب بستار قوة ظاهرية. ومع أن جهدهم مبذول في حفظ ملكهم المترجرج، لم يتخذوا من الوسائل السديدة ما يقوي شوكتهم، ويوطد دولتهم، اذ ليس من عادتهم أن يوالوا الأمم و يستميلوا الشعوب، بل دأبهم غيظها والاساءة اليها، والاعتداء على حقوقها والاستخفاف بمصالحها. ألا ترى أنهم ملكوا الهند منذ مائة سنة ونيف، و أن الهنود صاروا من تَمَّ عبيدا محرومين من حقوق الانسانية، لا ينالون مرتبة حربية ولا منصبا سياسيا. وقد فقدوا حرية الضمير، وهي أشرف الحريات و أقدسها. وكان الواجب على الانكليز أن يخففوا الضرائب، و يقللوا المكوس، كي يبقى للأهالي بعد أداء الرسوم شيء من ثمة أتعابهم ينفقونه في حاجاتهم و تحسين أوقاتهم اليومية، فما التفتوا الى ذلك، بل عطلوا تجارة الهند و شلوا صناعتها، بما يقذفون اليها من مصنوعاتهم الأوربية، و قطعوا الاتصالات بينها و بين جيرانها الأفغان، بحرب جائرة شهروها عليهم بغيا و عدوانا، فكسبوا منها وبالأ و خسرانا.

وقد نشأ عن هذه الحرب التي ركب فيها المعتدون متن الشطط والغواية أن الأفغان صاروا أعداء ألداء للانكليز، و حالفوا الدولة الروسية على التناصر و التآزر حين تجيء الساعة.

وإذ حبط سعيهم في أفغانستان، و أخذهم الحسد الشديد من حلول الفرنسيين في تونس، و شعروا بتفاقم كره الهندين لهم و ميلهم الى اعانة أي دولة تريد مغالبتهم على أجل أملاكهم الآسيوية، وقع في قلوبهم خوف شديد أعمى بصائرهم عن الهدى فارتكبوا غلطا جديدا ترتبت عليه نتيجتان لا بد أن تضراهم في الاستقبال. و أما الغلط فهو تداخلهم في مصر بالمكر والاحتيال و هما سلاحهم القوي في جميع الأحوال، و اضمارهم مد سلطتهم الى عبر البحر الأحمر و انشاب أظافرهم في ولايتي اليمن و الحجاز.

والنتيجة الأولى التي جرّها تدخلهم في مصر أنهم غاظوا كثيرا من الأمم الأوربية، ولا سيما فرنسا. فإن لها في وادي النيل مصالح لا ريب في أهميتها، ولا خلاف في سابقيتها. ولو تبصروا لعلموا، مع ما هم عليه من الاغترار بقوتهم، أنَّ صداقة الأمة الفرنسية ضرورية لهم في ما عسى أن يطرأ على الشرق من الحوادث الجسيمة، والانقلابات الفعلية، حال كون فرنسا تستغنى عن ودادهم ولا تفتقر الى ولائهم، فلا جرم أن الاساءة اليها غلطة من أعظم الغلطات التي وقع بها كبير وزرائهم.

والنتيجة الثانية التي تضر بانكلترا أيضا هي أن تداخلها الشنيع في مصر أوجب مزيد الغضب للمسلمين عموما، ولمسلمي الهند خصوصا. ولا يخفى أن مسلمي الهند يحترمون سلطان العثمانيين، ويغارون على ممالكه، ويدعون له في جوامعهم. فلما دخل الانكليز البلاد المصرية حدثت ثورة خفيفة في ميريت فأخمدوها بما أشاعوا من أنهم لم يتصدوا لقتال عرابي إلا لعصيانه، ولا دخلوا مصر إلا طاعة لأوامر السلطان.

ولولا هذا الخداع لانتشرت الثورة في جميع الهند الاسلامية غير أن الرجوع إلى مثله في الاستقبال يكون خاليا من الفائدة، عاريا عن النفع، خصوصا إذا تأكد الترك أن انكلترا تريد استملاك مصر، وهي أهم أملاكهم الافريقية، بقصد أن تستولى فيما بعد على الحجاز واليمن. وذلك لأن حصول مثل هذا اليقين في أذهان العثمانيين، مع اعتقادهم ميل مسلمي الهند إليهم يبعثهم على تأييد سياسة الدولة العظيمة الطامحة الى الأقطار الهندية، وإن لم يكن لهم فيه منفعة حقيقية، لأن قلوبهم تتشقى من غيظها بكبح أمة تحاول تقسيم بلادهم. ومحافل السياسة في انكلترا تعلم أن التماذي في الاعتداء على حقوق السلطان يسوقه الى مظاهرة خصومهم في الهند. وحسبه في ذلك أن يغري علماء مكة المكرمة بالحث على مناوأتهم والخروج عن طاعتهم، أو أن يبيث الى الهندين رسلا يدعونهم الى نبذ نيرهم والتخلص من ربقهم.

ولو صرفنا النظر عما عسى أن ينهج الترك في الاستقبال من المسالك السياسية، لوجدنا مجرد حلول الانكليز في مصر، مع ما أضرموا من بسط سلطتهم على الحجاز واليمن، مهد الاسلام و حصنه الحصين، سببا كافيا لحمل المسلمين في الهند على إعانة كل دولة قصدت بلادهم محاربة الانكليز.

و من الخطأ المبين أن يتكل الانكليز على مساعدة الطوائف غير الاسلامية، لأن مظالمهم شملت سكان الهند جميعا. فإذا جاء يوم المحاسبة، و حان وقت المطالبة، يشترك الكل في العمل اشتراكهم في الذل المضروب عليهم، و يتفقون على فك سلاسل أسرهم اتفاقهم على بغض ظلمهم. و شواهد ذلك كثيرة أجتزىء منها بأن ناناً صاحب^١، و هو من غير المسلمين، جاهر الانكليز سنة ١٨٥٧، بعداوة شديدة أشد من العداوة التي لقوها من فيروز شاه و بكم صاحب^٢.

و ربما شك قوم في ائتلاف الطوائف الهندية، و ميلها الى التعاون و التضافر لجهلهم سير الانكليز في حكم الهند و معاملة أهلها و سلب ثروتها. و لذلك سأكتب مقالات يزول بها الريب، و يحصل اليقين.

١. أحد أمراء الهند و قواد ثورتها على الانكليز سنة ١٨٥٧.

٢. من زعماء حركة العصيان الهندي ضد الانكليز.

١٦

المسألة الهندية

المسألة الهندية

اكسبني الاطلاع على جريدتكم، علماً برغبتكم في البحث عن دقائق السياسة في البلاد الشرقية وإقدامكم على نشر ما تقفون عليه منها، خدمة لأوطانكم وتأييداً لاعتدال سيركم وهذا ما بعثني أن أكتب اليكم بعض ما وصل إليّ في مسألة من أهم المسائل المنظور فيها لهذا الوقت وهي المسألة الهندية، وربما ترون من المفيد نشر ما أقدم لكم من ذلك.

كأنني بالحال في بلاد الهند وقد اشبهت الحال في كثير من البلاد الشرقية عندما تضطرب راسياتها، وتهتز ثوابتها، وتتنفس صوامتها، اعداداً لزلزال يوجب الانقلاب فيها، غير أن المؤلف في تلك الاحوال أن تكون متالف الانقلاب ومضاره مهلكة للشرقي لتساهله وسوء تصرفه، وفوائده وثمراته غنيمة للأوربي لحزمه وتجويد الرأي فيما يفعله. والمنتظر في الهند على خلاف المؤلف فقد تسقط بتبدل الاحوال فيه دولة من أعظم الدول الاوربية. وأخذتها في السياسة الخارجية، وتنهض دولة أو دول شرقية تعضدها دولة أوربية، هذا ما تفرق به هذه المسألة عن سائر المسائل.

لا يفوتكم العلم بأن البلاد الهندية على سعتها تسكنها طوائف مختلفة تتباين في العقائد والاخلاق حتى يخيل للنظر في أطوارها أنها اجناس متباينة، غير أن هذا

الاختلاف قلما كان يظهر أثره في الروابط السياسية اذا تولت طائفة منهم أمر الحكومة في باقيها مادامت خصائص الطوائف محفوظة. ولما دالت الدولة للانكليز فيهم سكنوا اليها زمناً ثم نبذتها طباعهم فهموا بالتملص منها فلم يمنعهم الاختلاف الفكري والديني من الاجتماع تحت لواء الجنسية العامة و حملوا بغارة واحدة على الانكليز في سنة ١٨٥٧ غير أنهم لم يوفقوا للنجاح فيما هموا به، بل ظفرت بهم الدولة الحاكمة.

ومن ذلك الوقت أخذت الدولة الانكليزية حذرهما فرفعت بناء سياستها على أساسين الأول توليد الشقاق بين الطوائف وإيغار صدور كل طائفة من الاخرى وآلتها في ذلك أصل الخلاف الموجود بينهم وأدركت بعض النجاح في سعيها هذا وظهر بعض أثره في بلاد البنجاله بين الوثنيين وبين المسلمين، وفي أواسط الهند بين الطوائف الوثنية بعضها مع بعض. والاساس الثاني سد نوافذ الاخبار عن الهندين قاطبة حتى لا يقفوا على المشاكل السياسية والورطات الحربية التي تقع فيها انكلترا، ولا تكون بينهم وبين الأوربيين صلة سياسية يلجأون اليها اذا هموا بمثل عملهم السابق، ولا يطرق آذانهم صيحة من صيحات الحوادث التي تنبههم لطلب حال خير مما هم فيه. قطعتم عن العالم فهم بمعزل عن معرفة شيء من أحواله ليستمر بهم الاذعان بأن لا قوة إلا بانكلترا، ولا ملجأ منها إلا اليها، ولا حيلة في الادبار عنها إلا الاقبال عليها، ولا شفيع من جورها إلا جبروتها الأعلى. وهذه أحكم سياسة يقوم بها سلطان الغالب على المغلوب، وليس في نظر العقلاء أجود منها لولا تصاريف القدرة الالهية مما لا يطاوله بناء، ولا يعاجله دهاء.

وي انتقض الأساس الثاني فانصدع له ركن عظيم من قوة الدولة. لم يكن في حسابان أحد من حكام الهند ان يزحف جيش الروس على حدود الافغان، بل كانوا في غرة الأمن من وقوع مثله، فاذا الحادث فاجأهم فطار طائر الأخبار بغتة حتى جثم على قم حبال الهند، وصاح بالخبر المفزع فلم يبق هندي إلا وبلغ منه الخبر

حد اليقين، فذلك قد أعجل الدولة عن التدبير في كتانه، فتراجعت العقول من غيبتها، وانطلقت الآمال من محابسها، وخيل للنفوس أن المعارك أصبحت على حدود بلاد الهند.

علم ذوو الرأي من أهل الهند أن دولة أوربية شديدة البأس سامية القوة ستصبح جارة لهم ولها من المصلحة في بلادهم ما يضارع مصلحة الدولة الحاكمة، فلو تقربوا منها شبراً لتقربت منهم ذراعاً. ومذاهب المتغلبين في السيادة على المغلوبين وإن كانت مشابهة إلا أن من أحكام العادة أن يكون في سيرة الجديد لين إلى أمد حتى يتمكن من السلطة، ويكون من أحوال البلاد على خبرة، فلهم في تقليب الحال متنفس. بل تعالت أفكارهم إلى أسمى من ذلك فظنوا أن لاطاقة الروسية لو تقدمت إلى الهند أن تضبطها بقوة السلاح دفعة واحدة، فمن المحتوم عليها أول العمل أن تعيد الملك لطلابه من أهالي البلاد وتقدمهم بالمعونة على سالبه منهم لتكون البلاد عوناً لها على بلوغ غايتها من فتح أبواب التجارة الهندية لأبناء جلدتها، ثم إن شاءت بعد ذلك غالبتهم، وفي هذا متاع من الاستقلال إلى حين، وفسحة من الزمان ربما تمكنهم من صون ما يصل إليهم. هذا ما يرتفع إليه الخبال في رؤس الهنديين على اختلاف طوائفهم ولا أظنهم يخطئون فيما يظنون، ولا تجد طائفة منهم عوناً على ما تؤمل إلا في الاتحاد مع الأخرى.

وقد ضعف الأساس الأول فيوشك أن يتضعع البناء. همدت نيران الضغائن التي كان يسعها الحكماء في البنجالة بين المسلمين والوثنيين، وبعد أن كانوا متدابرين يذهب كل منهم إلى حيث لا يلتقي مع الآخر أبد الأبد، انعطفت كل في سيره إلى ما يقارب الآخر فلا يميض كثير من الزمن إلا وقد عادوا متقابلين.

لا يفتر الحكماء عن امداد اللهب بوقود الفتن كأنهم خلفاء الفرس الاقدمين في عبادة النار إلا أن الآمال المقبلة تصب عليها ماء بارداً فلا تلبث أن تصير برداً وسلاماً. قبائل (المرتة) في أواسط الهند هزت مناكبها نحو مطلوبها القديم هذه من

أقوى قبائل الهند وأشدّها تمسكاً بعوائدها وأحرصها على الاستقلال. أرغموا من زمن على الدخول تحت السلطة الانكليزية، ولكنهم لم يؤدوا من رسوم الطاعة شيئاً سوى الخراج، فقد تحالفت هذه القبائل على وفرة عددها أن لا ترفع من أمرها شيئاً جزئياً كان أو كلياً إلى حاكم انكليزي، واتفقت على أن يكون تدبير شؤونها مفوضاً لرجال منها ينتخبون بالاقتراع، وما كان عاماً من شؤونها خصته بمجلس عام يشبه مجالس النواب في البلاد المتقدمة، وما كان خاصاً كالفضل في الخصومات جنائية كانت أو قضائية ناطته بقضاة منها لا ينازع في حكمهم، ولا يدافعون في قضائهم، ولو أن مرتباً رفع أمره في خصومة إلى القاضي الانكليزي لأعدموه حياته وذهب دمه هدرأ لا يطالب به أحد. كل ذلك ولا يستطيع حاكم من حكام الانكليز أن يقف على شيء من أحوالهم الداخلية. بل حرموا على أنفسهم الانتفاع بشيء من مصنوعات أوروبا وثبتوا على صنائعهم وروجوها بينهم، وبذلوا الجهد في ترقيتها حتى صار لهم من الصنائع ما يشبه صنائع الاوربيين في كل نوع، ولا يوجد في بيت واحد منهم أو على بدنه مصنوع إلا من عمل أيديهم.

فهذه القبائل الرفيعة الهمة الآيية النفس أخذت الالهة في هذه الأيام لما أعده لها استعدادها. ولست بالواهم إن قلت بتواتر رسلها وكتبها إلى الحدود الشمالية لتجاذب حبال الصلة بينها وبين رؤساء المنفذين في زعمها.

حكومة حيدرآباد ملّت سيطرة الانكليز عليها، ونظرت إلى قوتها العسكرية و اجتماع رعاياها على بغض المتحكمين في شأنها، الآخذين على يديها، وجاءها خبر الزحف الروسي، فشدد عزيمتها، وزاد في حرصها على الخلاص من عنف السيطرة الانكليزية، و قبائل (السيك) في بنجاب من شمال الهند شمروا للخوض في لمج الفتنة متى اشتبكت حرب في بلاد الأفغان، ليعيدوا مجدهم الأول، و يأخذوا بالحق لأنفسهم ممن أباح دماءهم، و فتك بأشرافهم. و لم يمض على ذلك الزمن الطويل فينسى، و لم يأبهم عوض عما فقدوا فيتسلوا عنه.

أحست حكومة الهند بمبادئ الاضطراب، فأخذت الطرق على كل سائر إلى جهة الشمال، منعاً للمواصلات بين الهنديين و الروس، ومنعت تجار الأفغانيين من الجولان في البلاد الهندية، و صدّت كل عربي يدخل إلى الهند من الشخصوس إلى حيدرآباد لكثرة أبناء العرب فيها، واشتدّت في التضييق على كل طارق غريب يرد إلى أرض الهند، و على كل وطني يصل إلى الحدود الشمالية، وأخرست الجرائد عن التكلم في حوادث التقدم الروسي، وأنطقتها قهراً بما يغشي وجه الحقيقة، و يصرف الأفكار عما شغلت به من أعداد العدد و تحويل مراكز الجند، وحشد الجيوش، و توفير الذخائر في مواقع المخافة، و أرسلت عيونها على موارد البريد، و رسمت بفتح المغلقات، و أخذت بكل احتياط. و مع هذا كله ضاقت سلطة الحكومة عن سد أبواب الهند المفتوحة، و قطع طرقها الواسعة، و تسوير حدودها الممتدة. فالأخبار بين أمراء الهند و بين الروسية متواصلة، و قد علم رجال الحكومة أن الحال في هذه الأزمان الأخيرة غيرها في سنة ١٨٥٧ حيث أمكن للحكام في تلك الأوقات كتمان سر الفتنة عند اشتباكهم في الحرب مع دولة ايران، و كتمان خبر الحرب عن رؤساء، الفتنة، حتى تمّ الأمر للحكومة انكلترا في احماد الثورة و إنهاء الحرب على شروط توافقتها. أما الآن فليس يخفى على الروسية أدنى حركة تكون في الهند، و لا يخفى على الهنديين أقل عمل يكون من الروسية.

و إن الأخبار الخصوصية الواردة من الهند تفيد أن الأمر في تلك الأقطار أشد مما تدل عليه أخبار الجرائد. أما مازعموا من أن بعض النوابين و الرجوات عرضوا أنفسهم و جيوشهم لمساعدة انكلترا عندما طاش ميزانها مع الروسية، فذلك مما يعجب خبره! و يضحك معجبه. فان رجالاً من الانكليز سعوا عند بعض الضعفاء من الأمراء و أغروهم أن يتقدموا بعرض أنفسهم لمساعدة الحكومة لتوهم بذلك أنها معضدة من رعاياها، ففعلوا على أن ينالوا أجراً على فعلهم ثم خابت آمالهم

فانقلبوا على أعقابهم. ولو فرض صحة ما زعموا فهو كثير الوقوع في كثير من البلاد عند بداية الحوادث يظهر الضعيف أنه نصير القوي، فإذا حم الصدام كان أول خاذل له، خصوصاً إذا أحسَّ بل توهم الانقلاب بالهزيمة

بق شيء في مجمل خبرنا نذكره تنمياً للبحث و هو: أن للدولة العثمانية شأناً في المسألة الهندية لا يسوغ إنكاره، فإن لها عدّة كافية، وقوة وافية، يمكنها أن تستخدمها لآرائها السياسية متى شاءت، ويسهل عليها أن تستفيد منها إذا أقبلت عليها بشيء من التدبير. تلك قوة خمسة وأربعين مليوناً من المسلمين أهل السنة يعتقدون أنها دولة الخلافة، وأنها مرمى آمالهم في تخليصهم من أيدي الأجانب، ومكانتها من قلوبهم أعلى من مكانة حاكمهم، وأوصال أعماهم معقودة بأوامرها. ولو أن لدولة أخرى قوة مثل هذه القوة لرأينا جوادها المجلي في هذه المجارة. ولكن مما يوجب الأسف أن هذه العدّة ربما تتبدد، وتلك القوة تضمحل، ولا يكسب رجال الدولة من إهمالها إلا ما يكسبه باذل ماله لعدوه وفقهم الله للسداد في آرائهم، والصلاح في أعماهم.

يقول رشيد رضا: لم نعثر للاستاذ رحمه الله تعالى على مقالة في جريدة مصرية بعد عودته من باريس الى سورية وترك جريدة «العروة الوثقى» الا هذه المقالة، و هي تشبه مقالات العروة الوثقى السياسية التي كانت من نفثات السيد جمال الدين في قلم الاستاذ. وكان الحكميان يرجوان من تحرش الروسية بالهند في تلك السنين أن يفضي الى ترك الانكليز لمصر والسودان فلذلك كانا يعظمان شأن ذلك التحرش.

١٧

الشرق والشرقيين

الشرق والشرقيين^١

الانسان انسان بعقله و بنفسه. و لولا العقل و النفس لكان الانسان أخس جميع الحيوانات و أشقاها. لأنه في ميوته (غير مفهومة و المرجح انها حيوته أي حياته) أضيق مسلكاً و أصعب مجازاً و أوعر طريقاً منها قد حفت به المكارة و أحاطت به المشاق و اكتنفت به الآلام. لا يمكنه بمعاشه، و هو منعزل عن أبناء نوعه. و لا يطيق الحر. و لا يتحمل ألم البرد. و لا يقدر على الذود عن نفسه. و ليس له من الآلات الطبيعية ما يثقف به معيشته. و هو محتاج في ضروريات حيوته (حياته)، و مفتقر في الكمال فيها إلى الصناعة. و لا يمكن الحصول عليها، إلا باجالة الفكرة و التعاون بمن يشاركه في العقل من النوع البشري.

و العقل ما به تستنبط المسببات من أسبابها، و يستدل بالعلل على معلولاتها، و ينتقل من الملزومات الى لوازمها، و تستكشف الآثار حين ملاحظة موثراتها، و تعرف العواقب ضارها و نافعها، و تقدر الأفعال بمقاديرها، على حسب ما يمكن أن يطرأ عليها من الفوائد و الخسائر في عاجلها و آجلها، و يتميز الحق من الباطل في

١. هكذا وردت كلمة «الشرقيين» في عنوان المقال المنشور في جريدة «أبو ظفارة زرقاء»، و كان يجب أن تكون الشرقيون. و لكن ربما يعود ذلك إلى أن ناقل المقال بخط يده، الذي هو صاحب الجريدة اليهودي المصري يعقوب صنوع، كان يمرر معظم مقالاته بالعامية المصرية.

الأعمال الانسانية نظراً إلى مهيع السعادة ومنهج الأمن والراحة. لا يضل من استرشد ولا يغوى من استهداه. ولا يحوم الشق حول من ركن إليه. ولا يعترف المداحض من اعتمد عليه.

ولا يلتبس الحق بالباطل على من استنار بنوره - وان الخير كله به. وليس الشر إلا بالحيدان عن صراطه القويم. من فقد فاته السعادة لاحالة، ولو أخرجت له الأرض أفلاذها، وأسبغت عليه الدنيا نعيمها - وان الأمم ما سادت إلا بهدايته. وما ذلت بعد رفيع مقامها وعظم منزلتها إلا بعد أن أعرضت عن خالص نصحه. وتوغلت في بيداء غوايتها. واستعملته في مسالك ضلالها.

واستخدمته لقضاء أوطار طبائعها الخسيسة التي تجلب عليها الشنار، وتوجب المعرة والصغار - والنفس هي منشأ أخلاق كريمة وأوصاف عفيفة (أي عاقلة) هي قوام الاجتماعات المدنية والمنزلية، وأساس التعادل في المعاملات، وميزان التكافؤ في المؤازرات، ومقياس التوافق في المعاونات، ولا يمكن التألف بين القوى المتفرقة، لاقتناء ما يقوم به حياة (أي حياة) الانسان، إلا بها. ولا تلتئم أهوية النفوس المختلفة، لاكتساب ضروريات معاشها، إلا بسببها. وهي التي تجعل الأفراد الانسانية، مع تضاد طبائعها، بمنزلة شخص واحد يسمى بأعضائه، المتخالفة في أشكاله وجوارحه، المتباينة في هيتاتها، إلى مقصد واحد لا يمكن الوصول إليه إلا باستعمالها، بحركات قد اختلفت مع وحدة جهتها أو ضلعها - وسيادة الأمم الغابرة والحاضرة، هي من أخص نتائجها. لأنها لا يمكن حصولها إلا باتفاق كلمة احادها، واجتماع آراء افرادها. ولا تتفق الكلمة عن بعد (أي عندما، كما يرجح) تجتمع الآراء، إلا بالتكافؤ في المساعي، والتوازن في تحمل المشاق، والاشتراك في المنافع، والمساواة في الحقوق، والتعادل في التمتع بثمرات الأعمال بلا تفاضل ولا استيثار (استئثار). وكل هذه، في وجودها وبقائها، تحتاج إلى الأخلاق الكريمة والأوصاف العفيفة، التي بها يعرف الانسان حقه ويقف عنده - ولا تشتت أمة ..

ولا ذل قوم .. ولا اضمحلت سلطنة .. ولا تفرقت جمعية .. إلا بفساد أخلاقها، وتطرق الخلل في سجاياها.. لأنها بفسادها، وتطرق الخلل فيها، توجب تخالف الأيدي، وتبعد الأهواء، وتضارب الآراء، وتباين (أي تباين) الأفكار، فيستحيل حينئذ الاجتماع، ويمتنع الاتفاق - وإذا أمعن البصير في حقيقة الأخلاق الرذيلة، يعلم، انها بذاتها، تبعث على التفرق والاختلاف، وتمنع عن الاجتماع والائتلاف (الائتلاف). وما ينشأ عن ذات الشيء، لا يمكن زواله، وما دامت ذاته باقية. فإذا تمكنت الأخلاق الرذيلة من أمة، فلا يرجى لها نجاح، ولا يحصل لها فلاح، مالم تسع في مديلها (غير مفهومة، يرجع انها تعديلهما)، ولم تدأب في تقويمها - ويمكن أن يقال أن بين كمال العقل، وطهارة النفس، وتخلقها بالأخلاق الفاضلة، تلازماً. لأن العقل إذا بلغ كماله يقهر الطبيعة. فحينئذ تسلم النفس عن سوراتها، وتخلص من عكر مذماتها، فتنقاد للعقل مستسلمة له، خاضعة لحكمه. ويستعملها العقل على نهج الحق والعدل - وليست الأخلاق الفاضلة، إلا أن تزن النفس أعماها بميزان العدل، ولا تحيد في هواها عن صراط الحق.

وبعد هذه المقدمة، يمكن لنا أن نقول أن الشرق، بعد ما كان له من الجبل الرفيع، والمقام المنيع، والسلطنة العظيمة، وبسطة الملك، وعظيم الشوكة، وكثرة الصنائع والبدائع، ووفور الأمتعة والبضائع، ورواج سوق التجارة، وذياع العلوم والمعارف، وشيوع الأدب والفنون.. ما هبط عن جليل مرتبته، وما سقط عن رفيع منزلته، ولا استولى الفقر والفاقة على ساكنيه، ولا غلب الذل والاستكانة على عامريه، ولا تسلطت عليه الأجانب، ولا استعبدت أهله لأباعد، لاعراض الشرقيين عن الاستنارة بنور عقولهم، وتطرق الفساد في أخلاقهم، فانك تراهم في سيرهم كالبهائم لا يتدبرون أمراً، ولا يتقون في أفعالهم شراً، ولا يكدون لجلب النافع، ولا يجتنبون عن الضار.. طراً على عقولهم السبات، ووقفت افكارهم عن الاجالة في إصلاح شئونهم، وعميت بصائرهم عن ادراك النوازل التي أحاطت

بهم.. يقتحمون المهالك، ويمشون المداحض ويسرعون في ظلمات أهوية نفوسهم التي نشئت عن أوهامهم المضلة، ويتبعون في مسالكهم ظنوناً قادهم إليها فساد طبائعهم.. لا يحسون المصائب قبل أن تمس أجسادهم. وينسونها كالبهيمة بعد زوال آلامها واندمال جراحها. ولا يشعرون لاستيلاء الغباوة على عقولهم، واكفهار ظلمات غشاوة الجهل على بصائرهم. اللذائذ التي خص الانسان بها من حب الفخار و طلب المجد والعز و حسن الصيت و بقاء الذكر، بل لاستيلاء الغفلة على عقولهم. يحسبون أن يومهم دهرهم. و التعمق كالسارحة شأنهم لا يدرون ما يترصهم من أمامهم يدركون مآل أمرهم، و لا يتداركون ما فاتهم، و لا يحذرون ما يترصهم من أمامهم و من خلفهم. و لا يفقهون ما أكنن لهم الدهر من الشدائد والمصاعب. ولذا تراهم قدرئوا (أي راموا) الذل و ألفوا الصغار و أنسوا الهوان، وانقادوا للعبودية، ونسوا ما كان لهم من المجد المؤثل و المقام الأمثل - و بعد انحذارهم عن ذروة العقل، الذي لا كرامة للانسان إلا به، غلبت عليهم الخسة والنذالة. ورائت على قلوبهم، الجفاء و القسوة. و تمكن من نفوسهم الظلم و الجور. واستولى عليهم العجب، لا عن جاه يدعو إليه، و لا عن فضيلة تبعث عليه. وتظاهروا مع الذل المتمكن من قلوبهم بالكبر و العظمة، و فشايينهم الشقاق و النفاق. و تلبسوا بالغدر و الخيانة. و استشعروا الحسد و النيمة و تسربلوا بالحرص و الشره. و تجاهروا بالوقاحة و الشراسة. و اتسموا بالخشية و الجبانة. و انهمكوا في الشهوات الدنية. و خاضوا في اللذات البدنية و تخلقوا بالأخلاق البهيمية، متوسدين الكسالة و الفشل. و اتصفوا بصفات الحيوانات الضارية يفترس قويم ضيلهم. و يستعبد عزيزهم ذليلهم. يخونون أوطانهم. و يظلمون جارههم. و يستلبون أموال ضعفائهم. و يخوسون (ربما المقصود يخثون) بعهودهم. و يسعون في خراب بلادهم. و يكونون الاجانب من ديارهم لا يدفعون ذمارا. و لا يخشون عارا. عالمهم جاهل. و أميرهم ظالم. و قاضيهم خائن. ليس لهم هاد، فيرشدهم إلى سبيل نجاتهم، و لا زاجر، فيكفهم عن

التماذي في غيهم. ولا وازع، يقدح (اي يمنع) الجائرين عن نهش عظام فقرائهم - و صاروا جميعاً، بسخافة عقولهم، و فساد أخلاقهم، عرضة للهلاك، و أشرفوا على الزوال - تأمل فيما أقص عليك من أعمال الشرقيين من قبل، حتى تعلم انهم هم الذين، بحيدانهم عن سنة العقل، قد أوقعوا أنفسهم في الذل الدائم، وجلبوا، بعدم تدبرهم في عواقب أمورهم، الخراب و الدمار إلى بلادهم، و اضعفوا، بسوء سياستهم، سلطنتهم القوية. و مكثوا أعداءهم من بلادهم، جهلاً منهم بنتائج أعمالهم - و ها هو ذا -.

ان العثمانيين قد اتفقوا مع الروس على مقاسمة البلاد الايرانية حينما تغلب الأفغانيون على أصفهان أيام شاه سلطان حسين. ولو نظروا بنظارة التدبر إلى الأمة الروسية، و ما لها من العلاقات مع اليونانيين و الرومانيين و السريين و البلغاريين وغيرهم من رعايا السلطنة العثمانية، و ما يمكنها أن تحوزه في مستقبل أمرها من القوة و البسطة، لما اختلجت ببالهم مخالفتها.. و لا خطرت في أذهانهم مؤامرتها - بل كانوا يسمعون في قلع أسها قبل استحكامه، و قطع شجرتها قبل أن تشج عروقها. و انهم جاهدوا الايرانيين بالحرب من طريق بايزيد. و قد كان عباس مرزا بجيوشه يقاومون الروسية و يدفعونها عن بلادهم. فوهنت قوتهم. و ضعفت مريرتهم (عزيمتهم) و استملك الروس، بسبب هذا الاقتحام، أكثر بلاد أذربيجان. و لو استشار العثمانيون عقولهم و قنشد لأشارت عليهم بأن ضعف الايرانيين و قوة الروس هما معا علة لتزعزع أركان السلطنة التركية. و لكنهم اتبعوا خطرات أنفسهم. و تزينت لهم أوهامهم. و ظنوا انهم يحسنون صنعا. فأسرعوا في هلاك أنفسهم، و هم لا يشعرون. و كان عليهم، اهتداء بنور العقل، و سلوكاً في مسلك السياسة الحقة، أن يلاحظوا الجامعة القوية التي بينهم و بين السلطنة الايرانية.. فيتفقوا معها على كبح شره الروسية، و إضعاف قوتها، أمناً من غوائلها، و حذراً من آفات مطامعها - و انهم، أي العثمانيين، جبهوا سفير (تبو سلطان) سلطان (ميسور)

بالرد، حين عرض عليهم من طرف سيده، استبدال (البصرة) ببعض البلاد الهندية التي كانت في حوزته. فامتعضوا من هذا الطلب، وردوا السفير خائباً - وكان غرض (تبو سلطان) من طلبه هذا، أن يكسر سورة الانكليز، ببسط السلطة العثمانية في الهند وتمكنها منها. وذهل العثمانيون تهاون (الحرف الأخير محذوف والمرجح انها تهاوناً) منهم عن العلاقات التامة التي بينهم وبين الهنديين. وان سلطنتهم لو امتدت إلى تلك الممالك لذهل جميع حكامها بلا معارضة تحت لوائهم. وقدروا حينئذ على قمع الحكومة الانكليزية عن تطاولاتها في الهند و سدوا عليها طرق فتوحاتها في المشرق. وما شعروا تساهلاً في السياسة، و تغافلاً عن منهج العقل، ان بسطة الحكومة الانكليزية في الآسيا، توجب تحكمها في بلادهم، و طمعها في الاستيلاء عليها، كما وقع الآن.. حتى مكثوا عساكرها مدة طويلة من شق الأراضي المصرية، ذاهبة إلى أقاصي الشرق للتغلب عليها - وان شاه ايران (فتحعلی شاه)، ارضاء للانكليز، هدد الأفغانين بالحرب، وقتما أرادوا أن يزحفوا إلى الهند لانتزاعها من أيدي الانكليز. ولو استنار الايرانيون وقتئذ بنور عقولهم، لانكشف لهم، ان قوة الانكليز في الهند، إذلال لهم، و خطر على بلادهم. ولعلموا انهم والأفغانين، أغصان شجرة الايران قد تشعبوا من أصل واحد. ونشأوا في أرض واحدة تجمعهم وحدة الجنسية. و تؤلفهم الأخوة الحقيقية. لأنهم متساهمون في العز و الشرف. و متشاركون في الذل و الهوان. و ما فرقت كلمتهم إلا أوهام واهية نشئت (أي نشأت) عن الظنون الدينية. و ليس منها في شيء. و لو راجع كل عقله لرأى وجوب اتفاقهم تحت راية الوحدة استرجاعاً لمجدهم السابق، و تداركاً لما فاتهم بسبب الشقاق من الشرف و الفخار و علو الكلمة بين الأمم - و أن الأمير (دوست محمد خان) أمير الأفغان قد جعل بلاده تعام منه (أي تكرهه) عرضة لهجمات الانكليز. فانه بعد المحالفة مع (رنجيت سنك) و معاهدته على مقاومة الانكليز، قد تركه، اغتراراً بالمواعيد الانكليزية، في ميدان الحرب وحيداً. و تقهقر بعساكره فانهزمت

جيوش (رنجيت سنك). و تغلب الانكليز على جميع أراضي البنجاب المتاخمة للأفغانستان. ولو استهدى الأمير (دوست محمد خان) إذ ذاك عقله، و سلك في سياسته سلوك بصير (الأصح سلوكاً بصيراً) يتدبر نتائج افعاله، قبل أن يشرع فيها .. لتحقق لديه، أن صيانة بلاده عن هجمات الانكليز، انما تكون ببقاء الحكومة البنجابية حريزة، حتى تكون سداً مانعاً بين أفغانستان و بين الحكومة الانكليزية. فكان يدافع عنها كما يدافع عن حكومته - و أن نواب البنجالة، و نواب الكرناتك، قد مهدا للانكليز سبل دخولهم في الأراضي الهندية - و أن نواب لكهنو (اسم مقاطعة) مقاصدهم في إذلال السلطنة التيمورية - و أن نواب دكن قد أعانهم على اباداة حكومة (تيبو سلطان) و اذلال كراجة (برودة) و قهر الذين قاموا سنة ١٨٥٧ لانقاذ بلادهم و دفع شر المتغلبين عليها من الانكليز. و كل هؤلاء (هؤلاء) جهلا منهم بمنافعهم، و عى عن نتائج أفعالهم المضرة، مكثوا الحكومة الانكليزية ثقة بمواعيدها من الأراضي الهندية. وجعلوا على أعناقهم نير العبودية. و ما عقلوا، ان قوام كل بالآخر. وان بقائه (بقاءه) قد نيط ببقائه. و ان كلا للآخر بمنزلة العضو من الجسد. فاذا تمكن الداء من عضو، سرى في الجميع. ولزم منه انحلال البدن كلية - و الآن ترى الانكليز، بعد استعبادهم، و سلب أموالهم، و نزع أيديهم عن الملك، تعارضهم في ديانتهم. و تزارحهم في تجارتهم. و تعاقبهم على نياتهم. و تعاتبهم على اعمال آبائهم - و ان أهل بخارا فرحوا بتسلط الروسية على قوقند و التركمان تبجحوا من غلبتها على بخارا و الأفغان و الفارس قد سرا (المقصود سروا) من استيلائها على التركمان. و كل هذا غفلة منهم عن المضار التي تنشأ عن قوة الروسية و بسطة سلطتها في تلك الأراضي و قد ألقاه (هي ألقاهم) جهلهم بمصالح أنفسهم، و اغضائهم عن الاستنارة بأنوار عقولهم في التهلكة و أشرفوا كلهم، بغرورهم، على الزوال و الاضمحلال - و ان مدحت باشا^١ و أعوانه، لو نظروا ببصيرتهم إلى أركان

١. كان مدحت في منصب الصدر الأعظم، ثم عين والياً على بغداد ثم على سورية، في أواخر السبعينات من القرن

سلطنتهم المتداعية إلى السقوط .. و شعروا بهداية عقولهم، ان دعائم حكومتهم كادت أن تنهد، بما ألم بها من المصائب.. و علموا بتدبرهم ان البلايا ترقصدهم من جوانبهم.. لما تقحموا غروراً و ضلالة في خلع عبد العزيز وقتله، وقتما تترقب الأعداء سقطاتهم، و تغتم هفواتهم. و لكنهم، اعتماداً على واهي آرائهم، و اغتراراً بدسائس الحكومة الانكليزية، قد جلبوا الهلاك و الاضمحلال على أممتهم .. و يظنون انهم هم المصلحون - و ان اسمعيل باشا^١ حبا بالاستقلال، و عى عن نتائج أفعاله السيئة التي نشئت (نشأت) عن حرصه باسم الملك، قد ألقم الافرنج جميع أموال مصر، و ما استدانه من صرافي الأوربا بالأرباح الباهظة. ثم سعى الافرنج في خلعهم عن الملك، و نفيه عن الديار المصرية ارادة استلاكها، و وضع اليد عليها - ولو تروى في حالة الشرقيين، و تأمل فيما أصابهم من الذل و الصغار لأجل تفرق كلمتهم، لازداد خضوعاً لسلطانه. و سعى، صيانة لنفسه، في تشييد مباني سلطنته، و نزع عن قلبه حب الاستقلال. و علم، ان الذين لا يفترون عن السعي في فتح الممالك، لا يمكن أن يساعده في مقاصده - و ان وزراء توفيق باشا، جهلاً بمقدار أنفسهم، و عجباً بآرائهم الفاسدة، و اثباتاً لأوهامهم الباطلة، قد جلبوا الانكليز بغاية جهدهم إلى القطر المصري، و ملكوهم إياه. و هم يظنون انهم يستظهرون بهم على أعداء الخديو. فلو تدبروا في سياسة الحكومة الانكليزية و رأوا أطماعها في أرض مصر، لما جلبوا هذا المصيبة على أنفسهم، و على خديوهم، و على سلطانهم، و لما ألقوا أنفسهم في فم الأسد، خوفاً من وعوة الكلب.

فقد ظهر، من كل ما ذكرته من سير الشرقيين قدماً في حالاتهم، انهم ماسلكوا في

الماضي. بعد ذلك أعني من منصبه و استدعي إلى الآستانة. و إثر الاعفاء، اتهم مدحت بمحاولة قتل السلطان عبدالعزيز، فحوكم و حكم عليه بالاعدام.

١. اسماعيل باشا كان خديوي مصر، في اوائل الربع الأخير من القرن الماضي. و قد اشتهر أثناء بناء الأوبرا المصرية، حيث دعا ملوك أوروبا و أمراءها إلى حفل الافتتاح، و أنفق في سبيل ذلك مبالغ باهظة.

سياستهم سبيل الرشد والهدى، و ما استفادوا من عقولهم شيئاً، و لا تدبروا في عواقب أفعالهم و نتائج أعمالهم، و لا نظروا بنور البصيرة في حالهم و مآلهم. بل تاهوا جهلاً منهم بمنافعهم في بيداء الغواية. و صاروا عمى عن غاية مسيرهم في تيه الضلالة. حتى خربوا بأيديهم ديارهم. و أبادوا بسوء تصرفهم بلادهم. و مكنوا الأجانب بمساعيهم الفاسدة من رقابهم - و كان الواجب على أحفادهم الذين احترقوا بنارهم، و تدنسوا بعارهم، أن يعتبروا بالمصائب التي جلبتها إليهم غفلات أسلافهم.. و أن يتقوا البليات التي قادتها الغباوة إلى آبائهم.. و ان يسعوا في جمع الكلمة .. و أن يتحذروا من الشتات و التفرقة.. و يجتنبوا الأغراض الشخصية .. و يعرضوا عن دواعي الخطرات الوهمية .. و يتنحوا عن مضال الاستبداد و الاستئثار. و لكن تراهم، لسبات عقولهم، يقتفون آثارهم، و يتبعون أغلاطهم، معرضين عن العقل و ارشاده، جاحدين للحق و آياته، ارتفعت عنهم الأمانة.. و فشت بينهم الخيانة .. و انقطعت بينهم عرى الوداد.. و انحلت عقدة الجنسية. كل ينظر إلى نفسه و يسعى لنفعة شخصه، جهلاً منه أن سعادته منبثة في جميع آحاد الأمة.. و لا يمكنه أن يفوز بها الا بسعادة الكل. و لذلك قد صاروا، بعد العبودية، فقراء لا يملكون شيئاً.. حائرين في معاشهم.. ضالين عن رشدهم في مبدأهم و معادهم. و كاد أن يقضى عليهم بذل أبدي، و موت دائم، بتلاشي جنسيتهم و تناثر جميعتهم - و مع كل هذا، ما فاتهم أوان التدارك، و لا ضاق عليهم زمان، و لا سدت عليهم الأبواب، و لا انقطعت دونهم الأسباب. و لكن قد تمكن منهم القنوط، و غلب عليهم اليأس، و فترت همهم، و ضعفت عزائمهم، و استكتت (بمعنى اغلقت) آذانهم عن استماع النصائح، و عميت أبصارهم من رؤية الحق، و قست قلوبهم عن الاذعان له. فتراهم، امتداداً في غيهم، يريقون دماء هداتهم.. و يتبعون المرء غواتهم. فلا حول و لا قوة إلا بالله.

عن جريدة «أبوظارة زرقا»

العدد الثاني - ٩ شباط - فبراير ١٨٨٣ باريس

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
والحمد لله رب العالمين

الحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
والحمد لله رب العالمين

الحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
والحمد لله رب العالمين

الحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
والحمد لله رب العالمين

الحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
والحمد لله رب العالمين

السيد جمال الدين الحسيني

الحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
والحمد لله رب العالمين

١٨

العُجْب

العجب

ان العجب يدعو الناس الى الكبر. و الكبر يصير سبباً للنظر الى سائر الناس بالحقارة و يعمل افعالاً غير مطبوعة. و العجب من خواص (ال) نفوس الصغيرة. و من لوازم عقول ضاق دائرة ادراكها. لان من يكون ادراكه واسعاً و افكاره عالية يعلم ان ستون مراتب الانسان في كل مزية من المزايا معنوية كامنت او صورية غير متناهية. و لما انكشف هذا الامر على احد في كل مرتبة كان لما ينظر الى ما فوقه لم يحصل له الا القصور و الاعتراف على انفعاله. ان الانسان لم يكن لعلمه اعتماداً ولا لقوته نهاية و لا لفنائه و ثروته غاية ثم ان يكن احد بقى معجلاً بنفسه لتسهيل (التصّل) الى بعض من المراتب لم يكن سببه الاعماه شيئاً و عمشه لانه (غير مفهوم) يزعم ستون عقله فوق جميع العقول فلماذا يفوق نفسه على غيره. و ضعف مزاجه و انحطاط نفسه يصير سبباً الى نيله ببعض من المزايا الانسانية و يحصل له النشوان (النشوة) و السكر بحيث يفعل اعمالاً غير مستحسنة و يحقر و يوهن سائر الناس مادام بمقام هذا العجب و الكبر. و ما يحصل للانسان بسببه المضرة ان اول مضرته انه يمنع الانسان من وصوله الى مدارج كمالات غير متناهية و يزر النفوس و العقول من طلب المعالي. و متى يوجد في الانسان هذين (هاتين) المخصلتين يجبره على الوقوف. و مضرة اخرى انه يدعو جميع الناس الى على العدواة و (غير مفهوم) يقطع

سلسلة (غير مفهوم) هي اسالى حياته. وهو بواسطة هذه السجية الدنيا في زاوية الوحشة والوهشة مغلول اليدين يحبس. والعجب اننا نرى في بلدنا كثيراً من الناس من التكبر لا يمكنهم القيام في عالم وِئَمَن (يَمْنُون) من الفجر والعظمة على السماء والارض. ومع هذا لا يوجد فيهم مزية داعي (تدعو) الى هذه الخلة.

الانتظر الى هؤلاء الجالسين في الكروان واضعين رجلهم على رجلهم يتجاوزون من الأَرْزَقَة والسوق. والانتظر الى الذين يركبون على الفرس و وضعوا قُلنسوتهم على رأسهم عوجاً وينظرون متبكراً (متكبرين) في حين العبور على اليمين واليسار. لأي سبب يفعلون هذا هل فتحوا مملكة و هل اخترعوا امرأً بديعاً و هل اوجدوا علماً جديداً.

و هل كشف سراً من الاسرار سبحانه الله. هل هو ماريشال ملك و هل هو (كروكرام) ام هل هو كريبالدى ام هو بسمارك ام هل هو (بال ملستان) ام هو عرژ كف اونيطة ام هو كفلا و الجليلو (غاليله) ام لايل اخترع سلك البرق او انشأ السكة الحديد يدة؟ هذا العجب و هذا التكبر الذى لا اصل له. وان كان للانسان شعورا او كان له غيرة يثوب (يذوب) في الخجلة و اما يخفي نفسه في زاوية حتى لا يعرفه غيره و هذه السجية السيئة يوجد قليلاً الا في الشرق.

١٩

نبذة من مناظرة خياليّه

نبذة من مناظرة خيالية

إنكم قد ضللتكم عن رشدكم، و تهتم في بيداء غوايتكم، و ما يقوم لكم دليل في تقاعسكم عن الذود عن أوطانكم، و لقد غلب عليكم الجبن، و استولى عليكم الضعف، و أضعف جنانكم الخوف و الخشية، ألا ترون أن كل أمر صعب عند الشروع فيه؟ أفلا تشعرون أن صعوبة المسالك بمقدار عظم المقاصد؟ و أن الراحة محفوفة بالمشاق، و أن أفضل الأعمال أحمرها؟ أفترضون بالعبودية للأجانب، و الاستكانة للأبعد، و إن موت المرء خير من بقائه في هذه الدنيا مع قلة مدتها و سرعة زوالها، رِقًا لا يملك من الأمر شيئًا؟ أتظنون أن هذا التعلل يدفع عنكم غضب رب الجنود؟ لا وحقه. إنكم إن لم تدافعوا عن أوطانكم بنفوسكم و أموالكم لا تنالون منزلة لديه، و لا تجدون مخلصا من سخطه، و يبقون في ذل العبودية ما دامت الأرض باقية، و كل عذاب دونه لحقير، فتشجعوا و ثبّتوا أقدامكم، و سكّنوا روعكم، و إعلموا أن الظفر مقرون بالصبر، و أيقنوا أن الراحة و السعادة في أثر المشقة، و أن سنة الله قد جرت من الأزل، أن لا ينال الانسان مرغوبه إلاّ بعد التعب، فلا تقدموا هذه الحجج الداحضة، و لا تظهروا الفشل في طلب حقوقكم، و لا تسربلوا بالجبن فإن كل جبان محروم، فاسعوا في اتفاق كلمتكم، و إجعلوا

صدوركم مجنّاً لسهام أعدائكم، مجدين في خلاص بلادكم، وإعلموا أن الأمم الغابرة
والمحاضرة ما نكست رقابها، ولا كسرت أطواق العبودية، إلا بتحمل المشاق
والخوض في غمرات الموت.

٢٠♦

الرد على رينان

الرّد على رينان^١

يندر أن نجد مقالة لا تتعدى كلماتها الألفين و خمسمئة كلمة حققت الشهرة الواسعة واللفظ الشديد مثل مقالة جمال الدين الأفغاني التي حملت عنوان: «الرّد على رينان» والمنشورة بالفرنسية على أعمدة جريدة «جورنال دي ديبا» في الثامن عشر من أيار عام ١٨٨٣ م.

إن هذه المقالة - الرّد أنارت، ولا تزال تثير بعد مرور ما يناهز القرن على نشرها، جدلاً ولفظاً كبيرين في أوساط المثقفين العرب والمسلمين؛ ولعل ما ضاعف من الجدل واللفظ أن الأصل العربي للنص اختفى منذ أن دخل إلى مكاتب الـ «جورنال دي ديبا»، ولا تزال ترجمته الفرنسية (التي جاءت مشوهة ومحرّفة في كثير من المواقع حسب بعض الباحثين المعاصرين) هي النص المعتمد من قبل الكثيرين، وبل من قبل الجميع، حيث أن الحكم على آراء الأفغاني وأفكاره يتم من خلالها.

إن «الرّد على رينان» الذي كتبه الأفغاني بالعربية حيث أنه لم يستقن الفرنسية (وقد نُشر في الصحيفة الفرنسية بنفس العنوان "Répose à Renan") جاء، في ترجمته الفرنسية، وكأن كاتبه يؤيداً أرست رينان في تلك الآراء والمواقف التي ضمّنها محضرته في السوربون و تحورت حول علاقة الدين الاسلامي والمسلمين بالعلوم والفلسفة. وإذا كنا ندرک

١. هذه الدراسة و المقدمة، للاستاذ سمير أبو حمدان، و ترجمة النص - الرّد - هي للدكتور و على شلش. (خ)

جميعاً أن معنى الرد، أي رد، إنما ينطوي على موقف سلبي ومضاد تجاه رأي أو قضية مطروحة... فكيف صار رد الأفغاني، في نصّه الفرنسي، متوافقاً مع محاضرة أرنست رينان في العديد من وجهات النظر! ثم لماذا ضاع النص العربي للرد وهو القول الفصل في هذه المسألة؟ ولماذا لم يُسمح للأفغاني، وربما بإيحاء من الحكومة الفرنسية، بكتابة مقال آخر في الـ «جورنال دي ديبا» بعدما بلغه أن أقواله في الرد على رينان قد شوّهت؟ وأخيراً لماذا قطع جمال الدين علاقته بالجريدة المذكورة وراح ينشر مقالاته في صحيفة فرنسية أخرى هي الـ «انتر انزيجان»؟

الظُرُوفُ المُحِيطَةُ بِالرَّدِّ

هذه الأسئلة تقودنا إلى معرفة الظروف والمعطيات التي تحيط برد الأفغاني وكذلك بمحاضرة رينان. إذ أن معرفة هذه الظروف والمعطيات ربما أفضت بنا إلى معرفة حقيقة الرد ومضمونه الصحيح وهما شيان يتناقضان مع ما كُتِبَ عنها حتى الآن.

سوف نتطرق، هنا، من البداية وتحديداً من المرحلة الهندية الثانية في حياة الأفغاني وهي التي تمتد من عام ١٨٧٩ وإلى عام ١٨٨٢ م. ففي هذه المرحلة، وقد كانت منفي اضطرارياً، قضى الرجل أيامه متنقلاً من مدينة هندية إلى أخرى هادياً ومرشداً المسلمين إلى حقيقة الدين الإسلامي. ويصف بعض الباحثين هذه المرحلة بأنها من أخصب مراحل حياته حيث صرف معظم أوقاته في الكتابة والخطابة والنقاش. وبالرغم من ذلك فإن الأفغاني في هذه المرحلة آلمه شيان: رقابة الإنكليز له، والشعور العميق بالغربة. ومن أجل ذلك قرّر الخروج من الهند بعد أن سمح له الإنكليز بذلك وتوجه إلى باريس. وقد اختار العاصمة الفرنسية مقراً جديداً له لأسباب عدة بينها الخلاف الذي كان ناشباً وقتذاك بين لندن وباريس حول سياسة كل منهما في الشرق، وبينها ابتعاد باريس من سلطة الأتراك وتدخلاتهم عكس ما هو حاصل في لندن، وبينها أيضاً أن باريس كانت في ذلك الوقت تحتضن عدداً من زملاء الأفغاني المناهضين للسياسة البريطانية مثل

يعقوب صنوع (١٨٣٩-١٩١٢ م) و خليل غانم (١٨٤٦-١٩٠٣ م)، وهذا الأخير عرف بعدائه غير المحدود للعثمانيين «وكان الأفغاني قد عرف صنوع في القاهرة، وربما عرف خليل غانم في الاستانة أو القاهرة. وكان صنوع قد غادر مصر غير مرغوب فيه عام ١٨٧٨ م. وأعاد في باريس إصدار صحيفته «أبو نظارة». وكان الآخر عمل مترجماً في بيروت و دمشق والاستانة ثم اختير نائباً عن سورية في أول برلمان عثماني عام ١٨٧٦ م. فلما ألغى السلطان عبد الحميد البرلمان بعد قليل، هرب غانم، بعد مطارته إلى مصر، حيث أصدر أول كتاب في العربية عن الاقتصاد السياسي عام ١٨٧٩ م. ولكن سرعان ما شدد رحاله إلى باريس حيث أقام و تجسّس بالجنسية الفرنسية، وأصدر صحيفة «البصير» عام ١٨٨١ م بتشجيع الحكومة الفرنسية ودعمها. ولما توقفت هذه الصحيفة المعادية للعثمانيين والآنكليز عام ١٨٨٣ م، ساهم غانم في بعض الصحف الفرنسية الأخرى وأهمها «جورنال دي ديبا» (Journal des débats) أي «صحيفة المناظرات» التي نشرت رد الأفغاني على رينان»^٢.

وثمة من يرجع من الذين ترجموا الحياة الأفغاني أنه كان على اتصال مستمر مع هذين الرجلين، خلال وجوده في الهند، وقد أقنعهما بتسهيل وصوله إلى باريس والاستحصال له على تأشيرة دخول وذلك لأجل متابعة حملته، وبالتعاون معها، على الانكليز والعثمانيين. هذا شيء، أما الشيء الآخر الذي كان وراء طموحه للاستقرار في باريس فهو أن العاصمة الفرنسية كانت على صلة بأهل الشرق عموماً والشرق العربي الإسلامي على وجه الخصوص. وقد وجّه الأفغاني، وهو في طريقه إلى باريس، رسالة إلى رئيس وزراء مصر مصطفى باشا يتّضح لنا فيها مقدار المعاناة التي كان ينوء تحتها الأفغاني. وبما جاء في الرسالة: «... فلما رأيت أن المصائب كل يوم تكثّر عليّ عن أنيابها، وأن البلايا تفتح كل ساعة بابها، تفكرت بالرزايا التي جلبتها عليّ الغباوة والقسوة وتروّيت في أمري. وعلمت أني لو أذهب

٢. الأزمنة، المجلد الأول، العدد ٦، دراسة بعنوان «جمال الدين الأفغاني في رده على أرنست رينان»، علي شلش، أيلول/تشرين الأول، ١٩٨٧ م، ص ٥٠.

إلى بلدي و في العين قذى، و في الحلق شجى، و في الكبد أوار، و في القلب نار، مما أصابني، لا أجد بين أهله (...) مَنْ إذا قصصْتُ قصتي و كشفت عن عمي ين عليّ و يتوجع لي و يأسف على مصابي (...) فزمت أن أذهب، وإن كنت صفر اليدين خالي الراحتين، إلى بلاد فيها عقول صافية و آذان واعية و قلوب شفيقة و أفئدة رفيقة، حتى أقص عليهم ما يجري على ابن آدم في الشرق، و أخدم النار الملتهبة في قلبي من هذه البلايا، و أضع حمل هذه الموم التي أنقضت ظهري... و هذا هو سبب ذهابي إلى بلاد الإفرنج»^٣.

تاريخ هذه الرسالة هو كانون الأول ١٨٨٢ م. و قد كتبها على متن السفينة التي أقلته إلى باريس لدى رسوها في ميناء القاهرة، و قد سلمها باليد إلى أحد تلاميذه المصريين الذي عرف بقدوم الأفغاني على متن سفينة قادمة من الهند و جاء لتحيته. و طلب الأفغاني من تلميذه أن يبلغها سراً إلى مصطفى باشا. و أبحرت السفينة إلى لندن حيث مكث الأفغاني فترة تمكن في خلالها أن يستحصل على تأشيرة دخول إلى باريس التي بلغها في حدود العاشر من كانون الثاني ١٨٨٣ م. و كان أول المرشحين به يعقوب صنوع الذي استضافه في منزله لأيام عدة و قال في جريدته «أبو نظارة» و هو يزف خبر قدوم الأفغاني و ذلك في التاسع عشر من كانون الثاني ١٨٨٣ م: «أيها الأخوة، وصل إلى باريس جمال الدين و العلم، معلمنا و أستاذنا الأفغاني». أما ثاني المرشحين فكان خليل غانم الذي نشر في جريدته «البصير» (٢٥ كانون الثاني ١٨٨٣ م) خبر قدوم الأفغاني على النحو التالي: «قدم باريس في الأسبوع الماضي حضرة العلامة العامل و الفيلسوف الكامل السيد جمال الدين الأفغاني الذي طار صيته في الآفاق، فعرفه القاضي والداني و شهرة اسمه تغنيان عن وصف علمه. و لكننا نقول أن بمثله يحق للشرق أن يستيه افتخاراً و ينافس الغرب علناً و جهاراً. كان حرس الله كماله في الهند محبوب بلدانها و يستطلع أحوال أهلها و يلاحظ عاداتهم و يدرس تاريخهم و يجتلي

٣. راجع في هذا المجال، بالفارسية، «إسناد و مدارك چاپ نشده درباره سيد جمال الدين» مطبوعات جامعة طهران، ١٩٦٣ م، ص ٣٧. و قد حقق هذه الرسالة إلى مصطفى باشا، علي شلش و نشرها في كتابه «الأفغاني و تلاميذه»، المركز العربي للإعلام و النشر، القاهرة، ١٩٨٧ م، ص ٢٩ - ٥١.

معارفهم». و يضيف الخبر: «ثم خرج منها قاصداً لوندرة (لندن) لزيارة بعض أصدقائه فيها. وبعد أن أقام بها أياماً قليلة، أتى إلى باريس على جناح الأيمن والاعقبال، والمظنون أنه يبقى فيها مدة غير قصيرة».

و لم يقتصر الترحيب بالأفغاني على هاتين الصحيفتين العريبتين وإنما شمل أيضاً الصحف الفرنسية، فقد رحبت به صحيفة اليسار الفرنسي في ذلك الوقت الـ«الانترانزيجان» (L'intransigeant) واصفة إياه بأنه أحد «أشهر شخصيات الشرق». كما لصحيفة يسارية أخرى كلمة في قدومه. فقد تحدثت عنه «لاجستيس» (La Justice) واصفة إياه بالشيخ الورع المترهد الذي يقطن شقة متواضعة في شارع دوسيز و يشغل نفسه بتعلم الفرنسية^٤.

إن الأشهر الأولى من وجوده في باريس صرفها جمال الدين في الكتابة والاطلاع على تاريخ فرنسا والغرب وصب اهتماماً خاصاً على إتقان الفرنسية من أجل تأهيل نفسه، مثلما فعل في مصر والهند والآستانة من قبل، على الانخراط في الوسط الثقافي الفرنسي. وفي كل ذلك كان صديقه يعقوب صنوع و خليل غانم خير معينين له، بالإضافة إلى صديق آخر هو أرنست فوكيلان الذي تعرّف إليه الأفغاني في مصر و قد عاد فوكيلان إلى موطنه باريس بعد فشل الثورة العراقية و سيطرة الإنكليز على مصر.

و مما يذكر أن خليل غانم صاحب جريدة «البصير» أسهم بشكل فعال في تعريف الأفغاني إلى عددٍ من الشخصيات الثقافية و الاعلامية الفرنسية. فقد عرّفه إلى المستشرق ديولافوا و إلى المؤرخ أرنست رينان الذي كانت بينه و بين الأفغاني، فيما بعد، مناظرة غاية في الأهمية على صفحات الـ«جورنال دي ديبا».

وقد تعرّف الأفغاني في باريس أيضاً إلى الشاعر الفرنسي الشهير فيكتور هوغو. و تمّ هذا التعارف من طريق صديق مشترك هو الصحافي جان مير. كما عرّفه صديقه الفرنسي فوكيلان إلى روشفور مسؤول التحرير

٤. على شلش، استناداً إلى:

في جريدة الـ«انترانزيجان». أما جورج كليمنصو الذي أصبح فيما بعد رئيساً لوزراء فرنسا، وقد نشأت بينه وبين الأفغاني علاقة من الود والاحترام، فلا نعرف حتى الآن من قدم الأفغاني إليه، والجدير بالذكر إن كليمنصو كان مديراً لتحرير «لاجستيس». وقد «كانت لقاءات الأفغاني بهؤلاء مؤثرة إلى حد بعيد و تركت انطباعات قوية لدى بعضهم، مثل روشفور ورينان، وجعلت روشفور وكليمنصو يستكتبانه في صحيفتهما»^٥.

و على الرغم من أن جمال الدين كتب العديد من المقالات الهامة في الصحف العربية («أبوظارة» و «البصير») و الفرنسية («لاجستيس» و «انترانزيجان»)، غير أن مقالته الأهم و التي تحققت شهرته الباريسية على أساسها فهي التي تمثلت في رده على محاضرة رينان... فما هي هذه المحاضرة؟ وما هو هذا الرد؟

مُحاضرة رينان

يذهب بعض المؤرخين للفكر الفرنسي في القرن التاسع عشر إلى أن أرنست رينان (١٨٢٣ - ١٨٩٢ م) واحد من أهم كتّاب عصره. فهو أكثرهم إثارةً و قد كان ميّالاً لخوض المعارك الفلسفية و الفكرية مع عدد من المثقفين و الكتاب الفرنسيين. و إذ بدأ حياته الفكرية بدراسة اللاهوت، تحول فيما بعد من اللاهوت إلى الفلسفة، و تحديداً عندما أدرك أن المسيحية لا تستطيع أن تلبّي طموحاته، كما أن اللاهوت ليس بإمكانه استيعاب طاقته المتفجرة. و قد خرجت من بين يدي رينان ثلاثة من الكتب الهامة التي عرفت الحياة الثقافية الفرنسية في القرن التاسع عشر، و هي: «تاريخ أصول المسيحية» و هو يقع في سبعة أجزاء و «تاريخ بني إسرائيل» و «ابن رشد و مذهبه».

و قد صرف رينان حيزاً مهماً من دراساته للبحث في طبيعة العلاقة بين الدين و العلم. فكان لقاؤه بالأفغاني الذي يصفه رينان بـ«الملحوظ الذكاء»

و «الآسيوي المستير»، فرصة لمناقشته في أمر محدد و هو علاقة الاسلام بالعلم. وكانت هذه العلاقة محور المحاضرة التي ألقاها رينان في السوربون في التاسع والعشرين من آذار ١٨٨٣ م.

و حتى الآن لأحد يعرف متى تمّ اللقاء بين الأفغاني و رينان على وجه التحديد. فلا الأفغاني تحدّث عنه ولا رينان حسم لنا زمان و مكان اللقاء، بل إن الأخير يخبرنا بأنّه تمّ على يد صديقهما المشترك خليل غانم، وأن جمال الدين، مثلما يدّعي رينان، هو من أوعز إليه بإلقاء محاضرة في السوربون يكون محورها الاسلام و العلم. وأقصى ما نستطيع قوله عن تاريخ هذا اللقاء أنّه تمّ في بداية أو منتصف شهر آذار من عام ١٨٨٣ م و هو الشهر الذي ألقى فيه رينان محاضرته الشهيرة.

و يبدو أن شخصية الأفغاني أحدثت تأثيراً كبيراً في نفس رينان حيث تخيّل واحدًا من (الملاحدة الكبار)٦ وأنه ابن سينا أو ابن رشد و قد بعث حياً من جديد! يقول رينان: «قليلون هم الذين تركوا في نفسي انطباعاً أقوى مما تركه هو. و قد ساقني حديثي معه إلى اتخاذ قرار باختيار الصلة بين الروح العلمية و الاسلام موضوعاً لمحاضرتي في السوربون. فالشيخ جمال الدين الأفغاني متحرر، إلى أبعد درجة، من «الأهواء» الإسلامية (١) و ينتمي إلى تلك الأجناس الإيرانية (٢) النشطة التي تعيش قرب الهند حيث ماتزال الروح الآرية^٦ متقددة تحت القشرة المصطنعة للإسلام الرسمي، و هو يشكل أفضل برهان على صحة البدّهيّة العظيمة التي طالما نادينا بها و هي أن الأديان تقيّم بالأجناس التي تعتنقها. و قد جعلني تحرّرك تفكيره و شخصيته النبيلة الوفية أمثله، وأنا أتحدّث إليه، واحدًا من معارفي القدامى و قد عادت إليه الحياة مثل ابن سينا أو ابن رشد أو سواهما من أولئك الملاحدة^٧ الكبار الذين قاموا بتمثيل تقاليد العقل البشري على مدى خمسة

٦. هذه العبارة تشير، وبما لا يرقى إليه الشك، إلى اتجاه عرقي عند رينان للتمييز بين الأجناس، و تفضيل جنس على آخر حيث يحط هنا من شأن الجنس السامي مقابل إعلاء الجنس الآري.

٧. لا نعرف بالتحديد ماذا عني رينان بكلمة ملاحدة؟ فلا ابن سينا ولا ابن رشد في القرون البعيدة ولا الأفغاني

قرون. و يالها من مفارقة شديدة حين رحلت أقارن بين ظهوره المثير هذا و ما يدور في البلاد الإسلامية الواقعة على ذلك الجانب من بلاد فارس، حيث يندر وجود الفضول العلمي و الفلسفي (١). فالشيخ جمال الدين إنما يشكل أبلى حالات الاحتجاج العرقي - التي يمكن التنويه بها - على الفتوحات القائمة على الدين».

على أي حال فنحن نعمل، هنا على تسليط الضوء مرة أخرى على ما قاله رينان في محاضراته. لقد أقيمت المحاضرة، مثلما نوهنا قبل قليل، على منبر السوربون في التاسع و العشرين من آذار ١٨٨٣ م، و في ذات اليوم نشرت في صحيفة الـ «جورنال دي ديبا».

يدشن رينان محاضراته بالكلام على أحوال الأقطار الإسلامية فيلاحظ أنها تعيش في العصر الحديث خواءً فكرياً و ثقافياً. و هذا عائد إلى الحكم الإسلامي في هذه الأقطار. فالمسلمون مقتنعون، منذ الصغر، بأنهم مكتفون ذاتياً من ناحية العلوم و المعارف «حتى أن الطفل المسلم ينشأ على التعصب معتقداً أنه وصل إلى الحقيقة المطلقة، سعيداً بذلك كأن نقصه و تخلفه امتياز يُرتجى. و هذا الغرور الجنوني هو العيب الجوهرى للمسلم. فالبساطة الظاهرة في دينه توحى إليه باحتقار الأديان الأخرى، و بذلك يحتقر الثقافة و العلم و كل ما يتعلق بأوروبا»^٨.

و يطرح رينان تساؤلاً في وجه الذين كانوا يصيخون السمع إليه فيقول: هل هناك ما يمكن أن نطلق عليه علماً إسلامياً، و إلى أي مدى يمكن أن

في العصر الحديث أدلوا برأى أو بموقف فكري قد نستشف منه دليلاً على إلهامه. و الأرجح أن رينان يقصد بالملاحدين، الفلاسفة. و الكلمة هنا تحمل معنى مجازياً. و قد اطلق رينان من مقولة أن الفلسفة تتعارض في كثير من المواقف مع الدين. و هو في هذا تحديداً ينطلق من تجربة الفلسفة الأوروبية التي لاقت الأمرين على يد الكنيسة.

٨ جمال الدين الأفغاني في رده على أرنست رينان، الأزمنة، مصدر مذكور سابقاً، و ذلك نقلاً عن نص المحاضرة التي نشرتها الـ «جورنال دي ديبا» في كراس خاص من ٢٤ صفحة بعنوان:

يسمح الاسلام بهذا العلم و يتسامح معه؟ وإذا عمل على الإجابة عن تساؤله عاد إلى التاريخ الاسلامي ليقرّ بأن بلاد المسلمين لم تخل يوماً من أبرز العلماء والفلاسفة. وقد حدّد تاريخاً يقع بين القرن الثامن والثالث عشر إذ في هذه الفترة الواقعة بين هذين التاريخين شهد العالم الاسلامي نهضة علمية وفكرية متقدمة، كما أن العالم الاسلامي، في تلك الفترة، تفوق حضارياً على العالم المسيحي. بل إن العالم الاسلامي، إبان تلك الفترة، لم يكن في سائر أرجاء المعمورة ما يناظره ويمائله في نهضته الفلسفية والعلمية.

غير أن هذه النهضة العلمية والفلسفية، كما يلاحظ رينان، سرعان ما ذهبت أدراج الرياح، فأصبحت كلمة فلسفة ترادف كلمة زندقة، وأن لقب فيلسوف يعرّض صاحبه للملاحقة والاضطهاد. ولم يبق هذا السقوط الحضاري منحصراً في الشرق الاسلامي بل تعدّاه إلى الأندلس حيث أصيبت نهضتها الماثلة بالسقوط والاندثار.

ولكن رينان ينصف العرب المسلمين قليلاً إذ يعقّب على هذا السقوط الحضاري بالقول: «ومع ذلك ما كانت أوروبا لتعرف شيئاً عن العلم والفلسفة عند الامّ غريق لولا الترجمات العربية. وما كان الغرب ليعرف شيئاً عن اليونان لولا ابن رشد الذي مات حزيناً مهجوراً في الغرب»^٩.

ولفت رينان نظر المستمعين إلى محاضراته أن الفلسفة لاقت الاضطهاد في البلدان التي تدين بدين الإسلام إلى درجة أنه تمّ منعها في العام ١٢٠٠ م. وسرعان ما برز الأتراک على المسرح حيث طمسوا كل ما يتعلق بالفلسفة والعلم.

وهنا يصل رينان إلى طرح سؤال آخر، وهو إن دلّ على شيء فإنما يدل على أن هذا الرجل كان يضر موقفاً مسبقاً، سلبياً في جوهره ومضمونه، إزاء العرب وحضارتهم. فهو يتساءل: «هل العلم العربي، عربيٌّ بالفعل؟». والجواب الذي قدمه رينان ينطوي على كثير من المغالطات، إذ أنه يقول في الشق الأول من جوابه بأن الفتوحات الإسلامية فرضت (!) اللغة العربية

على البلدان المفتوحة. أما الشق الثاني من الجواب فينكر فيه على فلاسفة من مثل ابن رشد وابن سينا أن يكونوا عرباً، وذلك على الرغم من أنهم كتبوا بلغة العرب. وعلى هذا فإن اللغة التي يستخدمها الفيلسوف أو العالم في كتاباته لا تكني لنسبته إلى جنسية معينة. فأساس هذه النسبة هي الجنس و الموطن الأصلي و يذهب رينان إلى اعتبار الكندي هو الوحيد الذي يمكن أن نطلق عليه لقب «الفيلسوف العربي» على حين أن ما تبقى من أولئك الفلاسفة المنسوبين، خطأ، إلى العرب، إما من فارس أو من آسيا الوسطى أو من إسبانيا «وهؤلاء لم يكونوا عرباً في دمهم ولا كانوا عرباً في روحهم، بل إن اللغة العربية لم تصلح للميتافيزيقيا، وكان فلاسفة العرب عموماً، كتاباً غير لامعي الأسلوب في العربية»^{١٠}.

و انطلاقاً من موقفه المسبق إزاء العرب و المسلمين يتساءل ما إذا كان هذا العلم إسلامياً بعد أن (أكد) على عدم عروبه (ولكن دون أن يقع أحداً و حتى من الفرنسيين أنفسهم كما سنرى بعد حين). و جواب رينان، في هذا الاطار، يمكن أن نلخصه على الوجه التالي: فالإسلام، بما هو روحي و زمني، فرض سلطته على العلوم و الفلسفة، و كانت الاثنتان مضطهدين في ظله. لكنه يميز بين فترتين في تاريخ الإسلام: تمتد الأولى منذ ظهور الدعوة الإسلامية و حتى نهاية القرن الثاني عشر ميلادي. و قد شهدت هذه الفترة ازدهاراً على صعيد الفلسفة و العلوم و المعارف الأخرى. لكن هذا الازدهار جاء على يد الفرق و الشيع المختلفة، و أيضاً على يد المعتزلة الذين كانوا يمثلون في ذلك الوقت نزعة إصلاحية (بروتستنتية).

أما الفترة الثانية فتتمتد من بداية القرن الثالث عشر حتى الوقت الحاضر (أي منتصف القرن التاسع عشر) حيث ساد الحكم المطلق للإسلام فطمس ما عداه انطلاقاً من أنه يمثل في المجتمعات التي دانت به كلاً من السلطتين الروحية و الزمنية. و هذه الفقرة من حديثه يختتمها رينان بالقول: «... و حكم العقيدة الجامدة (١) هو أثقل قيد عرفته البشرية»^{١١}.

و لعل هذا التمييز الذي لاحظته رينان في تاريخ الإسلام حيث انتصفه إلى

نصفين، نصف مؤيد للعلوم والفلسفة ونصف آخر مضطهد لهما، إن هذا التمييز لجهة التاريخ يتبعه بتمييز آخر يتعلق بالاسلام نفسه. فالاسلام إيان عصوره الأولى كان ضعيفاً وغير متماسك، ومن أجل ذلك فقد أبدى تسامحاً إزاء المعارف المختلفة ومن بينها العلم والفلسفة. هذا ما كان في العصور الوسطى وما قبلها. أما عندما اشتد ساعده وأصبح متماسكاً في بُنيته وفي دولته، فقد لجأ إلى اضطهاد هذه المعارف والحد من نشاطها.

هذا موجز ما قاله رينان في محاضراته، بل أهم ما قاله. ولعل نظرة ممعنة في مضمون هذه المحاضرة تجعلنا وجهاً لوجه مع عدد من الحقائق. أولى هذه الحقائق أن أرنست رينان يعتبر رمزاً لتيارٍ فكريٍّ انتشر في فرنسا والغرب إيان القرن الماضي. أما مضمون هذا التيار فهو التمييز بين الأمم والشعوب على أساس عرقيٍّ. وهذا ما يبدو واضحاً في تمييزه بين الفرس (الآريين) القادرين على أن ينهضوا بأمور العلم والفلسفة، وبين العرب (الساميين) الذين لم يمنَّ عليهم الله بهذه النعمة!

ثاني هذه الحقائق أن رينان يطلق لقب الملاحدة على أناس لا ينطبق عليهم في أي حال من الأحوال. وعلى الرغم من المعنى الجاهلي لهذه الكلمة فإن أرنست رينان تسرع كثيراً في استخدامها لأنها تشير إلى أناسٍ يحملون أفكاراً تتناقض مع الدين الأمر الذي لا ينطبق لا على ابن رشد ولا على ابن سينا أو الأفغاني. وهذا دليل، من بين أدلة أخرى، على أن رينان غير مطلع بما فيه الكفاية على الفكر الفلسفي لكل من هؤلاء، علماً أن هؤلاء الثلاثة انطلقوا في عملية التفلسف من الخلفية التي أمتها لهم الدين الإسلامي. ولا بد أن نذكر في هذا المجال المجهود الفذ الذي بذله ابن رشد للتوفيق فيما بين الدين والفلسفة والبرهنة على عدم تعارضهما، وذلك في دراسته الشهيرة بعنوان: «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال»^{١٢}. ولعلنا لانغلو في القول أن التيار الذي أسس له ابن رشد، وهو تيار التوفيق بين الدين و

١٢. راجع هذا الكتاب والدراسة المرفقة به للدكتور محمد عهارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٦ م، ١٠٢ صفحة.

الفلسفة أوبين الحكمة والشرعية، لا يزال مفعوله سارياً إلى الآن في بعض الأدبيات الفلسفية المعاصرة.

ثالث هذه الحقائق أن اضطهاد الفلسفة والعلم في البقعة العربية الإسلامية لم يأت نتيجة علة في الإسلام نفسه، ماثلاً صورها لنا أرنست رينان (وهو ينطلق هنا من رأي جاهز ومسبق ومعادٍ لأي دين بوصفه خصماً ومنكلاً بالفلسفة، وذلك انطلاقاً مما حل بالفلسفة الأوروبية على يد الكنيسة) وإنما في السلطة السياسية، في فترات تاريخية معينة؛ وهي التي نكّلت بالفلسفة والعلم حفاظاً على مصالحها لأعلى مصالح الإسلام. وهنا لابد من رؤية خلل آخر في محاضرة رينان. فهو لم يرجع إلى النصوص الإسلامية الرسمية (من قرآن وحديث) لمعرفة ما إذا كانت تحض على العلم وحرية التفكير أم لا. بل إن رينان استسهل الأمر وبني حديثه على فترات في التاريخ الإسلامي شهدت ضموراً في الخطاب العلمي والفلسفي، وعلى هذا فقد تناسى الأساسي والثابت وركز على المتغير والتحول.

رابع هذه الحقائق أن أرنست رينان اعتبر في محاضراته أن العلم في تاريخ المسلمين لم يزدهر إلا على يد الفرق والشيعة (وعلى يد النزعة البروتستنتية المتمثلة بالمعتزلة). وكأننا به يريد أن يقول بأن مثل هذه الأمور، من فلسفة ومعارف وإصلاح ديني، يعود الفضل فيها إلى تلك الفرق التي ظهرت وعاشت في كنف الإسلام. وهي، مثلما نعرف، فرق ذات جذور وخلفيات غير عربية. وهذا تأكيد مرة أخرى على نظراته العرقية وذلك في تمييزه بين العرق السامي والعرق الآري.

رَدّ الأفغاني على رينان

على أي حال فإن الصدي الذي أحدثته محاضرة أرنست رينان عن «الإسلام والعلم» كان كبيراً جداً سواء وسط المثقفين الفرنسيين أم بين الكتاب والمثقفين العرب والمسلمين المتواجدين آنذاك، في العاصمة الفرنسية. والحقيقة أن الأفغاني لم يعلم بأمر المحاضرة إلا بعد أيام عديدة. فقد لفت انتباهه مقال في جريدة «البصير» كتبه أحد الفرنسيين الجزائريين

وفيه ردّ عنيف على رينان. وهذا الردّ الذي يقول الأفغاني عن كاتبه بأنه «أحد أفاضل الفرنسيين الجزائريين» وقد كتبه حرصاً على المصالح الفرنسية في الجزائر، حمل جمال الدين على الرد عليه في مقال نشرته «البصير». وحمل المقال نفس العنوان الذي اختاره رينان لمحاضراته وهو «الاسلام والعلم»، وقد افتتحه بالآية القرآنية الكريمة: (فاعتبروا يا أولي الألباب).

قال الأفغاني في مطلع مقاله: «إن رينان الفيلسوف قد أتى في باريس، كرسي الحرية، خطاباً (محاضرة) جعل موضوعه الاسلام والعلم، وأظهر فيه أفكاره التي ذهبت به إليها الشواهد التاريخية. وما حاد في خطابه عن سنّة الأدب، وما تجاوز حدود الكمال الذي يقضي به وجوب احترام الأمم في ما تنتحله ديناً».

بعد هذه الكلمات المجاملة دخل الأفغاني صلب الموضوع مبيناً أن «عظاء الأمة الفرنسية» ممتعضون جداً من (الخطاب) الذي ألقاه رينان في السوربون. ويبدؤان مقالة الشخص الفرنسي الجزائري في جريدة «البصير» - وهي التي لفتت انتباهه إلى محاضرة رينان - قد أثلجت صدره إذ استطاع أن يفنّد هفوات رينان «وأقام الأدلة على سقطاته، وذاد عن الديانة الإسلامية، ودافع عن المسلمين، وأبان ما كانوا عليه من الدرجة الرفيعة في الآداب والفلسفة، ما دعاه إلى مقالته هذه الأفضيلة مراعاة الأمم في أديانها وحسن السياسة».

وفي هذا المقال إلى جريدة البصير (عدد ٣ أيار ١٨٨٣ م) عقد الأفغاني نوعاً من المقارنة بين الفرنسيين أصحاب السياسة الدينية المتسامحة، وبين الإنكليز الذين يتحكمون برقاب خمسين مليوناً من المسلمين وقد أفلتوا عليهم القسس البروتستانت دون أن يميّكّنوهم من الدفاع عن دينهم.

وإذ لم تكن لغته الفرنسية تسعفه على قراءة محاضرة رينان وفهم مصطلحاتها الفلسفية والدينية طالب جمال الدين بترجمتها. وبعد أن تحقق له ذلك وأطلع على المحاضرة بنصها العربي كتب ردّاً مسهباً مفنّداً فيه مزاعم رينان ومبيناً أخطاءه التاريخية والدينية، وهي أخطاء لا تعد. لكن الأقدار السوداء كانت تتربص بالأفغاني مرة أخرى. فقد أقنعه صديقه

خليل غانم، مدير تحرير الـ «جورنال دي ديبا» (وكان أرنست رينان واحداً من كتابها)، بنشر الرد في جريدته. وهكذا اضطر جمال الدين لدفعه إلى الترجمة وبيد خليل غانم نفسه. لكن النص الفرنسي للرد جاء غريباً ومختلفاً كلياً عن النص العربي، بل جاء وكأنه يؤيد - وهذا ليس من طبيعة الرد، أي رد - أقوال رينان ومزاعمه. علماً أن النص العربي للرد اختفى في أدراج الـ «جورنال دي ديبا» ولا يزال مخفياً إلى الآن.

وعلى هذا الأساس فنحن لانملك اليوم سوى النص الفرنسي المنشور في الـ «جورنال دي ديبا» بتاريخ ١٨ أيار ١٨٨٣ م، وهو النص الذي كان سبباً لحملة واسعة من التجني على جمال الدين الأفغاني. وقبل أن نورد عدداً من ردود الفعل على هذه المقالة / الرد، في العالم الإسلامي، وقبل أن نبين بعض مواطن الخلل فيها نرى أن نقتطف أبرز ما جاء فيها:

رَدُّ الأفغاني عَلَى رَيْنَان

«الإسلام والعلم»

[سيدي^١،

طالعت في عدد ٢٩ آذار (مارس) الماضي من جريدتكم الغراء خطاباً (محاضرة) عن الإسلام والعلم ألقاه في السوربون، على جمع من الفضلاء، أكبر فيلسوف في زماننا مسيو رينان الذائع الصيت الذي طبّقت شهرته أرجاء الغرب و نفذت إلى أقصى أصقاع الشرق.

ولما كان هذا الخطاب قد أوحى إلي ببعض الملاحظات، فقد أجزت لنفسي أن أصوغها في هذه الرسالة التي يشرفني أن أوجهها إليكم، راجياً التكرم بإدراجها في أعمدة جريدتكم.

لقد أراد مسيو رينان أن يجلو نقطة ظلت مغمورة حتى اليوم في تاريخ العرب، وأن يلقي ضوءاً ساطعاً على ماضيهم قد يزعج أولئك الذين يحملون إعجاباً خالصاً لهذه الأمة التي لا يمكن الزعم أنها اغتصبت ماسبق أن احتلته في العالم من مكانة و

١. آخر ترجمة لرد الأفغاني على رينان عن الأصل الفرنسي أنجزها الدكتور علي شلش. وقد اعتمدنا هنا ظناً منا أنها الترجمة الأدق؟!]

رتبة. بل إن مسيو رينان لم يَسْخَ قيد شعرة، في اعتقادنا، إلى هدم مجد العرب الذي لا يهدم، وإنما اجتهد في اكتشاف الحقيقة التاريخية والتعريف بها لمن يجهلها، وكذلك لمن يدرس أثر الأديان في تاريخ الأمم، خصوصاً ما هو متعلق بالمدينة.

وأسارع فأعترف بأن مسيو رينان أبلى أروع البلاء في هذه المهمة الشاقة حين أورد بعض الحقائق التي لم يفتن لها أحد حتى اليوم. وأجد في خطابه ملاحظات رائعة ولحات جديدة و سحراً لا يوصف. ومع ذلك فليس أمامي سوى ترجمة أمينة تقريباً لهذا الخطاب. ولو كنت أملك أن أطالعه في نصه الفرنسي، لاستطعت سبر أغوار أفكار هذا الفيلسوف الكبير على نحو أفضل. فإليه أرفّ تحيتي المتواضعة علامة الإجلال الذي هو أهله، و تعبيراً خالصاً عن إعجابي. وأقول له في مثل هذه الأحوال، في النهاية، ما قاله المتنبي، الشاعر الذي كان يهوى الفلسفة، في شخصية رفيعة المقام، مادحاً أفعالها قبل قرون:

خُذْ مَنْ ثَنَانِي عَلَيْكَ مَا أُسْتَطِيعُهُ لَا تَلْزِمْنِي فِي الثَّنَاءِ الْوَاجِبُ^١

لقد اشتمل خطاب مسيو رينان على نقطتين أساسيتين. فقد اجتهد الفيلسوف الأشهر في بيان أن الديانة الإسلامية معادية في جوهرها لتطور العلم، وأن الأمة العربية لا تميل بطبيعتها إلى علم ما وراء الطبيعة ولا إلى الفلسفة. ولعل مسيو رينان يريد أن يقول أن هذا الغرس النفيس قد ذوى على يدها، كأنما صوّحه هبوب الريح في الصحراء. لكن المرء لا يملك، بعد مطالعة هذا الخطاب إلا أن يتساءل: هل صدرت هذه العوائق عن الديانة الإسلامية ذاتها فانفردت بها، أم عن الطريقة التي انتشرت بها في العالم؟ هل صدرت عن طابع الأمم التي اعتنقت هذه الديانة و أخلاقها واستعداداتها، أم عن الأمم التي أكرّمت على اعتناقها؟^٢

١. هذا البيت من قصيدة للمتنبي يمدح فيها علي بن منصور الحاجب، و يقول مظهرها:

بأبي الشموس الجاثجات غواربا اللباسات من الحرير جلّابا

٢. لعل هذه العبارة الواقعة في الشق الأخير من السؤال تقوم دليلاً على أن رد الأفغاني على رينان قد نُشر في

لاشك أن ضيق الوقت هو الذي حال بين مسيو رينان وبين توضيح هذه النقاط. لكن الضرر هنا ليس بالكثير. وإذا كان من الصعب تحديد العلل (الأسباب) بطريقة دقيقة وبراهين لا تقبل الجدل، فمن الأصعب أيضاً الإشارة إلى الدواء. أما في ما يتعلق بالنقطة الأولى، فأقول أنه لا توجد أمة قادرة، عند نشأتها، على الاهتداء بالعقل الخالص. فالأمة التي في مثل هذا الطور تتناها مخاوف لا تستطيع الفكاك منها، فتعجز عن تمييز الخير من الشر ومعرفة ما يكون سبب سعادتها مما قد يكون المصدر الثابت لتعاسها وشقاها، وبذلك لا تدري باختصار كيف تكشف عن العلل (الأسباب) أو تفتن إلى المعلولات (النتائج).

والوقوع في هذه الهوة يعني أنه لا يمكن إنقاذ الضحية بالإكراه أو بالإقناع، ومساعدتها على ممارسة الأعمال التي قد تفيدها أو تفادي ما يضرها. ومن ثمة كان لابد للبشر من أن يبحثوا خارج حدودهم عن ملاذ أوركني هادئ يهجع إليه ضميرهم المذبذب. وهذا ما استوجب ظهور معلم أو أشبه لم يكن يملك - كما ذكرت آنفاً - السلطة اللازمة لإكراههم على اتباع وحي العقل، فقفهم داخل المجهول، وفتح لهم آفاقاً شاسعة سَعَد بها خيالهم، وجدوا فيها على الأقل أرضاً غير محدودة لتطلعاتهم إن لم يكونوا قد وجدوا الإشباع الكامل لرغباتهم. ولما كان البشر، عند نشأتهم، لا يدركون علل الحوادث التي تقع تحت أبصارهم، وكذلك أسرار الأمور، فقد انقادوا بحكم الظروف إلى اتباع نصح معلمهم وتنفيذ أوامرهم. وتم فرض هذه الطاعة باسم الكائن الأسمى الذي نَسَب إليه المعلمون جميع الحوادث دون أن يسمحوا للناس بمناقشة نفعها أو أذاها. وهذه بالنسبة للإنسان، أثقل وأذل عبودية في ما أعرف. لكنني لا أستطيع إنكار أن جميع الأمم ما خرجت من حال الهمجية إلاّ بهذه التربية الدينية، سواء أكانت إسلامية أو مسيحية أو وثنية، وما زحفت نحو مدنية أكثر تقدماً إلاّ بها.

الفرنسية مشوهاً إذ لا يُعقل أن تكون هذه العبارة قد صدرت عن مفكر من وزن الأفغاني الذي يعرف أن أحد أهم المبادئ التي انتشر الاسلام على أساسها هو أن (الإكراه في الدين).

وإذا صحَّ أن الديانة الإسلامية تشكل عقبة أمام تطور العلوم، فهل يمكن الجزم بأن هذه العقبة لن تزول يوماً ما؟ بم تختلف الديانة الإسلامية في هذه النقطة عن بقية الديانات؟ إن جميع الديانات لا تخلو من التعصب^١، ولكل منها طريقها الخاصة في ذلك. فالديانة المسيحية، أعني الجماعة التي تتبع أفكارها و تعاليمها الموحاة وتتشكل على صورتها، خرجت من الطور الأول الذي ألمت إليه قبل قليل، وصارت حرة و مستقلة، تخطو بسرعة على طريق التقدم و العلوم. في حين أن الجماعة الإسلامية لم تتخلص بعد من وصاية الدين. و مع ذلك إذا تذكرنا أن الديانة المسيحية سبقت الديانة الإسلامية في العالم بقرون عدة، فإني لا أنفك أرجو أن تنجح الجماعة المحمدية يوماً ما في تحطيم قيودها (!) و السير بعزم على طريق المدنية، مقتفية خطى الجماعة الغربية التي لم تشكل لها العقيدة المسيحية أي عقبة كؤود على الإطلاق على رغم مما في هذه العقيدة من ألوان القسوة و التعصب (...). و لم ينزع رؤساء الكنيسة الكاثوليكية الموقرون أسلحتهم بعد في ما أعلم. فما برحوا يحاربون بلا هوادة ما يستمونه روح الضلال و الخطأ. و إني لمدرِّك جميع الصعاب التي سيكون على المسلمين تخطيها في سبيل تحقيق الدرجة نفسها من المدنية، و التوصل إلى الحقيقة بمساعدة الأدوات و الطرائق الفلسفية و العلمية.

(...) و أعرف أيضاً أن ذلك الطفل المسلم و العربي الذي يرسم مسيو رينان صورته بكلمات نابضة و الذي يصبح في وقت لاحق، كما يقول، «متعصباً مزهواً بحيازة ما يعتقد أنه الحقيقة الكاملة»، إنما ينتمي إلى جنس ترك آثار خطاه في الدنيا، لا بالنار و الدم و حدهما، و لكن بأعمال فذة و خصبة تدل على تذوقه للعلوم، كل العلوم، بما فيها الفلسفة التي يجب أن أعترف بأنه عجز طويلاً عن تدبير شؤونها.

١. هذا رأي لا علاقة للأفغاني به كما نعتقد، إذ أن المطلع الجيد على أفكاره يعرف أنه يقف ضد هذا الرأي جملة وتفصيلاً. فهو ينبذ التعصب و يعتبره آفة كبيرة. كما أن الديانات كافة عنده براء من آفة التعصب. و نرجح أن الأفغاني أراد أن ينعت بالتعصب أصحاب هذه الديانات لا الديانات نفسها.

عند هذا الحد أصل إلى الحديث عن النقطة الثانية التي تناوها مسيو رينان. فلا أحد ينكر أن الأمة العربية هرعت إلى طريق التقدم الفكري والعلمي بسرعة لا تعادلها إلا سرعة فتوحاتها. فعلى مدى قرن من الزمن اكتسبت واستوعبت معظم العلوم التي كانت عند الإغريق والفرس، والتي طوروها تدريجاً خلال قرون على أراضيهم في الوقت الذي مدّت (هذه الأمة) سيطرتها على شبه الجزيرة العربية إلى جبال الهملايا وقمة جبال البرانس.

لعلني أقول إن العلوم، خلال تلك الفترة كلها، حققت بغير شك، تقدماً مذهماً عند العرب، في جميع الأقطار الواقعة تحت سيطرتهم. وكانت روما وبيزنطية عند ذاك مقر علوم اللاهوت والفلسفة والمركز المشرق الوهاج للمعارف البشرية كلها. وكان الإغريق والرومان سلكوا سبيل المدنية طوال قرون وثاروا واثقين مطمئنين على أرض العلم والفلسفة الشاسعة. ومع ذلك جاء عليهم حين من الدهر أهملت فيه بحوثهم وقُطعت دراساتهم وسقطت آثارهم التي أقاموها شاهداً على العلم، وطوى النسيان مؤلفاتهم القيمة. لكن العرب تبنوا ما أهملته الأمم المتقدمة وأضرموا، من جديد، نار العلوم المطفأة وطوروها وأضفوا عليها تألقاً لم تتمتع به من قبل. أو ليس هذا علامة وبرهاناً على حبهم الفطري للعلوم؟ صحيح أن العرب أخذوا عن الإغريق فلسفتهم مثلها جردوا الفرس مما اشتهروا به خلال العصور القديمة. لكن هذه العلوم (...) تطورت على أيديهم وتوسّعت وتوضحت وكملت واكتملت وتناسقت بذوق سليم وبدقة وضبط نادّرين.

أما الباقون، مثل الانكليز والألمان، فلم يكونوا بعيدين عن روما وبيزنطية بمقدار بُعد العرب عنها يوم كانت حاضرة هؤلاء بغداد. وكان من الأيسر على أولئك (الأوروبيين)، والحال هذه، أن يستغلوا الكنوز العلمية التي دُفنت في هاتين المدينتين العظيمتين^١. بيد أنهم لم يبذلوا أي جهد في هذا الاتجاه، حتى جاءت المدينة

١. فات المترجم لنص الأفغاني أن روما وبيزنطية ليستا مدينتين. فنحن نقوله بأن الأولى كانت بالفعل مدينة

العربية فأضاءت بأنوارها ذرى جبال البرانيس، وصبت على الغرب سناها وغناها. ورحب الأوروبيون بأرسطو الذي كان قد هاجر و صار عربياً، لكنهم لم يفكروا فيه على الإطلاق يوم كان يونانياً و جاراً لهم. أليس هذا برهاناً آخر لا يقل نصوعاً، على التفوق الفكري عند العرب و ارتباطهم الفطري بالفلسفة؟

و الحق أنه بعد سقوط المملكة العربية في المشرق و المغرب سقطت الأقطار التي كانت قد صارت مراكز كبيرة للعلم، مثل العراق و الأندلس، فريسة للجهل مرةً أخرى، و أصبحت مراكز للتعصب الديني. لكن المرء لا يمكن أن يستخلص من هذه الصورة المحزنة سوى أن التقدم العلمي و الفلسفي في العصور الوسطى كان مصدره الأمة العربية التي سادت في ذلك الزمن.

إن مسيو رينان ينصف العرب في هذا. فهو يعترف بأنهم حافظوا على مشعل العلم و صانوه طوال قرون. فيا لها من رسالة نبيلة لأمة من الأمم. غير أنه في الوقت الذي يسلم بأن الأقطار الإسلامية شهدت علماء و مفكرين ناهيين للغاية منذ العام ٧٧٥ تقريباً حتى قبيل منتصف القرن الثالث عشر، أي خلال نحو ٥٠٠ سنة، و يسلم أيضاً بأن العالم الإسلامي كان خلال تلك الفترة متفوقاً في الثقافة العقلية على العالم المسيحي، إذا به يقول أن فلاسفة القرون الأولى من تاريخ الإسلام، و كذلك رجال الدولة، كانوا في معظمهم من حران و الأندلس و إيران. و لقد كان من بينهم أيضاً رجالاً من أبناء ماوراءالنهر (أي كازخستان و تركستان)، و أحبار من نصارى الشام. و لست أبغي أن أعظم علماء الفرس حقهم من السجاياء العظيمة، و لا أن أقلل من الدور الذي لعبوه في العالم العربي. و لكن لا بد من أن أقول أن الحرانيين كانوا عرباً، و أن العرب لم يفقدوا جنسيتهم (قوميتهم) حين احتلوا إسبانيا و الأندلس بال

→

على حين كانت الثانية (أي بيزنطية) إمبراطورية عاصمتها القسطنطينية. و إذا كان قد فات المترجم هذا الأمر فنحن نستبعد أن يفوت الأفغاني. و هذا دليل آخر على خلل الترجمة.

ظلوا عرباً. وقد كانت العربية لغة الحرائين قبل قرون من ظهور الاسلام. أما كونهم احتفظوا بديانتهن السابقة، و هي الصابئية، فلا يعني أن نعهدهم غرباء عن الجنسية العربية، بل إن أحبار الشام أيضاً كانوا، في معظمهم، عرباً غساسنة اعتنقوا المسيحية. و أما فيما يتعلق بابن ماجة و ابن رشد و ابن طفيل فلا يمكن القول أنهم أقل عروبةً من الكندي لأنهم لم يولدوا في الجزيرة العربية، ولا سيما إذا أخذنا في الاعتبار أن الأجناس البشرية لا تتميز بلغاتها، وأنه إذا اختفى هذا التمييز فلن يطول الزمن بالأمم حتى تنسى أصولها المتعددة. فالعرب الذين تكاثفوا في خدمة الديانة الاسلامية، و كانوا في الوقت ذاته من المقاتلين و الصحابة، لم يفرضوا لغتهم على المغلوبين، و إنما حافظوا عليها لأنفسهم، و فعلوا ذلك بعنايةٍ غيور في كل مكان حلوا به و ثبتوا أقدامهم فيه. ولاشك أن الاسلام غرس لغته و أخلاقه و مذهبه في الأقطار التي تغلغل فيها بالفتح ذي العنف المعروف. و منذ ذلك الحين لم تستطع هذه الأقطار أن تتقي أثره. و إيران مثال على مانقول. و لكن إذا عدنا إلى القرون التي سبقت ظهور الاسلام، لأمكن أن نجد اللغة العربية غير مجهولة تماماً عند العلماء الفرس. و الحق أن توسع الاسلام أتاح لها مجالاً جديداً و رأى العلماء الفرس الذين اعتنقوا العقيدة المحمدية الشرف في أن يؤلفوا كتبهم بلغة القرآن.

ولاشك أن العرب لا يستطيعون أن يدعوا لأنفسهم المجد الذي جعل هؤلاء الكتاب لامعين. لكننا نعتقد أنهم ليسوا في حاجة إلى مثل هذا الادعاء. فعندهم ما يكفيهم من العلماء و الأدباء المشهورين. و ماذا يحدث لو عدنا إلى العهود الأولى للسيطرة العربية و تتبعنا، خطوة فخطوة، أول مجموعة شكلت هذه الأمة الفاتحة التي بسطت سلطانها على الدنيا، و استبعدنا كل ما هو غريب عن هذه المجموعة أو المتحدرين منها، و لم نضع في حسابنا الأثر الذي أحدثته في العقول و لا الحافز الذي أتاحته للعلوم؟ ألا يؤدي بنا هذا، إذاً، إلى عدم الاعتراف للأمم الفاتحة بسجايا و مزايا غير تلك التي تنشأ عن الحقيقة المادية المتمثلة في الفتح؟ لو اتبعنا

هذه الطريقة لاستعادات جميع الأمم المغلوبة استقلالها المعنوي الذاتي، ونسبت إلى نفسها كل المجد، ولم يبقَ للقوة التي احتضنت بذوره وطورتها حق شرعي في ادعاء أي تنفّعه منه.

بهذا المنطق ستقول إيطاليا لفرنسا أنه لا مازاران ولا بونابرت^١ ينتميان إليها، وسوف تطالب ألمانيا أو إنكلترا، بدورهما، بالعلماء الذين رحلوا عنها إلى فرنسا وجعلوا كراسي الأستاذية فيها لامعة وزادوا تألق شهرتها العلمية. وسوف يطالب الفرنسيون، من جانبهم، بمجد أبناء تلك الأسر الشهيرة التي هاجرت إلى جميع أنحاء أوروبا عقب صدور مرسوم «نانت»^٢. وإذا أمكن الادعاء بأن الأوروبيين جميعاً ينتمون إلى سلالة واحدة لأمكن الادعاء، عن عدل، بأن الحرانيين والشاميين - وهم ساميون - ينتمون، على قدم المساواة، إلى الأسرة العربية الكبيرة.

غير أنه يحق للمرء أن يتساءل عن سر اندثار المديّة العربيّة فجأة بعد أن ألقّت نوراً باهراً كهذا على الدنيا، وكيف لم تُضأ هذه الشعلة منذ ذلك اليوم، ولماذا يعيش العالم العربي مدفوناً على الدوام في ظلمات حالكة؟

وهنا تتجلى مسؤولية الديانة الاسلامية كاملة (١). فمن الواضح أنه حينما استقر لها الأمر سعت إلى طمس العلوم. ويروي السيوطي أن الخليفة الهادي^٣ أمر بقتل خمسة آلاف فيلسوف (١) في بغداد حتى يستأصل بذرة العلوم في الأقطار الاسلامية. وإذا سلّمنا بأن هذا المؤرخ بالغ في تقدير عدد الضحايا، فحكمه على

١. يقصد الأفغاني جيل مازاران (١٦٠٢ - ١٦٦١ م) وقد كان كاردينالاً إيطالياً عينه لويس الرابع عشر وزيراً له وكان الحاكم الفعلي، في فرنسا على مدى فترة طويلة.

ونابليون بونابرت (١٧٦٩ - ١٨٢١ م) إمبراطور فرنسا، وهو من أصل إيطالي ومن كورسيكا بالتحديد.

٢. هو المرسوم الصادر في العام ١٥٩٨ م. وقد أصدره في ذلك العام هنري الرابع ملك فرنسا وسمح من خلاله بحرية العبادة للبروتستانت في فرنسا. وبعد قرابة التسعين عاماً أي في العام ١٦٨٥ م عدّل الملك لويس الرابع عشر هذا المرسوم، الشيء الذي حمل عشرات الألوف من الفرنسيين البروتستانت على الهرب إلى خارج البلاد وخاصة إلى إنكلترا.

٣. هل الخليفة الهادي وامثاله في التاريخ الاسلامي هو «الديانة الاسلاميه كامله»؟

وقوع الاضطهاد يبقى صحيحاً على الأقل. وهذه وصمة ملطخة بالدم في تاريخ الديانة و تاريخ الأمة سواء بسواء (!) وأستطيع أن أجد في ماضي الديانة المسيحية حقائق مشابهة. فالديانات كلها متشابهة، أياً كان الاسم الذي تُعرف به. وليس من الممكن تحقيق الاتفاق ولا المصالحة بين هذه الديانات والفلسفة. فالديانة (تفرض) على الانسان تحريراً عقيدتها واعتقادها، في حين أن الفلسفة تحرره من ذلك كاملاً أو جزئياً. فكيف إذاً يرجو المرء أن يحل الاتفاق بينها؟

حين دخلت الديانة المسيحية، في أشد صورها تواضعاً وإغواءً، أثينا والإسكندرية اللتين كانتا كما يعرف الجميع، المركزين الأساسيين للعلم والفلسفة، وبعد ما ثبتت قدمها في هاتين المدينتين، كان ههما الأول أن تقصي العلم والفلسفة الحقيقيين. فسعت إلى خلق هذا و تلك تحت الأشجار التي أظلت المناقشات اللاهوتية، من أجل تفسير الأسرار التي لا يمكن تفسيرها في ما يتعلق بالتثليث والتجسد والاستحالة^١. وهكذا الحال دائماً. فكلما كانت اليد العليا للديانة، انقرضت الفلسفة. ويحدث العكس حين تحكم الفلسفة وتسود.

وما بقي البشر على قيد الحياة فلن يتوقف الصراع بين الجمود (!) والبحث الحر. وهو صراع بائس أخشى ألا يكون النصر فيه للفكر الحر لأن العائمة تكره العقل الذي لا يفقه تعاليمه إلا بعض الأذكياء من الخاصة، ولأن العلم أيضاً، بالرغم من جماله، لا يدخل الاشباع الكامل على البشر الذين يتعطشون إلى المثل العليا و ينزعون إلى الغرس في المناطق المظلمة النائية... وهذه لا يملك الفلاسفة والعلماء أن يدركوها ولا أن يرتادوها.^٢

١. التثليث، لدى المسيحيين، هو الاعتقاد أن الله واحد ذو أقانيم ثلاثة: الأب والابن والروح القدس. والتجسد هو اتحاد الطبيعتين الإلهية والإنسانية في يسوع المسيح. والاستحالة هي تحول الخبز والخمر في المناولة إلى جسد المسيح ودمه (انظر: علي شلش، مصدر مذكور، ص ٦٦).

٢. ترجمة مفرضة:

٢. ترجمة مغرضة:

إن نظرة متأنية إلى رد الأفغاني على رينان تحملنا على الاقتناع بأن ثمة مكيدة أخرى تعرض لها الرجل في باريس (كرسي الحرية). ولنا نستبعد بأن تكون إدارة التحرير في صحيفة الـ «جورنال دي ديبا» هي وراء المكيدة. وإلا لما ذالم يُسمح للأفغاني بتوضيح موقفه بعد نشر الرد محرّفاً ومشوهاً وقد تعرض للحذف والإضافة وهما الشيئان اللذان كان الأفغاني يشكو منها الأمر الذي حمل جريدة الـ «انترنازيونال» - وهي الجريدة التي انتقل الأفغاني للكتابة فيها بعد امتناعه مما حصل له مع الـ «جورنال دي ديبا» - ... مما حملها على تصدير مقالته المسلسلة حول المهدي (بتاريخ ٨ و ١١ و ١٧ كانون الأول ١٨٨٣ م) بالقول أنها «تنشر هذه الدراسة كما هي دون إضافة أو حذف»!

ولعل الشيء الذي يجعلنا على قناعة تامة بأن جمال الدين، و نظراً إلى تأثيره المتفاقم في البلدان الإسلامية وصوته المسموع داخل الحركات السياسية في هذه البلدان، كانت تترقب به الأقدار السوداء في باريس مثلما تربصت به في مصر وإيران والهند والآستانة. فالمطلوب إزالة هذا الرجل، كوجود سياسي ومعنوي، وذلك لا يتم إلا بتسويد صفحته بين المسلمين. و جمال الدين، صاحب التاريخ السياسي المبني على الأيديولوجيا الإسلامية وقد ذهب إلى باريس لقرّبا من الشرق وكما يساهم في نهضة المسلمين ويقتطعهم ... إن رجلاً هذا شأنه لا يمكن أن يوافق أرنست رينان في رأيه عن الإسلام وموقفه من العلم. وقد رأينا كيف تحدث عن هذا الموضوع في مقالته القصيرة المنشورة في جريدة «البصير» عن امتعاض وغضب «عظماة الأمة الفرنسية» مما جاء على لسان رينان بخصوص الإسلام... فكيف عن امتعاضه وغضبه هو بنفسه!

إن الأفغاني، وهو الذي عُرف بطيبته ونبله ونفته بالآخرين، وضع النص العربي للرد في عهدة (صديقه) خليل غانم، فكان أن حُذِفَت أشياء وأضيفت أشياء وحُرِّفَت أشياء وأشياء. وكل ذلك من أجل قطع الصلة بين الأفغاني وبين المسلمين وهو الذي أصبح - بعد الرد على رينان - متهماً بأنه طعن بالإسلام الذي خنق الفلسفة والعلم.

ولعل قراءة نقدية واعية لرد الأفغاني على رينان، بنصه الفرنسي، ربما أخرجت الكثيرين من الحيرة التي تخبطوا فيها طويلاً. فالأفغاني يتساءل في مطلع رده على رينان قائلاً: «هل صدرت هذه العواطف (المعادية للعلم بنظر رينان) عن الديانة الإسلامية ذاتها فانفردت بها أم عن الطريقة التي انتشرت بها في العالم؟ هل صدرت عن طابع الأمم التي اعتنقتها وأخلاقها واستعداداتها أم عن الأمم التي أكرهت على اعتناقها؟

إن الملفت في هذا التساؤل وقد طرحه رينان ولم يُجب عليه من أجل تعميق الشك في النفوس، هو أن الأفغاني أيضاً طرحه في سياق تفنيد أقوال رينان ومزاعمه لكنه أيضاً، لم يقدم جواباً. فكيف يكون الرد إذن وما عسى يكون معناه ما لم يقدم أجوبة عن الأسئلة المطروحة علماً بأن الأفغاني كان بإمكانه، واستناداً إلى النصوص الإسلامية الرسمية من قرآن وحديث، تقديم جواب كافٍ ووافٍ وبالشكل الذي يدحض مزاعم رينان. ونحن هنا أمام احتمالين لاثالث لهما: فإما أن الأفغاني لم يطرح هذا التساؤل إطلاقاً في النص العربي (وإلا لكان أجاب عنه).... وقد أضيف إلى الترجمة الفرنسية، وإما أن يكون قد أجاب عنه، لكن الجواب حُذِف!

ولو افترضنا جدلاً أن الأفغاني طرح هذا التساؤل دون أن يجيب عنه مثلما فعل رينان، وهذا أمر مستبعد، فإنه يوضح لنا نظرة الأفغاني لهذه المشكلة، أي مشكلة الإسلام والعلم. فالأفغاني يفصل بين الإسلام وبين المسلمين، أو بين الديانة وبين معتنقيها. فليست الديانة (الدين) هي التي عوّثت العلم والفلسفة ومنعت ازدهارها بل إن السبب يعود إلى معتنقي هذه الديانة. أما بالنسبة للبقعة العربية الإسلامية فليست الديانة هي التي عرقلت مسيرة العلم وإنما هم المسلمون أو بعضهم. أما سبب ذلك فهو ليس دينياً بقدر ما هو سياسي محض

يتصل بتكريس السلطة السياسية و بترسيخ أقدامها.

ولدينا من الواقع ما يجعل الترجمة الفرنسية للرد موضع شبهة. فالأفغاني بعد أن نُشر رده مترجماً عرف من طريق أحد المتضلعين في هذه اللغة ما أصاب مقاله من تحريف وتشويه وما تضمنه من أخطاء. و يبدو أنه عرف أيضاً بأن إدارة الـ «جورنال دي ديبا» أدارات له ظهر الجنب وهي، بالتعاون مع أطراف معينة داخل باريس وخارجها، ترمي إلى تشويه صورته في العالم الإسلامي. ومن أجل ذلك أسرع الأفغاني و بعث بنسختين من العدد المنشور فيه رده والمؤرخ في ١٨ أيار ١٨٨٣ م إلى تلميذه محمد عبده. وقد أرفق هاتين النسختين برسالة بخط يده يوضح فيها أن الرد على رينان أصابه تشويه كبير وتضمن أخطاء كثيرة. و ظن محمد عبده أن ما يتحدث عنه استاذة من تشويه وأخطاء إنما يتعلق باللغة وبأخطاء مطبعية وهي شيء ما لوف في الصحافة، فأوكل ترجمة الرد إلى العربية إلى صديقه حسن بهيم. وبعد أن أنهى هذا الأخير المهمة الموكولة إليه عرف محمد عبده إلى م رمى إليه استاذة لجهة التشويه والأخطاء؟ فحمد الله لأن الرد لم يقع في أيدي أخرى ولأنه أوكل الترجمة إلى حسن بهيم صاحب اللسان الدافئ... وهكذا اندفع المكروه! ...

... لقد أخذ محمد رشيد رضا على المحاضر في مقالة له نشرتها «الأهرام» أنه لم يتمكن من تقديم أفكار رينان أو أفكار الأفغاني. كما أنه ارتكز في حديثه عن الأفغاني على ترجمة عربية مأخوذة في الوقت عينه عن ترجمة المانية لرد الأفغاني على رينان. وقد تساءل محمد رشيد رضا ما إذا كان مضمون رد الأفغاني قد حافظ على حاله بعد كثرة النقل من لغة إلى لغة.

واستناداً إلى الشيخ محمد عبده الذي يعرف فكر الأفغاني كما لا يعرفه أحد مثله تحدث رضا عن رأي الأخير في الاسلام وعلاقته بالعلم، وذلك في مقال آخر و مطول نشره في مجلة «المنار». و بما قاله: «إن الاسلام دين العقل والحكمة والفلسفة الصحيحة، وأنه لولا تأثير هدايته لما انتقل العرب من الأمية إلى أعلى مما كان عليه جميع البشر في كل علم وكل فن وكل نظام وكل عمران، في مدة جيل واحد، حتى سادوا الفرس والروم والأوروبيين وغيرهم. و هل يعقل أن تلك الشراذم التي خرجت من جزيرة العرب حفاة عراة، لا يعرفون من العلم شيئاً غير القرآن، ولم يكن كل واحد منهم يحفظه كله، يكن أن تدوّن كل هذه الأمم وتسودها وتسوسها، من ساحل المحيط الأطلسي إلى الشرق الأقصى، و تخضعها لدينها ولغتها بالسيف!»

ونقلًا عن الشيخ محمد عبده فيما رواه له عن موقف الأفغاني، يستطرد رضا: «لكن المسلمين ابتدعوا في الاسلام بدعاً كثيرة، لم يمكن تداركها بسبب فساد نظام الخلافة وإخراجها عن أصلها الذي يُشترط فيه العلم الاستقلالي والعدالة. وبهذا الابتداع الذي صار لإسلام القرآن فيه غير إسلام المنتمين إليه، أضاعوا العلم به، ثم عادوا كل علم، حتى صاروا إلى ما كان يسمى السيد (جمال الدين) لتلافيه وتداركه. فكانه يقول لرينان: كل ما ذكرت من عداوة الاسلام للعلم، مما تكرر الشواهد عليه في التاريخ وإن كانت قليلة في عهد الإسلام بالنسبة إلى غيره من الأديان، فهو الإسلام الذي فهمه خطأ أولئك الذين عادوا العلم والعقل والحضارة، لإسلام القرآن الذي يغتاب العقل ويرفع شأن العلم في آيات كثيرة، و يبين أن لله سنناً في الكون قام بها نظامه، وأن هذه السنن لا تبدل لها ولا تحوّل».

وعمل رضا على الربط بين ما جاء في (الرد) وبين كتاباته السابقة سواء في «العروة الوثقى» أو في غيرها ليجد أن ثمة تناقضاً كبيراً فيما بين الاثنين. ويذكر نقلاً عن محمد عبده أن جمال الدين لطالما ردّد في مجالسه الخاصة بالقاهرة أن «الاسلام المزوج بالبدع هو ذلك الذي اضطهد بعض أهله رجال العلم». وإذا اعتبر رضا أن الرد

يكون تنقيداً لا تأييداً مثلما درجت العادة أكد على أن الأفغاني بثه رينان إلى «أن المسلمين قد وُجد منهم كثيرهم في نشأة الاسلام الأعجمية في النصف الثاني من حياته ما خنق الحركة العلمية. فكل ما أسنده إلى الاسلام موافقاً لرينان يُراد به الاسلام الأعجمي المشوه بالبدع، لا الاسلام العربي المنصوص في القرآن والسنة، وإلا كان كلامه متناقضاً»^٣.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل إن الأمير شكيب أرسلان (١٨٦٩ - ١٩٤٦ م) وهو الذي عرف الأفغاني في أواخر حياته بادر إلى الادلاء بدلو، فوجه رسالة إلى رشيد رضا مؤرخة في ١٢ أيار ١٩٢٤ م يشرح فيها موقفه من هذه المسألة. وما قاله أرسلان: «... والذي أظنه هو أن السيد جمال الدين حرر رده على رينان بالربية، ثم دفعه إلى مترجم مثل أنيس شعادة أو غيره (تبين فيما بعد أن مترجم الرد هو خليل غاتم نفسه) لأجل أن يضعه في قالب فرنسي. فالمترجم، الذي لا أقدر أن أعرف من هو، ترجم بعض كلمات جمال الدين بغير ما يجب أن يترجمها به، وتصرف في التعبير. وربما كان المترجم هو نفسه متشيعاً بفكرة رينان، غير مقتنع بكلام جمال الدين، فلم يثق بالمتن الجسالي التقيّد الكافي، ولا أدى الأمانة في النقل حقها. فوقعت هناك ألفاظ لو فهم السيد جمال الدين حقيقة مرماها لأنكرها وغيّرَها في حينها... فلا عجب أن تكون الترجمة الفرنسية التي صدرت تحت إمضاء جمال الدين تنقيد أشياء لم يرُدّها هو. ومن تأمل في كون هذه المقالة ظهرت في جريدة «الديار»، وكان يعلم دأب هذه الجريدة من دس السم في كل ما يتعلق بالاسلام، قلّ عجبه مما يكون قد ورد في مقالة جمال الدين مما لا يطابق ما سمعناه منه»^٤.



سوف نجزم هنا - ولكي لا تُثقل على النص و على القارئ معاً - عن الإسراف في جرد كل أو أغلب الأصوات التي جاهرت بالدفاع عن جمال الدين الأفغاني. يكفي أن نضيف إلى محمد رشيد رضا وشكيب أرسلان، وهما زمان كبيران من رموز النهضة في القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن، أحمد أمين الذي كتب سلسلة من المقالات في مجلة «الثقافة» ضمّنها دفاعاً موضوعياً، مدّعماً بالمحجج والقرائن، عن الأفغاني^٥. ونستطيع أن نضيف أيضاً محمد حامد الله الذي كتب مقالة هامة عام ١٩٥٨ م بالانكليزية عنوانها: «أرنست رينان و جمال الدين الأفغاني: يمثلان رئيسيان لثقافتين» حيث حاول البرهنة على أن رينان (اختلق) رد الأفغاني عليه. وقد أطلق حامد الله في محاولته تلك من أن ثمة مقتطفات وعبارات في ما سمي بـ «رد الأفغاني» يستحيل أن تصدر عنه...^٦

٣. المصدر السابق، ص ٣١٥.

٤. أمير البيان شكيب أرسلان، أحمد الشرباصي، مطابع الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٣ م، ص ٦٥٤.

٥. انظر: أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٥ م، ص ٥٩ - ١٢٠.

٦. سمير ابو حمدان: جمال الدين الأفغاني وفلسفة الجامعة الاسلامية، ص ١٥٧ - ١٧٠.

٢١

الاسلام والعلم
فاعتبروا يا اولي الأبصار

الاسلام والعلم

فاعتبروا يا أولي الأبصار

إن رنان الفيلسوف قد ألقى في باريس، كرسي الحرية، خطابا جعل موضوعه الاسلام والعلم، وأظهر فيه أفكاره التي ذهبت به إليها الشواهد التاريخية. وما حاد في خطابه عن سنة الأدب، وما تجاوز حدود الكمال الذي يقضي بها وجوب احترام الأمم في ما تنتحله ديننا.

و مع ذلك فقد امتعض كثير من عظماء الأمة الفرنسية وتجهموا من مقاله، وحسبوه خروجاً عن النصفة، و مروقا عن محيط العدل في الحكم، و تعديا على حقوق من يجب رعايته عليهم من المسلمين عموما، و سكان الجزائر و تونس خصوصا، حتى قام من هذه الأمة الشريفة من له الكلمة العالية في الحكومة، و كتب مقالة تذر فيها من خطاب رنان، و بين هفواته، و أقام الأدلة على سقطاته، و ذاد عن الديانة الاسلامية، و دافع عن المسلمين، و أبان ما كانوا عليه من الدرجة الرفيعة في الآداب و الفلسفة. و ما دعاه الى مقالته هذه إلا فضيلة مراعاة الأمم في أديانها، و حسن السياسة. و ما يقدر هذا الكمال أحد حق قدره إلا إذا نظر إلى الأئمة الانكليزية، و تتبع معاملتها مع المسلمين في الهند. إن الانكليز تحكم خمسين مليوناً

من المسلمين. ولا ترى لهم على نفسها حقاً، ولا يختلج ببالها وجوب مراعاتهم، ولا احترام ديانتهم. إن قسس الأبروتستانت المغرورين يقومون في شوارع البلاد الهندية على سوقهم، ويطعنون في الديانة الاسلامية طعناً تقشعر منه الأبدان، ويفتعلون من الأراجيف ما تصطك منه الآذان، ويختلقون أقوالاً يستبشعها الأوباش، وينسبون الى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في رسائلهم من الشنائع والفظائع ما تنبو عنه الطباع. وكل هذه بمرأى من الحكومة، ومسمع من الأمة الانكليزية. وما تسمع من أحد منها إنكاراً، ولا ترى في وجوهها من هذه التعديات اغبراراً.

وميزان الحق، والمسيح الدجال^١، وغيرهما من الرسائل المحشوة بالسب والشتم والقذف في شارع الديانة الاسلامية تنبشك عن كيفية معاملة الإنكليز مع مسلمي الهند، ونهج مراعاتهم. وإذا قام أحد من علماء المسلمين لأن يعارض هؤلاء القسس * بكتب رسالة، أو إلقاء مقالة يلقي عليه القبض بدعوى إثارة الفتنة، ويرسل بلا محاكمة الى جزائر أندمان^٢. إن المولوي رحمة الله الهندي ماهر ب إلى مكة المكرمة إلا بهذه التهمة التي تسببت عن المباحثات الواقعة بينه وبين القس فنذكر الأبروتستانت. وإن جواد الساباط ما قرأ ليلاً من الهند إلى جاوة إلا لتأليف البراهين الساباطية رداً عن دينه ورداً لأراجيف القسس الانكليزية. * فأنظر أيها البصير الى التفاوت الكائن بين هاتين الأمتين، وأنصف.

١. ميزان الحق والمسيح الدجال عنوانا كتابين في التبشير المسيحي في الهند في ذلك الوقت.

* المراد: القساوسة - كما هو الدارج اليوم.

٢. كانت هذه الجزر النائية في المحيط الهادي مكاناً ينفي إليه الأحرار الهنود وزعماء المسلمين.

* ظهرت هذه المقالة للسيد جمال الدين الحسيني. بمريدة «البصير» في ٣ مايو ١٨٨٣ م.

٢٢

وئائق

باب ما يؤول اليه امر المسلمين في التجمل

اذا نظرنا الى الحالة التي امنت رايانا هناك ان الادوان لتكلم في مستقبل الاسلام فان اخطاطهم في زمن السلطان سليمان المسمى بالمشيخ من يوم حصار مدينة ويانه في سنة ١٥٦٧ لم ينزل بغير شيئا قسريا حتى يله او اخرا القرن الاخير اي عهد السلطان محمود الثاني الذي بلغت رجال دولته اعلى درجة التأخير وتمكنت بعد الانكيز والمكسوا والعربا ويرة على كثير من المسلمين وبقي معظم اهل الاسلام يخبطون في الجهل منتظرين سقوط المملكة التركية تحت صولة الافلاس والحروب الباطنية والحروب الخارجية التي تفتي من حصول النظر فيها فضلا عن الهزيمة على تلك المملكة التركية هي التي ورثت الملك من خلفاء الدين رأت لهم الارض باجمعها وخضعت لهماها الملك اورد باصياحا ودموعها في اللات حصن غير منيع لحفظ شوكة الاسلام ووقاية واهية للنجى والالتزام

فاختلج لك بما تؤول اليه امر المسلمين وهي في تلك من تلك الاحوال وضيق من عدم تحققات الآمال افترط بها لك ان يقال ان هذا الدين يتلاشى وان اخذ من عند مضي او غلظ بها لك ان فيه لكناية لتنظيم احواله ورجوعه الى قوته مشاكسة ويكون معين على نشر اخذ في جميع اقطار الدنيا فها كانت مسلمين خاصين بجال الاسلام وما يؤول اليه بالنسبة لا صلاح شؤونه في مستقبل وبالنسبة لبيعة النصارى الذين تحت حكومة الاسلام رجا

فان المستعان لهما دخل عظيم في المسئلة الشرقية التي لا تحول ولا تدل فلا وجه للمجاوبة عنهما بوجه الايجاب لان الدليل الاقوى لتعفيد كل منهما لا بد من دخوله في مسئلة الاديان وقال الملوك فونظ ان الدين قاصر على الزه الذي ظهر فيه وان الاديان سترفع من الارض بعد ان تنتشر المروم على جميعها وان اخرين اكثر تنجيا من باقى الاديان التي قد دعت وان التعليمات التي تجعل في الدنيا لا بد لها من دين جديد فاذا كان هذا الدين هو دين الاسلام يلزمنا ان نتوقع من هذه ظهور على الاحوال التي حصلت في الدنيا وتضاهي قواعد بقواعد الاديان المتقدمة في نبذ في الثمر التي هلك منها التواريخ ونظمت على اسباب اخطاطهم في هذه الايام واذا تأملنا في الاسباب الموجبة للاخطاط ظهر لنا انما ناشت من عدم موافقة ذلك الدين للعدم والتقدم الى اصل في هذا الزه فاذا احصنا الظاهر في درجات تلك المسئلة رايانا الاسلام ظهر بعد النصارى بتمامه واثنين من سن فكلت قواعد اعلى جاهات من دين النصارى

وعندنا دليل اخر وهو ان الدينيين ظهر في امر واحد وان الدين النظري سقط في بلن

لان هذا الزمان مساعد لك اذ لا وجود للمالك والانتكاريه الذين
عطوا السطامور في زمانه سيما للملك لان رغبه عظيمه في معرفه العلوم
الاورباويه فانما عفا مدرسه فتمت جانا في محروسه همد ثلاثه سنه
وبلغنا عند افتتاحها ان التلامذ من الراجين هر عو اللهها ولم يكن يتولى
تلاميذ طالب فوجه عدالدين وخلقوا فيها يومه يبلغ سبعا واصل
مثل ذلك حيث امرت الحقن الخديومه معق مدرسه للبنات وكانت
اول مدرسه فتمت في مصر وما كان يوم لها نتيج في اول يوم بلخ عدد
الوارد فيها قدر المطلوب ثلاثه مرات فمن نظري ذلك بدين التامه
راى نتيجه عظيمه لان الالباقه ان نشر التعليم خصوصاً بين
النساء لانك انه يورول امره الى فصل من كل المسله التي فيه
ولا يحتاج الامر فيها الى قتال ولا نزال لان سبب التعليم اعني من
سين المماريات ونصرت هنا مثلاً بالارض المروعة
بانبيها الشاؤ في ستر ندمها بالثلث فترى كالميت واذق عليها الصيف
وفاته التلوج اخرجت زحرفها وان ريت فذلك لا لاسلام اذا
التقت الى معرفه العلوم والفنون وارتك الدرجه العليا في التقدم
كان عزه قويا ومستقبله موريا ان الله اعلى الشوقدي

تمت بخط محمد الحكيم
الانديري البهراوى
جمال الدين اسد آبادى
الحنفى
آغا محمد محبوب مدير مكتبه
لفظه ١٠٠ من سند در بين اوراق خطي
كاتبه هذا مقاله كتبني في مجلس شايسته كهده
في شهر صفر الحيه
سنة ١٢٩٤ (١) ١٣٥٢/٢/٥ - تهران
خسرو شاهي

وتريد دمه ضد الحزب الوطني . الذي يهدد
لفظ إلى قلب . وهذا خطأ . وفككت الحزب الوطني
وعرابي بواسطة جواسيسها السريين . أنها
الدولة الوحيدة التي ترغب في الحكم الذاتي
لحصر . وهذا أيضا خطأ .

واحد من المزايا التي كان ينبغي أكثر لطفة أو
أكثر ثقافة . لكن تذكر ما ترتب عادة على
الأمراء والأمير الملكية . الذين يقابلون المساعدة
والعملية من انكسار ضد مواطنهم . في الواقع .
بدأت انكسار في تجديد سلطتهم . مطلة أنها
خدمتهم الأثر . تلك السلطة الملكية التي
وصفتها بريطانيا دائما في المقدمة . وجايت
سببها الجميع في الدمار والفساد . ولكن شرط
أن تنصرف السلطة تلك كما يفسد لها (أي
لانكسار) .

هذا ما يمكن رؤيته في الهند خلال ٨٠ سنة .
لانكسار لديها الحصر - الحصر كان لخصيتها
السياسية القوي - أن تظهر بطور الحصري
المتواضع . الأكثر سادة والطبقة الأكثر تهيؤا
من ملعة نيجر الملكية . رغم أنها . منذ اليوم
الأول لتدخلها الصداق لم تترك لهم . في
التعديدي وليس الحقيقة . غير القلب الشرقي
للاشماسية . ولم تلحق الفناء وتظهر على
حاليها : الحيدة الوحيدة والعطلة الهند . (!)

منذ حوالي ثمانين سنة .
أو كان توليف أكثر ثقافة . لذلك أن انكسار .
وهي تستحق كما فعلت . بحجة الدفاع عن البلاد .
ومن الجيش المصري . مستعملة . وهو الحصري .
شاميا ملحا ملكت - انقلاب - أي - انقلاب -
و - لانكسار - وسكانها - ولهم من - انقلابين
الذين هدمت دعمهم وضمت بلادهم . بواسطة
الجيش الذي وضع تحت رعايتها حيث أعادت
تنظيمه . كما فعلت . من أجل الدفاع عن العرش .
ولو لربنا أن القسم مزيدا - من الملقنة
والقنصلية . لكن لاحظت كيف أن انكسار حين
استولت على جزيرة قبرص . قد تهاوتت بالقول
أنها لم تسلبها نهائيا من الامبراطورية العثمانية
لكن سوف تمنحها ليويا . ولكن حين سلحت
كانكسار من أي تغيير . لم تقبل إلا التي . نفس .
حتى علمنا لاسماعيل واستبداله بتوليقي . لهما
شيئا فريدي في سياسة انكسار القديرة . ذلك أن
الاستقال الفرنسي نفس . قد جرى برهانيا . يوم
ثم طلع - انقلاب سولي الدولة . . واستبداله
بسرور جيل .

بمقتضى . انكساروا حصر بسعد تكليف
الامبراطورية العثمانية من أجل ابتلاع الأجزاء
الغربية منها . القواعد تلو الآخر . تماما بالطريقة
نفسها التي انتمت فيها الهند . بسيد . ولكن بلا
مخاطر

أول أنها أسوء حليها . قد اضطرت إلى التخلي
عن نهج القس القوي في حصر . رغم الخطأ .
لأن تجمعات الحزب الوطني . الذي لم يبق بلق
في الحكم الاستقلالي لبلد . في بلدتها الس
التفكير القديم . أن حكم الحزب الوطني لصر
كان مستقلة لها ملكت به . وذلك سرحت
الأحداث . والمروم أن تنهية المباشرة لتصبح

«أحرار» يقتلون الحرية

الحيدوي أعلن يديه للاحتلال خوفا على العرش
مصر بلب الشرق ولها لم يخدم العصيان

بين الأوربيين . وعلى وجه أن نعتقد بأن الذين
يترقبون بينهم بلب الأحرار . في وطنهم . هم
أشوا أعداء الحرية لدى الأحرار .

فخلال من ذلك . لأن فتح انكسار لصر قد تم
واقى حيدة الفتح الحقة بهذه الأمة والتمتة
منذ جيلين . لانكسار لا تقدم على ذلك . والصلاح
باليد . أنها تنحصر جود . والمفكر . عن تدخل
البلاد الذي تشع به . تحت كل الأشكال الأكثر
مصلحة . وكل المظاهر الأكثر جود . هناك . تنمنا
أحيانا إلى جانب الأبرار ضد الشعب . ولما كان
الدولة ومرة أخرى . ثوبا للظروف . وذلك
لعمري والخدمة القحة . والخدمة تحت تصرفهم
أخص موكبها وضبطها الذين . سرعان ما
يوسعون على كل الأجزاء . وليس ما يمتنعهم
من الظهور بقتدر من أية طريقة . حيث أنهم لا
يصدقون إلا انتقال الأبرار من أعداء الدوليين .
وتخلص الشعب من أعداء الفراعين .

هذه المرحلة . الثقوة . لعينا انكسار مؤخر .
تارة إلى جانب الحيدوي توليف . وطور إلى
جانب الحزب الوطني المصري . حيث لم نعد
نحرف . حتى الحقبة الأخيرة . لها من الانتين
هو تحت حاليها نهائيا . بكنسية الحيدوي .
حاول أن نقتنه أنها الوحيدة التي تستطيع

السيد رئيس التحرير
لقد كان الأحرار الأكثر كل تهماتهم التي
ختموها بتهمةهم السياسي . الذي هو جود
وصلا إلى الحكم . . ذلك بتخليهم في الشرق
مصر . وجهدهم التي دم بسعد بلدا في سبل
السيرة على هذا البلد .

أنهم خلاروا وحدهم . بسبب تعديهم أمام
تأجيلهم الدفاع من حق الناس وحرية الأمم . في
كل قضاء المصري .

الأحرار لقروا المحافظين في مجال الفتح
والعروب . القحة . التي تنكروا بصراحة للثورة
ببكتسيف وأما لاه . بسببها .
ومن لا يتذكر خلاصين خلال الانتفاضات
العلماء . الذي لم يزد في تأييد - القزول - الذين
تطروا الحيدوي أكثرية . والأفان الذين .
بناطهم مع القوس ودعم . ففسدوا على
مخالفهم الصداقة مع انكسار .

وهو . فالتفتت نفس . الذي أعلن الحرب

على المصريين الذين لم يتذكروا حدود لاه . وكل
ما ظهروا هو أن يمشوا أحرارا في وطنهم . .
الذين لم يمشوا لاه . على صعيد التعاضد .
لأية دولة أوروبية . بين الأحرار . لمضلين
الحيدوي سلام يدها طية مع الجميع .
أكلوا . إن . جري القس على فية الكلمات

التي

بل هو مخصص للأمة ولمع احد اتباعه قلب الباب وارسل
دعاة الى جهات مختلفة . ثم بناء على قول مندب النجع
احمد المذكور في امر المهدي الذي ثابته انه المهدي بعينه
وان ذلك الجسم اللطيف الروحاني قد ظهر في هذا الجسم
الكثيف المادي ولما كانت الترجمة ابي رجوع بمعنى الابه
السابقين وتابعهم من الاصول الثابتة في مذهب الامامية
والفاسخ من اعتقادات طائفة الباطنية الذين تسلطوا في
بلاد العجم مدة طويلة كان له نفيا في النفوس فتقام جماعة
من اتباع هذا الرجل اسمي السيد عليا والذي بعضهم انه
الحسن وبعضهم انه الحسين وبعضهم انه غيرهما من الابه
وتابعهم وابدع تلك الدعاوي حدم رأي رأي هذا
الرجل نفسه وهو ان شخصية الشخص التي باعها رما يتار
عن غيره وبالناسا خاصا بوحسن او حسين مثلا اما
في صفاته واخلاقه التي يكون عليها فمن وجدت فيه
صفات شخص واخلاق واحواله على وجود تام فهو هو في
اي زمان كان . ولرب هذه الاعتقادات من مغرب الطائفة

الشيعة من الشيعة وم اتباع النجع احمد زين الدين
المذكور آتيا لبي دعوى هذا الرجل كثير من اهالي بلاد
العجم المتحمذين بذلك المذهب المجدي . فلما رأى اقبال
الناس عليه واجابهم دعونه ترفع في دعواه فقال انه هو
اعتمادات الشيعة الامامية والاصول الفلسفية على طرز
جديد وقال ان المهدي بالاسم المتعظم ظهر عند الشيعة
هو الآن من سكان عالم روحاني غير هذا العالم الجسماني
سما مجاهلنا وجاهلنا وان اجسام سكان ذلك العالم
الروحاني كاجسام الجحيم والملائكة المماء بالاجسام
المورقانية وهي اصطلاحات الكيمياء القديمة وقد فناء
على هذا الامر تلاميذه وقاموا في مقام التعليم على
الطريقة وكان من امر السيد علي محمد المذكور بعد ان حج
الى مكة ان اذى انه بابا المهدي وانما على تقريره في الدعوى
مئة وليس ذلك الدين من عناصر اسلامية ونصرانية
ويهودية ووثنية ولقب نفسه بابا الدين ثم ترك هذا اللقب
ولقب نفسه بالفتنة او الخلق الحق مدعي انه ليس نبيا سيعك
ثابت من وجوه الحسن والعلف . وما يتسبب اليه انه كان

دين ظهر في بلاد العجم نحو سنة ١٨٦٢ بدعوى
رجل من اهل شيراز يعرف بالسيد علي محمد وكان
تلميذا لبعض تلاميذ النجع احمد زين الدين الاحمائي
الذي مزج التصوف والفلسفة بالشرعة وجمع بين
اعتمادات الشيعة الامامية والاصول الفلسفية على طرز
جديد وقال ان المهدي بالاسم المتعظم ظهر عند الشيعة
هو الآن من سكان عالم روحاني غير هذا العالم الجسماني
سما مجاهلنا وجاهلنا وان اجسام سكان ذلك العالم
الروحاني كاجسام الجحيم والملائكة المماء بالاجسام
المورقانية وهي اصطلاحات الكيمياء القديمة وقد فناء
على هذا الامر تلاميذه وقاموا في مقام التعليم على
الطريقة وكان من امر السيد علي محمد المذكور بعد ان حج
الى مكة ان اذى انه بابا المهدي وانما على تقريره في الدعوى
مئة وليس ذلك الدين من عناصر اسلامية ونصرانية
ويهودية ووثنية ولقب نفسه بابا الدين ثم ترك هذا اللقب
ولقب نفسه بالفتنة او الخلق الحق مدعي انه ليس نبيا سيعك
ثابت من وجوه الحسن والعلف . وما يتسبب اليه انه كان

الصفحة الاولى لمقال البابية، (قسمت اول مقاله درباره بابيگری)

الباب فهو عدم اعظم من محمد كما ان محمدا اعظم من
 موسى وفضل الصوم شهرا من اخر المحرم بحيث يوافق
 عند فطرهم يوم الثور وهو اول المحرم . ومن احكامها
 ان يجب تحريم جميع البناح المقدسة ككعبة وبيت المقدس
 وقبور الانبياء والاولياء عند حصول اول سلطة لاحد
 من تبع دينه ويحرم شرب الخمر وكذا الفخار على عهد
 وحطه اتباعه من بعده ويحرم شرب الخمر في يوم كذا
 حتى ان من شربه بنال جزيل العقاب ومنها ان يجوز
 القتل على اثنين فقط والشراء والتمسك بهر حصر وعلى ما
 يقال ان يجوز تكاثر الاخص . ومنها ان من كذب في قول
 او نادى ضحاً من خلقه فقد اساء وكفارة اعطاه ثلثة
 مثاقيل من الباقوت فان لم يجد نصيبا يومئذ . ومنها ان
 شهداء الذين قتلوا في طهران وغيرها يجب ان يبنى لهم
 مشاهد ككله بانواع الجواهر وان يجب على ابي سلطان
 بكن منهم ان يضع سيفه في العالم فاما الدين او الموت
 ولا يجوز اخذ الجزية . وان يجب على كل واحد منهم ان
 يكتن حنة كاس من الفضة وثوب نظيف ثي اما الكاس
 فيتناول بها الماء القراح الصافي واما الثوب فيجوز
 القراح وان يجوز ان يظهر به كامل اخر لكن بعد ان
 يغطي من السنين عدد حروف المستغاث يعني التي سنة
 وكسوة . ويحظر في مذهبي الخاذا السراي والطلاق
 واستعمال النساء للقباب ويصح ان يقال ان دينهم الى الان
 لم يتر على نظام واحد بل هو كالرمال السائلة تحدث
 بمرورها فلا في محل ثم تتصل وتحدث فلا اخر بشكل اخر
 في محل اخر
 وكانت من جملة دعوات امرأة فنية بارعة الجمال
 متوقفة الجمان فافضلة طاعة تسمى باسم سلف من بنات احد
 المجيدين في العجم وكانت متزوجة بجهنم اخر طلقت
 نفسها من زوجها على خلاف حكم شريعة الاسلام وآمنت
 بذلك الرجل عن غيب وكانت تكاتبه وبكاتها فكان
 يجاها في مكانها بقرّة الموت فلقت بذلك وكانت
 تناظر الملاء والفضلاء بمكسوة الوجه بدون حجاب ثم لا

(قسمت آخر مقاله سيد دربارہ بابیگری)

دائرة المعارف، قاموس عام لكل فن و مطلب، تأليف: المعلم بطرس البستاني، ج ٥ - دار المعرفه، بيروت صص

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
والحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله



السيد جمال الدين الحسيني

والحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
والحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
والحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله



السيد جمال الدين الحسيني

والحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
والحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

[illegible]

الفهارس
الآيات، الاماكن، الاعلام

فهرس الآيات

- وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً...البقرة/ ٢٥٦ ٤٧
- وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...العنكبوت/ ٤٦ ٤٧
- وَيَسْتَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي...الاسراء/ ٨٥ ٤٧
- إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ...النحل/ ٩٠ ٤٩
- وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً...النساء/ ٣ ٤٩
- إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ...البقرة/ ١٥٦ ٦٤
- إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ...البقرة/ ٢٠ ٥٢
- خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ...الرحمن/ ٤ ٧٨
- إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ...الحجر/ ٩ ٧٨
- فَاسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ...النحل/ ٤٣ ٧٨
- إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ...الرعد/ ١١ ١٤٧
- فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ...الحشر/ ٢ ١٩٧-٢١١-٢١٣
- لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ...البقرة/ ٢٥٦ ٢٠١

الاعلام

ابن الاثير	٢٧
ابن خلدون	٢٨
ابن رشد	١٩٠-١٩١-١٩٣-١٩٤-١٩٥-٢٠٥
ابن سينا	١٩١-١٩٤-١٩٥
ابن طفيل	٢٠٥
ابن ماجه	٢٨-٢٠٥
ابوتراب	٨٦
ابومسلم خراساني	٢٩
احمد أمين	٢١٠
احمد بن حنبل	٢٨-٢٩
احمد عرابي	١١٤
ادريس الاكبر	٣٠
اديب اسحاق	٢٠-٨٥-٨٦-٨٧-٩٢-٩٣
ارسطو	٩٠

١٤٣	اسكندر اليوناني
٢٦-٤١-٤٢-٦٩-١٢٢-١٧٢	اسماعيل باشا
٦٢	اغنياتيف (الجنرال)
٩٠	افلاطون
٢٠	اقبالييس اليوناني
٧٧-٧٨-٨٢	الاحساني (الشيخ احمد زين الدين)
٨٢-٨٧-٩٠	البستاني (بطرس)
٨٦	البستاني (سعيد)
٢٨	الترمذي
١٧٨	الجليلو (غاليه)
٢٠٠	الحاجب (علي بن منصور)
٧٨	الحسن
٣٠	الحسن العسكري
٧٨	الحسين
٣-٧-٨-٩-١٠-٢٠-٢١-٢٥-٢٦-٣٢-٥٢-٥٧	الحسيني (أسد آبادي) (الافغاني) السيد جمال الدين
٥٩-٦٢-٦٤-٨٢-٨٥-٨٦-٨٧-٩٢-٩٣-١٠٨-١٣٠-١٦٢-١٨٥-١٨٦-١٨٧-١٨٨-١٨٩-١٩٠-١٩١	
١٩٥-١٩٦-١٩٧-١٩٨-١٩٩-٢٠٠-٢٠١-٢٠٢-٢٠٤-٢٠٦-٢٠٨-٢٠٩-٢١٠-٢١٤	
٥٢	الحكيم الازهرى (سيد احمد)
٢١٤	السبايط (جواد)
٤٥-٤٨-٥١	السلطان محمود (الثاني)
٤٩	السلطان بايزيد الثاني
٥٠-٤٩-٤٥	السلطان سليمان
٨٦-١١٣-١٨٧	السلطان عبد الحميد
١٧٢	السلطان عبد العزيز
٣٤	السنوسي
٧٧-٧٨-٧٩-٨٠	السيد علي محمد (باب)

السيوطي	٢٠٦
الشرباصي (احمد)	٢١٠
الطبرى	٢٧
العباس	٢٩
العبيد	٣٢-٣٣
الكندى	١٩٤-٢٠٥
اللقاني	٢٠
الله ١٨٨-١٨١-١٧٨-١٧٣-١٦٢-١٤٦-١٣٧-١٣١-١٠٠-٨٧-٧٨-٦٤-٥٢-٥٠-٤٩-٤٨-٤٧-٢٨-٢٧	٢٠٧-٢٠٩
المأمون	٤٨-٦١
المتبني	٢٠٠
المتوكل العباسي	٣٠
المسيح الدجال	٢١٤
المسيح (ع) (يسوع بن مريم)	٢٧-٤٧-٢٠٧
المولوى رحمة الله الهندى	٢١٤
المهدى (السوداني)	٢٣-٢٥-٢٦-٣٢-٣٣-٣٤-٣٥-٣٦-٣٧-٣٨-٣٩-٤٠-٤١-٤٢-٢٠٨
المهدى (عج)	٢٧-٢٨-٢٩-٣٠-٣١-٣٢-٧٧
الهادي (الخليفة)	٢٠٦
امينه	٢٩
أولران شاه	٤٠
اهوند سيوات	٤٠
بال ملستان	١٧٨
برهما	١٧
بزرجمهر	٩٠
بسمارك	١٧٨
بسيم بك	١١٤

۱۵۴.....	بکم صاحب
۲۰۶.....	بونابرت
۲۶-۶۷.....	بیکونسفیلد
۱۶۹-۱۷۰-۱۷۱.....	تبوسلطان
۶۹.....	تیمور
۹۰.....	جاماسب
۱۱۵.....	جرانفیل (لرد)
۲۱.....	جراهام بل (الکساندر)
۱۹۰.....	جرج کلیمنصو
۵۷.....	جنکیزخان
۷۴.....	جوستیس
۱۰۸.....	حسین بن علی (امیرمکه)
۸۱۰.....	حکیمی (محمدرضا)
۲۶-۴۱-۴۲.....	حلم باشا
۶۲.....	حیدر
۴۹.....	خدیمه
۳-۸۱۰.....	خسروشاهی (سیدهادی)
۸۶-۱۸۷-۱۸۸-۱۸۹-۱۹۱-۱۹۸-۲۰۸-۲۱۰.....	خلیل غانم
۱۲۰.....	دزرائیلی
۱۷۰-۱۷۱.....	دوست محمدخان
۱۸۹.....	دیولافوا
۱۱۴.....	راتبک
۲۰-۲۲-۵۷-۱۶۲-۲۰۹-۲۱۰.....	رشید رضا (محمد)
۱۷۰-۱۷۱.....	رنجیت سنک
۱۸۹-۱۹۰.....	روشفور
۱۰۸.....	ریاض باشا

١٨٣-١٨٥-١٨٦-١٨٧-١٨٩-١٩٠-١٩١-١٩٢-١٩٣-١٩٤-١٩٥-١٩٦-١٩٧-١٩٨ (أرنست)	رينان
١٩٩-٢٠٠-٢٠١-٢٠٢-٢٠٣-٢٠٤-٢٠٨-٢٠٩-٢١٠-٢١٣	
١٠٠	زرودشت
١١٤	سعد المديني (السيد احمد)
٩٠	سقراط
١٦٩	سلطان حسين
٨١	سلمه
٨٦	سليم النقاش
١٨٥-٢١٠	سمير ابو حمدان
٧٤	سودجاه (الشاه)
١٢٥	شاه شجاع (الافغاني)
٢١٠	شهاده (انيس)
٧١-١٢٢-١٢٣	شريف باشا
٢١٠	شكيب ارسلان
١٢٠	شير علي خان
٩٩	طاليس
١١٤	ظافر (الشيخ محمد)
٤٩	عائشه
١٦٩	عباس ميرزا
٨٦	عبد السلام بك (المويلحي)
٢٩	عبد الله
٢٠٩	عبد ه (محمد)
٣٠	عبيد الله
٤٢-٦٨-١١٥-١٥٣	عراي باشا
١٧٨	عرزكف
١٨٥-١٨٧-١٨٨-١٨٩-١٩٩-٢٠٧	علي شلش

٤٨	عمر بن الخطاب
٢٧	عمر بن عبدالعزيز
٣٤	عنيزه
٨٠-١٠٠	عيسى (ع)
٢٦٣٦-٤١-٦٧-٧٣-١٢٠	غلاستون
٤٩	فاطمة
١٧٠	فتحعلي شاه
٢٥	فوكلان
١٨٩	فوكيلان (ارنست)
٤٦	فونظه
٦٢	فهمي أفندي (حسن)
٩٠	فيثاغورس
١٥٤	فيروزشاه
١٨٩	فيكتور هوغو
١٧٨	كروكرام
١٧٨	كريبالدي
١٧٨	كفلر
١٧٨	لايل
٢٠٦	لويس (الرابع عشر)
١٧٨	ماريشال ملك
٢٠٦	مازاران
٥٢	محبوب (السيد حسن)
٣٤	محمد ابوالرشيد
٢١٠	محمد حامد الله
٢٧-٢٨-٢٩-٣٠-٣٤-٤٦-٤٧-٧٨-٨٠-١٠٠-٢١٤	محمد (ص)
٥١-٧٤	محمد علي باشا

١٩٥	محمد عمارة
١٤٣	محمود الفزنوى
٦٢	مدحت أفندى
١٧١	مدحت باشا
٦٩	مراد جعفر
٤٧	مریم (ع)
١٨٧-١٨٨	مصطفى باشا
١٠٠	موسى (ع)
١٧-١٠٠	مهادیو
١٢٢	میر جعفر
٧٩-٨٠	میرزا حسین علی (بهاء)
١٥٤	نانا صاحب
١١٤	نصرت علی
٣٠-٤٨	هارون الرشید
١٤٣	هلاکو خان
٢٠٦	هنرى الرابع
٢٦-٣٢	هیکز (الجنرال)
٧٩	یحیی (صبح ازل)
٨٦-١٦٥-١٨٧-١٨٨-١٨٩	یعقوب صنوع
١٧٨	ینطی
٤٦	یونس

الاماكن

آسيا	١٩٤-١٧٠-١٤٠-١٢٥-٧٣
ادرنه	٨٠
اروپا (أوروبا)	١٤٠-١٢٥-١١٥-١١٣-١٠١-٧٤-٧٣-٧١-٧٠-٥١-٤٦-٤٥-٣٥-٢٦-١٠-٨
	٢٠٦-١٩٣-١٩٢-١٧٢-١٦٠
اسبانيا	٢٠٤-١٩٤-١٤٦-١٤٤-٩٩
اصفهان	١٦٩-٤٨
إفرنج	١٨٨-١٧٢-١٤٥-١٢٥-٢٠
افريقيه	١٥٣-١١٣
افغانستان	١٧١-١٥٢-١٥١-١٢٥-١٢٤-١٢٠-٧٣-٤٠-٣٩-٣٥-٢٦-٧
اكبر آباد	١٦
الآستانه (القسطنطينية)	٢٠٨-٢٠٤-١٨٩-١٨٦-١٧٢-١٤٣-١١٤-٦٢-٤٢
الاسكندريه	٢٠٧-١٣٠-١٢٩-١٢٧-٩٧-٩٥-٧٠

الاندلس	٣٠-٤٨-١٩٣-٢٠٤
البحر الأحمر	١٥٢
البنجاب	٣٨-١٠٨-١٦٠-١٧١
البنغال (البنجال)	٣٨-٦٩-٧١-١٠٨-١٢٢-١٥٨
الجزائر	٤٠-١١٤-١١٥-١٩٧٢١٣
الجزيرة العربية (شبه الجزيرة العربية)	٢٥-٤٦-٢٠٣-٢٠٥-٢٠٩
الحجاز	٢٥-٣٠-٣٤-٧١-١١٣-١٢٣-١٢٤-١٥٢-١٥٣-١٥٤
الخرطوم	٣٣
الرومان (الروم)	٤٦-٤٨-٤٩-٩٠-١٤٣-٢٠٣
السند	٣٥-٣٨-٤٠-١٠٨
السودان	٢٦-٣٢-٣٦-٤١-١٦٢
السوريون	١٨٥-١٩١-١٩٢-١٩٧-١٩٩
الشام	٨٦
الصرب	٥١
الصين	٤٧-٥١
العراق	٤٨-١١٣-٢٠٤
القاهرة	٢٥-٢٦-٣٠-٣٣-٤٢-١٨٧-١٨٨-٢٠٩-٢١٠
القطر	١٢٥
القيروان	٤٨
الكرناتك	١٧١
الكلدان	٩٠
الكوفة	٢٩-٣١
المحيط الأطلسي	٢٠٩
المدينة	٣٣-٣٤
المسكوا	٤٥

الموصل	٣٤-٤٨
الميريت	٣٨-٤٥-١٥٣
التمسا	٧٣-١٢٥
النبيل	٢٥-١٥٣
النبيل الأبيض	٢٦
إله آباد	١٦
الهرات (هراة)	٤٨-١٢٤
الهند (هندوستان)	١١٣-١٠٨-٨٥-٧٩-٧٣-٧٢-٧١-٧٠-٥١-٤٨-٤١-٤٠-٣٩-٣٨-٣٧-٣٥-٢٥-٧-٩
	١٦٢-١٦١-١٦٠-١٥٩-١٥٨-١٥٧-١٥٤-١٥٣-١٥٢-١٥١-١٤٩-١٤٦-١٢٥-١٢٤-١٢٣-١١٥-١١٤
	٢١٤-٢١٣-٢٠٨-١٩١-١٨٩-١٨٨-١٨٧-١٧٠
اليمن	١٥٤-١٥٣-١٥٢-١١٣-٣٤-٣٠
اليونان (الإغريق)	٢٠٣-١٩٣-١٤٣-٩٩-٩٨-٩٠-٥٩
انگليس (انكليز) (انكلترا) (بريطانيا) (بريتوس)	٣٨-٣٧-٣٦-٣٥-٣٤-٣٣-٣٢-٢٧-٢٦-٢٥-١٧-٧-٩
	١٢٠-١١٥-١١٤-١١٣-١٠٨-١٠٧-٩٩-٧٤-٧٣-٧٢-٧١-٧٠-٦٩-٦٨-٦٧-٥٠-٤٥-٤٢-٤١-٣٩
	١٨٦-١٨٥-١٨٤-١٨٣-١٨٢-١٨١-١٨٠-١٧٩-١٧٨-١٧٧-١٧٦-١٧٥-١٧٤-١٧٣-١٧٢-١٧١-١٧٠-١٦٩-١٦٨-١٦٧-١٦٦-١٦٥-١٦٤-١٦٣-١٦٢-١٦١-١٦٠-١٥٩-١٥٨-١٥٧-١٥٦-١٥٥-١٥٤-١٥٣-١٥٢-١٥١-١٥٠-١٤٩-١٤٨-١٤٧-١٤٦-١٤٥-١٤٤-١٤٣-١٤٢-١٤١-١٤٠-١٣٩-١٣٨-١٣٧-١٣٦-١٣٥-١٣٤-١٣٣-١٣٢-١٣١-١٣٠-١٢٩-١٢٨-١٢٧-١٢٦-١٢٥-١٢٤-١٢٣-١٢٢-١٢١-١٢٠-١١٩-١١٨-١١٧-١١٦-١١٥-١١٤-١١٣-١١٢-١١١-١١٠-١٠٩-١٠٨-١٠٧-١٠٦-١٠٥-١٠٤-١٠٣-١٠٢-١٠١-١٠٠-٩٩-٩٨-٩٧-٩٦-٩٥-٩٤-٩٣-٩٢-٩١-٩٠-٨٩-٨٨-٨٧-٨٦-٨٥-٨٤-٨٣-٨٢-٨١-٨٠-٧٩-٧٨-٧٧-٧٦-٧٥-٧٤-٧٣-٧٢-٧١-٧٠-٦٩-٦٨-٦٧-٦٦-٦٥-٦٤-٦٣-٦٢-٦١-٦٠-٥٩-٥٨-٥٧-٥٦-٥٥-٥٤-٥٣-٥٢-٥١-٥٠-٤٩-٤٨-٤٧-٤٦-٤٥-٤٤-٤٣-٤٢-٤١-٤٠-٣٩-٣٨-٣٧-٣٦-٣٥-٣٤-٣٣-٣٢-٣١-٣٠-٢٩-٢٨-٢٧-٢٦-٢٥-٢٤-٢٣-٢٢-٢١-٢٠-١٩-١٨-١٧-١٦-١٥-١٤-١٣-١٢-١١-١٠-٩-٨-٧-٦-٥-٤-٣-٢-١-٠
ايران	٨-٢٠٥-٢٠٤-٢٠٣-٢٠٢-٢٠١-٢٠٠-١٩٩-١٩٨-١٩٧-١٩٦-١٩٥-١٩٤-١٩٣-١٩٢-١٩١-١٩٠-١٨٩-١٨٨-١٨٧-١٨٦-١٨٥-١٨٤-١٨٣-١٨٢-١٨١-١٨٠-١٧٩-١٧٨-١٧٧-١٧٦-١٧٥-١٧٤-١٧٣-١٧٢-١٧١-١٧٠-١٦٩-١٦٨-١٦٧-١٦٦-١٦٥-١٦٤-١٦٣-١٦٢-١٦١-١٦٠-١٥٩-١٥٨-١٥٧-١٥٦-١٥٥-١٥٤-١٥٣-١٥٢-١٥١-١٥٠-١٤٩-١٤٨-١٤٧-١٤٦-١٤٥-١٤٤-١٤٣-١٤٢-١٤١-١٤٠-١٣٩-١٣٨-١٣٧-١٣٦-١٣٥-١٣٤-١٣٣-١٣٢-١٣١-١٣٠-١٢٩-١٢٨-١٢٧-١٢٦-١٢٥-١٢٤-١٢٣-١٢٢-١٢١-١٢٠-١١٩-١١٨-١١٧-١١٦-١١٥-١١٤-١١٣-١١٢-١١١-١١٠-١٠٩-١٠٨-١٠٧-١٠٦-١٠٥-١٠٤-١٠٣-١٠٢-١٠١-١٠٠-٩٩-٩٨-٩٧-٩٦-٩٥-٩٤-٩٣-٩٢-٩١-٩٠-٨٩-٨٨-٨٧-٨٦-٨٥-٨٤-٨٣-٨٢-٨١-٨٠-٧٩-٧٨-٧٧-٧٦-٧٥-٧٤-٧٣-٧٢-٧١-٧٠-٦٩-٦٨-٦٧-٦٦-٦٥-٦٤-٦٣-٦٢-٦١-٦٠-٥٩-٥٨-٥٧-٥٦-٥٥-٥٤-٥٣-٥٢-٥١-٥٠-٤٩-٤٨-٤٧-٤٦-٤٥-٤٤-٤٣-٤٢-٤١-٤٠-٣٩-٣٨-٣٧-٣٦-٣٥-٣٤-٣٣-٣٢-٣١-٣٠-٢٩-٢٨-٢٧-٢٦-٢٥-٢٤-٢٣-٢٢-٢١-٢٠-١٩-١٨-١٧-١٦-١٥-١٤-١٣-١٢-١١-١٠-٩-٨-٧-٦-٥-٤-٣-٢-١-٠
ايطاليا	٦-٢٠٦
أثينا	٢٠٧
أذربيجان	١٦٩
أشكاهاد (عشق آباد)	١٢٤-٧٣
ألمانيا	٢٠٦-٢٠٣-٧٣
أندمان (جزائر)	٢١٤
أود	٣٨
بابل	١٣٠

باريس.....	٢١٣-٢٠٩-٢٠٨-١٩٧-١٨٩-١٨٨-١٨٧-١٨٦-١٧٣-١٦٢-٨٥-٢٥
بخارى.....	٤٨-٤٠-٣٩
بخران.....	٣٤
برمانيا.....	٣٨
برودا(برودة).....	١٧١-٣٩
بريني(برانيس).....	٢٠٣-١٤٦
بصره.....	١٧٠-١٢٤
بعلبك.....	٩٩
بغداد.....	٢٠٦-٢٠٣-١٧١-٨٠-٧٩-٤٨-٣٤-٣١-٣٠
بلوشستان(بلوچستان).....	١٥١-١٢٤-٧٣-٤٠-٣٥
بونا(بونه).....	١٠٨-٤٠
بيت المقدس.....	٨٠
بيروت.....	١٩٥-١٨٧-٨٢
تبريز.....	٧٩
تركستان.....	٢٠٤
تركيان.....	١٧١
تركيا(تركيه).....	١٦٩-٧٩-٦٢-٤٥-٤١-٤٠-٣٦-٣٥-٣٤-٣٣-٢٧-١٨
تونس.....	٢١٣-١٥٢-١١٥-١١٤-٤١-٤٠
ثيبه.....	٩٩
جابر سا.....	٧٧
جابلقا.....	٧٧
جامعة الازهر.....	٣٣
جاوه.....	٢١٤
جدّة.....	٢٥
جويتور.....	٣٩

٣٩.....	جيبور
٢٠٤.....	حران
٤٢.....	حلب
١٦-١٦٠-١٦١.....	حيدرآباد
٢٩.....	خراسان
٤٠.....	خوقند
٤٠.....	خيڤا
١٧١.....	دكن
٤٨-١٨٧.....	دمشق
٣٥.....	دولاغهير
١٦-٤٨-١١٤.....	دهلى
١٦.....	رايبود
١٨-٦٢-٧٢-٧٣-١٢٠-١٢٣-١٢٥-١٥٢-١٥٩-١٦١-١٦٢-١٦٩-١٧١.....	روسيا (روسية)
٩٥-٩٧.....	زيرنيا
٣٠.....	سامراء
٤٨.....	سپته
٩٩.....	سلافينا
٤٨-٧٣-١٢٤.....	سمرقند
٣٠-٣٤-٤٢-١١٣-١٦٢-١٧١-١٨٧.....	سوريا (سورية)
١٤٠.....	سيبيريا
١٥١.....	سيلان
٦٧-٨٠.....	شيراز
١٦.....	شيون
٣٤.....	صنعا
٩٩-١٣٠.....	صور

طرابلس	۳۴-۴۰-۴۱
طهران (تهران)	۵۲-۷۹-۸۱-۱۸۸
عظیم آباد	۱۶
عکا	۸۰
غرناطه	۴۸
فارس	۱۴۳-۱۷۱-۱۹۲-۱۹۴
فاس	۳۰
فرانسه (فرنسا)	۷-۹-۱۰-۵۰-۷۰-۷۱-۷۲-۷۳-۱۴۶-۱۵۳-۱۸۹-۱۹۰-۱۹۵-۲۰۶
فیض آباد	۱۶
قاهلول	۴۸
قبرص (قبرس)	۶۹-۸۰-۱۲۲
قم	۷-۸-۹-۱۰
قناة السويس (خلیج السويس) (طرعة السويس)	۴۰-۷۰-۷۱-۱۱۳-۱۱۵-۱۲۳
قوند	۱۷۱
کازخستان	۲۰۴
کاشغره	۱۴۰
کالکوتا	۶۹
کاماتاک	۶۹
کبمبای	۱۶
کراجی	۱۶
کعبه	۸۰
کلکتا	۱۶-۱۲۲
کندهار (قندهار)	۴۸
کورسیکا	۲۰۶
کهکی	۱۶

لاکانو.....	۶۹
لاهور.....	۷۳-۱۲۴
لبنان.....	۹۹
لکھنو(لکناہور).....	۱۶-۱۰۹-۱۷۱
لنדרہ(لندن)(لونڈن).....	۸۶-۱۰۸-۱۸۶-۱۸۸-۱۸۹
لہستان(بولندہ).....	۱۸
مازندران.....	۸۱
مراکش.....	۵۱
مرشدآباد.....	۱۶
مرو(مرف).....	۲۹-۷۳-۱۲۴
مسجدالحسین.....	۲۵
مصر.....	۷-۹-۲۶-۳۳-۳۶-۳۹-۴۱-۴۲-۵۱-۵۲-۶۵-۶۷-۷۱-۷۲-۷۳-۷۴-۸۵-۸۶-۸۷-۹۸-۱۰۷
.....	۱۰۸-۱۱۱-۱۱۳-۱۱۷-۱۲۲-۱۲۳-۱۲۴-۱۲۵-۱۳۰-۱۴۹-۱۵۱-۱۵۲-۱۵۳-۱۵۴-۱۶۲-۱۷۲-۱۸۷
.....	۱۸۹-۲۰۸
مکہ.....	۲۹-۳۱-۳۳-۳۴-۳۵-۳۹-۷۷-۸۰-۱۰۸-۱۲۳-۱۵۳-۲۱۴
منفیس.....	۹۹-۱۳۰
میسور.....	۳۸-۱۶۹
نجد.....	۳۴
نینوی.....	۹۹
وشنو.....	۱۶
ویانہ.....	۴۵
ہملايا(ہیالایا).....	۳۵-۱۴۶-۱۵۱-۲۰۳
یہودا.....	۴۶

بانی نهضت بازگشت به اسلام

... «سیدجمال» فریاد می‌زند تا مسلمانانی که در تمام آسیا و آفریقا بردهٔ چهار تا کلنل انگلیسی و فرانسوی و پرتغالی و ایتالیایی و اسپانیایی هستند، آزاد بشوند و رهایی یافته، به اسلام و قرآن بازگردند.

فریاد می‌کشد به اسلام جهاد بازگردیم تا از این ذلت و بدبختی بیرون بیاییم. قرآن را دوباره بگشایید و بخوانید و استعمار را بکوبید. «او» مثل روح ملتهب و مجروح در هند، اروپا، ایران و ترکیه می‌چرخد و فریاد می‌کشد و خوابها را می‌آشوبد! مصر خواب‌آلودی را که در زیر بار بردگی و استعمار و ذلت به مرگ نشسته بود چنان بیدار می‌کند که انگلستان در یک روز چند بار کابینه تشکیل می‌دهد.

«سیدجمال» نه تنها به عنوان یک مصلح اسلامی، بلکه در چهرهٔ یک انقلابی ضداستعماری در دنیای اسیر برخاست و فریاد بر آورد و اولین کسی است که نهضت بازگشت به اسلام نخستین و شعار رنسانس اسلامی در عصر جدید و در سطح تمدن و اندیشهٔ این زمان و این نسل، مطرح کرد و اولین کسی است که با تکیه بر مذهب اسلام جنبش ضداستعماری و آزادی‌خواهی و نهضت رهایی بخش دنیای اسلام را آغاز کرد و این افتخار و پیروزی بزرگی بود...

«سیدجمال»، مردی که با استعمار غربی که در اروپا اسلام را لجن‌مال کرده با استعمار فرهنگی و فکری مذهب را در دنیا نابود کرده با دانشمندان وابسته به کلیسا که علیه پیغمبر اسلام به فحاشی و سمپاشی دائمی مشغولند و با مادیونی که اصولاً ریشهٔ خداپرستی را می‌زنند، یک تنه وارد مبارزه‌ای بی‌امان می‌گردد و بزرگ‌ترین مدافع اسلام می‌شود، اما از پشت خنجر می‌خورد و مطرود و تنها می‌شود... دشمن با حربهٔ فحش و تهمت به میدان می‌آید، معلوم می‌شود که خلع سلاح شده است. اما ۲۰ سال بعد فریادش اوج می‌گیرد و در تمام کشورهای اسلامی نهضت‌هایی پدید می‌آورد که هرگز فرو نمی‌نشینند...

دکتر علی شریعتی

